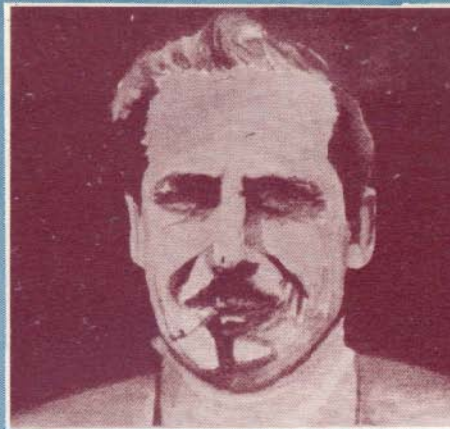


حنّا مينه

الياطر

دار الآداب

حَنَا مينه

الياطر (١)

دَارالآدابُ

رواية

(١) المرساة

B.HAMDAN
1/9/2008

الطبعة الثانية

كانون الثاني (يناير) ١٩٨١

الطبعة الثالثة

تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٤

انا زكريا المرسلــي ، لست راضيا عمـا حدث ، واقسـم على ذلـك • ماكنت اريد ان يقتـل ابني ، فـؤاد المرسلي ، الصيـاد حسن الجربيـدي ، ولكنه قتلـه • كنت عنـد وقوع الحادث ، في ميناء الزجاج ، نتر خيط التلويـح معي • كانت انتياسة [1] كبيرة ، قوية ، وانا بيد واحدة • اليد الاخرى بترها من الرسغ ، اصبع ديناميت • وكانت الانتياسة مشاكسة ، كامرأة حرون ، تريد ان تمتلكها بالقـوة ، فصحت بهـا : ياعاهرة ! مضى الزمن الـذي كنت اصلح فيـه للهراش •• لاتأخـذي وتعطي كثيرا •• لم اعد شاباً ياحياتي ، ولكنني على كفاية من قوة • لاتصدقي مايقال ، زكريا المرسلي هو زكريا المرسلي • قصة القصبة كاذبة ، لفقها الذين تحديتهم بيد واحدة • اولاد الكلب ، هؤلاء اعرفهـم ، ولاغاظتهم راهنتهـم • قلت لهـم : « لاتشمتـوا بي ، حتى ولو قطعت يدي الاخرى اظل أنا أنا ، صيادكم وتاج رأسكم جميعا • اربطوا يدي لتروا • وقدربطوا يدي الباقية الى ظهري ، ومع ذلك القيت الدنّاميت •• اشعلته

---

(1) انثى سمك الانتياس •

باسناني ، وامسكته ، بين ابهام وسبابة قدمي ، وقذفته على رف من الشيلان ، [1] فانفجر واخرج احشاء البحر الى السطح ، وبينما كانت المياه تغمر وجهي ورأسي ، ضحكت كأن انسانا يضع اصابعه في خاصرتي . قهقهت ساخرا ، وشتمتهم ، وبصقت نكاية ، ثم ادرت ظهري للسمك الكثير العائم ، تركته لهم ، للعجزة ، للذين يؤجرون اقفيتهم ، وشربت زجاجة كاملة على الصخرة ، وعليها نمت الى الصبح ، وليس علي سوى قميص من شيت ، وسروال قصير ، كمه واسع كتنورة ، ولبادة على رأسي ، فوق الشعر المصمغ بالملح وزنخ السمك .

انا غير راض عما حدث اليوم ، وما كنت اريد ان يقتل ابني حسن الجربيدي ، ولكنه قتله ، ولست قادرا على احيائه ، ولا على الحزن عليه ، فالحزن ليس شغلتي ، ولم يمنحني الله قلب امرأة . وحين جاءوا الي وقالوا : « ابنك قتل حسن الجربيدي » سمعت ولم اسمع . كانت عاهرتي [2] تغنج باكثر مما تحتاج لاهاجتي . انثى ! لو كانت ذكرا لنترت بقوة ، ولكنت اعطيتها وشكمتها . كنت مع الذكر احسم الموقف بسرعة . ولكنها انثى ، انتياستي انثى ، وهذه في الماء او على الفراش . واحدة ، مغناجة . قلت لها : « اغنجي ياحلوتي ، اغنجي .

---

(١) الكبير من سمك البوري .

(٢) يقصد السمكة .

لسوف اصطادك انت ياواحدة من كثيرات ، وسنرى ٠٠ لن تفلتي من قبضتي ، انا العجوز زكريا المرسنلي » ٠ تملكتني رغبة مجنونة في استعادة مشهد بعينه ، قطعه علي ابني ، انا الذي جاء به ، في ساعة نحس ، الى هذا العالم ٠ كنت يومها عاريا ، ومع امرأة على فراش واحد ٠ كنت في حال من الانسجام كما انا معك ياانتياستي ، وبمقدار غنج المرأة كانت نشوة ملعونة تدب في جسمي وتهيجني ٠ وفي هذه اللحظة سمعت جسما يسقط في صحن الدار ٠ خبطة قوية من اعلى جدار الحوش واذا ابني في الداخل ٠ قفز وهو يعلم اني هناك ، اقتحم علينا الغرفة بدون خجل ٠ لم يخجل منها ولا من عريي انا أباه ٠ صحت به « اخجل ياابن الكلب » فلم يتحرك ٠٠ راح ينظر الينا بعينين فاجرتين ولسان مدلوق كالكلب في الحر ٠ كان ، قسماً، جروا مريضا ، مخيفا ، وقد اضطررت ، امام وقاحته ، الى شد الغطاء على جسمي ، فانتهزت المرأة ارتدادي عنها ، وتملصت مني وهربت ٠ قفزت انا من السرير ووقفت قبالته ٠ رفعت يدي وصفعته ٠ آه لو كانت معي سكين ، لكنه لم يتحرك ٠ النذل لم يتحرك ، قال لي : «البس ثيابك واذهب الى زوجتك» ٠ السافل قال زوجتك ولم يقل امي ٠ حسنا ، كان التيس مستعدا للعراك ، ومن المطبخ ، عارية كحواء عند الخطيئة ، كانت تراقبنا ٠ الاب والابن وامرأة ٠٠ زكريا المرسنلي وفؤاد المرسنلي وازنيف ، فكرت : لايجوز ، فضيحة كهذه لاتجوز ،

واردت وضع ثيابي علي والانصراف، لكن أزنيف اعطتنا ظهرها وهي عارية ، ومن الباب رأيت ردفيها •• رابيتين بيضاوين موردتين • ارتجفت يدي ، جلدها المغضن رف ، كالعين التي تطرف رف ، وشراينها احتقنت ، واعماني غضبي •• تمثلتها امامي ، على الفراش ، مستلقية على وجهها ويدي تداعب مكوراتها ، فانقدحت شرارتي وارتجفت يدي • اطبقتها وانهلت ضربا عليه • كنت أشتهي قتله ، هذا النغل ، وأي شيء لافعله في سبيل ان اضع يدي ، ثم خدي ، على ذلك القطن الملفف بجلد شفاف ، ذلك الكون المتربرب من لحم بغمازتين ؟ ضربته فلم يقاوم • استهان بي وبضرباتي ، فصحت به منفجرا: « اغرب عن وجهي لعنك الله ، ياابن الضبعة ، اذا كنت لاتريد ان اقتلك ، فاغرب عن وجهي » لم يسمع ، لم يتحرك ، العاهر لم يتحرك ، وزاد فخلع سترته واندفع ، كجمل هائج، وراءها الى المطبخ • سمعتها تركض ، وتقف ، وتتمارك ،وتقول كلمات داعرة ، ثم تقع ارضا ، ويقع عليها ، وتطلق صرخة صغيرة ، مثيرة • ركضت مزبدا ، باتجاه المطبخ ، وفي طريقي رفعت جذعا يابسا ، وهويت به على رأسه وهو فوقها،فتراخى• لم يصرخ بل تلوى وتراخى • ونفر الدم من رأسه فبلل الارض • وزعقت ازنيف : « قتلته ياوحش ! » فأجبتها : « ساقتلك انت ايضا » • رفعت الجذع لاسحق رأسها ، ولكن الضربة اخطأتها • تدحرجت ونهضت عارية وركضت •افلتت

مني • لم يبق امامي سوى ابني القتيل والدم الذي يسيح على الارض ، وعندئذ ارتد الي شعوري ، فرفعت قبضتي وضربت على رأسي • آه لقد قتلته ! ولم اعد ادري ماافعل ، وبدلا من ان ارفعه ، اضمه ، ابكي فوقه ، ارتديت ثيابي وخرجت راكضا كأن النار في ثيابي •• لم اذهب الى البيت • هرولت ، دون وعي ، في الشوارع ، ووجدت نفسي على الشاطىء ، وهمت ، على امتداده ، يوما كاملا •• وفي المساء رأيت انسانا يسير باتجاهي • حسبته البوليس جاء ليقبض علي • لم أشأ ان اهرب • كنت محتارا ، مسمرا ، انقل قدمي بصعوبة ، ولا رغبة لي في الهرب ولا في الحياة • ولكنه كان هو ، ابني ، وقد جاء يبحث عني ، ولم يقل لي شيئا ، بل وقف قبالتي ، ونظر احدنا الى الاخر بدهشة وغضب وحنان • واستدار ومضى ، كانما جاء ليريني وجهه ، ليطمئنني الى انه لم يمت • وقد حمدت الله انه لم يمت ، وارتميت على الرمل المبلل والصقت وجهي به ومرغته ، وتركت الامواج تبللني وتغسلني من خجلي وعاري • وسمعت وانا ملقى ، كالدرفين [1] النتن الذي قذفه البحر ، نشيش الرمل والماء والدنيا في اذني ،وحين رفعت رأسي كان البحر الازرق الرحب بركة ملونة بالدم امامي ، والسماء كئيبة ثقيلة فوقي ، والريح نواحة من حولي• ولم تكن بي رغبة في النهوض ولا قدرة على استعادة ماجرى ،

(١) الدلفين •

برغم الشعور المريح الذي خالجني لان ابني لم يمت ، ولاني لم ارتكب جريمة مروعة في يومي • داهمني انقباض تعس اياما بعد ذلك ، لالانني كدت اقتل ابني ، بل لانني كدت اقتل ذكرا في سبيل انثى ، وانثى فاسدة من هذا النوع • آه ، اللعنة علي وعليها ، كيف افلتت مني ؟ ومع ذلك نازعتني نفسي بالعودة اليها • قلت ساقتلها ، سأؤدبها ، ولكني كنت كاذبا • كنت أشتهيها ، فانا لم انس مكوراتها التي ارغمتني على العودة اليها ، لكنها كانت قد اختفت • ابتلعتها الارض • وهكذا لم تلامس يدي ذلك الكوم المتربرب ، بسبب هذا الوغد ابني ، وظلت يدي ، بعد ذلك ، ترتجف • قالوا ان الرجفة من الشيخوخة ، كذبوا ، هاتوا ذلك الكوم ، وضعوا عليه يدي مرة اخرى تروا ••

من اجل أزنيف تلك ، ولأن ابني صدق حكاية القصبة ، او لانني كنت اهارش انتياستي ، واحس ، في مجاذبة الخيط بيني وبينها ، بدفقات من اللذة التي تأسرني ، لم اكترث بما قالوه لي عن مقتل ذلك « البندوق » [1] حسن الجربيدي • وحين لجوا علي في خبره زعقت بهم نزقا : « الى جهنم ، الا ترون الخيط ، الان ، في يدي ؟ غوروا ، يااولاد الكلاب ، انا ليس لي ابن • ابن الكلب هذا ليس ابني » •قلتها وثنيت رجلي فربطت الخيط بابهامها ، ولففت سيكارة واشعلتها ، ثم عدت الى

(١) ابن الحرام •

الانتياسة احاورها : « انت ياحلوتي ، كفاك تقلبا ورمزا ، اعطيتك حتى رضيت ، تعالي اذن ، اخرجي كوني لطيفة معي، دعيني آخذك وأمض » • فشمكتها كما ينبغي بحركة فاصلة فتخبطت واستسلمت ، وجاءت مع الصنارة الى البر • كانت كبيرة ، سمينة ، براقة ، علقتها بعصاي على كتفي ، وعدت متمهلا الى المدينة ، غير مبال بشيء ، فبعتها ودخلت الخمارة •

في الطريق سمعت قصة ابني على افواه الناس • قال السماكة : « سيشنقونه يازكريا » فاجبتهم : « ليفعلوا ! » لم اصغ الى هذرهم • سأسمع القصة منه ، ذات يوم ، حين ازوره في السجن ، بعد ان يصفو قلبي عليه •• انا لست مستعجلا لرؤيته ، ولست فخورا به هذا الجرو الذي اهانني ، انا زكريا المرسلي ، رابط الحوت في الماء ، الراقص على ظهره في الماء، الذي تحدثت اسكندرونة كلها عن فعلته ، ونشرت جريدة « اللواء » صورته مع الحوت •

لقد جاؤوا من بيروت لشرائه ، واعطوني خمس ليرات لانظف لهم احشاءه • قلت لرئيس البلدية : « ياسيدي لاتبعهم الحوت •• ادفنه على هذا الساحل او انتفع به » فقال : « بيعه افضل •• اذا انتن جلب الوباء الى المدينة ، ونحن لانستطيع الانتفاع به ، فليس لدينا صناعة زيوت ، ولا مناشير لنشر العظام » رفض ان نمنحه الى ارمني يصنع الأمشاط •• لو فعل لحصلنا على كمية منها تكفي لنسل القمل والصئبان من رؤوس

الناس مئة سنـة ، ولكن رئيس البلـدية ، المرؤوس بـدوره للمستشار ، اعطاه لتجار بيروت ، وهؤلاء كانوا سماسرة لتجار فرنسيين •• فنقل ، حوتي المسكين ، الى فرنسا في البحر ، في نفس الطريق التي جاء منها ، ولكنه في العودة ، كان جثـة في براد • وقد زعم الارمني الاعرج ، انهم اعادوه الينا في معلبات باهظـة الثمن ، وان عظامه تحـولت الى تماثيل ، وانهـا ثروة ضاعت علينا ، ولكن احدا لم يصدق الارمني الاعرج ••رئيس البلدية امر ، وفي ذلـك الوقت كان الناس كحمير النواعـير ، ينفذون الاوامر وايديهـم على رؤوسهـم ، لكني انا ، زكريا المرسلي ، رفضت تنظيف جوف ذلك الحوت بخمس لـيرات، فاضافوا اليها نصف ليرة اخرى ، و « دمجانة » عرق ، وهذا يكفـي • رفعت الدمجانة الى فمـي واغمضت عينـي : كر •• كر •• كر •• سحبت بعد ذلك خنجري،ومزقت الخاصرة • فتحت فيها ثغرة ، ومددت يدي اسحب الامعاء ، مزقا مزقا • قال التجار ، بعد ان تحدثوا بالفرنسية مع رجل اشقر : « هذا لايكفي ، افتح جوف الحوت وافرغه كله ، نريـد ان نحشوه قشا وملحا » •• وكان الليل قد هبط ، فجمعنـا على الشاطىء كثيرا من الاخشاب واضرمنا النار ، وشويت على الجمر قطعا من الاحشاء ، واكلت الكبد نيئا،وبيدي (وكانت سليمة بعد) اخذت دمجانة العرق وذهبت الى الحوت فسكبت منها في فمه• قلت للسمكة : « اسمعي ، انا لم اكن عدوك قبل ان تأتي الى

ديارنا •• ونحن لـم نطلبك ، ولا ارسلنـا لك مكتوبا ، لكـن الشيطان الازرق جاء بك •• كان هو بسفينتـه ، وكنت انت وراءه • لقد خرب هذا الشيطـان الازرق [1] بيوت اصحـاب المراكب ، وخربت انت بيوت الصيادين •• اثرت الاضطراب في جوننا الهادىء • لم تتركي فيه شيئا لنـا • طاردت اسماكه حتى الارصفـة ، وباندفاعات عميـاء ، حطمت رأسـك على صخوره ، وعندما فقدت وعيك هاجمت الساحل كله • قلبت بعض الفلائك ،وافترست بحارا ضعيفافقيرا • حسبت الا خوف عليك ، وانك قوية ، وقـادرة على النجاة ، دون حسـاب او عقاب ، وها انت ، كالضبعـة المطعونـة ، ترفعين قوائمـك الى اعـلى » •

لقد كنت هناك ، انا ، على صخرة عالية ، في الطرفالاخر من الميناء • رأيت كل شيء ، وسمعت كل شيء • هممت بترك السمكة العالقة بصنارتي ، لكنها كانت ترهز • وعبر الخيط ، كان رهزها ينسرب الى نخاعي وظهري • كنت ، كحالي ظهر اليوم ، أواصل حلوتي ، ولم اكن ابادل ذلك بأي مغنم يأتيني• تعلمت من تجاربي الا افوت لحظتي ، ولا ادع صيدتي تطـير مني• وحين أخرجت السمكة ، كانت الميناء قدازدحمتبالناس، بالوطاويط ، وهم يركضون ، من طرف الى طرف ، دون ان يجرؤوا على الدنو من سمكة الحوت • كانت جبارة ، وبعزم

(1) قبطان السفينة •

الجبار ترفع ذيلها وتضرب وجه البحر فتنثر الماء ، فمل حجر من الف طن القي فيه • كانت تبحث عن منفذ في الجون الذي سدت منافذه في وجهها • أسد في قفص حديدي • اسد في الماء ، في قفص مائي ، قضبانه صخور • والاسد يروض • يتعلم ان يزمجر في فراغ ، ويدور في المشبك الحديدي دون ان يحاول قضمه • يدور ، يدور ، ويتعب ، ويقعي في الزاوية، كأي كلب حبيس • اذ ذاك تتهدل لبدته ، ويسترخي ذنبه ، نزولا على حكم الواقع • انا رأيت اسدا على هذه الحال ، وتوقعت ان يضرب رأسه في الحديد،يموت او يلويه ويخرج، ولكنه لم يفعل ، وعندئذ تفقت عليه ، فنظر الي معاتبا •ابتعدت مسرعا ، نادما على فعلتي ومغتاظا منه لانه لايعرف ان يموت او يتحرر • والحوت، اسد الماء ، لم يكن قد تروض بعد ،لذلك عزم على تحطيم قفصه الصخري او يموت ، وقد مات • انا غير آسف عليك ايها الحوت بسبب افعالك في جوننا ، ولما وصلت وانت تنطح الصخر،والناس يخافون الاقتراب منك تلبستني روح المشاكسة • قلت في نفسي : « ليتدبر اولاد الكلب امرهم » ورحت اراقبك ياسمكتي وانت،الضخمة كقطار طويل،الهرمة كتيس التركمان ، قداعمى الحقد بصرك ، فاندفعت في هجمات انتحارية ، على الساحل ، وربضت على الرمل •• لم يعد الماء يحملك ، وذنبك الذي يضرب كمخباط وجه البحر ، فيشقه كعصا موسى ، كان دفة خائبة ، لاقدرة لها على تحريك

هيكلك وتدويره . وجاء الاوغاد فافرغوا الرصاص في رأسك من بعيد ، لكنهم هابوك فلم يجرؤوا على الاقتراب منك ، وكنت انا قد وصلت خائبا مثلك ، فقلت « هذه هي سمكتك الكبيرة التي تحلم بها يازكريا ، انزل اليها .. اربطها بحبال حديدية، او مت وانت تصارعها .. مت كما يليق بصياد حقيقي ، او اربطها واخرجها » .

نزلت .. صفق الناس .. حركت انت ذنبك وخبطت الماء ، فانقلبت الفلوكة ، وتعالت الصيحات والضحكات على الساحل . ذقت مرارة الفشل ، والخوف ، ولكني تجلدت ، وبحثت عن نقطة الضعف فيك حتى اكتشفتها وانتصرت .. كان وسطك ، لارأسك ولا ذنبك ، هو المأمن ، وغطست باتجاهه ، وخرجت من الطرف الثاني ، وهلل الناس ، وتحركت انت .. ولكنني شاب وانت عجوز ، عشت عمرك وانتهى الامر .. كان لابد من فنائك ، من نهايتك ، وقدعجلت لك بها ، وناديتهم : « هاتوا الحبال » وربطتها حول خصري ، وغطست ، وانتظرت حتى ارتفع ذنبك مع الماء ونزلت تحته ، وسحبت الحبل معي .. وخرجت مرفوع اليدين :لقدربطتك. صفق الناس ، وصاحوا : « ابتعد يازكريا ، ابتعد » لماذا ؟ اسكرني النصر فصعدت الى ظهرك .. وزاد التصفيق ، وزادت حماستي . قفزت مرة اخرى الى الماء .. صار الموت

سهلا ، ولم اعد ابالي . ربطت طرف الحبل بعقدة السلك الحديدي الثخين ، وشددناه الى زورق وسحبناه ودخل السلك تحتك ، واوثقناك بحلقة حديدية ، وجئنا بشاحنة وقفت على الساحل وسحبت ، لكن دواليبها دارت في فراغ ، كنت جبارة فضاعفوا الشاحنات ، وبدأ هيكلك العظيم يبرز ، وفقدت ، يامكلة الماء ، مملكة الماء ، صرت في مملكتنا : الارض ، واستسلمت ، بعد صراع ، الى نهايتك . توقف ذنبك عن الحركة : انه الموت ! . هجم الناس .. الاوغاد هجموا ، الاف هجموا ، ورفسك واحد منهم بنعله ، وادرت انا وجهي كيلا ارى . هرولت الى اقرب خمارة فشربت سطلا كاملا .. ورفض الخمار ان يأخذ ثمنه ، قال : « على حب الرجال ! » وقلت في سري : اخس .. ليس ثمة رجال ، كلهم نساء ، كلهم نساء .. ، أتسمعين ياعزيزتي ؟ ليسوا رجالا هؤلاء .. قد يصبحون كذلك ، وقد ينجبون رجالا ، ولكنهم الآن ، نساء ، اقسم لك بشرفي ، انهم نساء ، كأسك .. اشربي قليلا ، قليلا ايضا ، واعذريني ، لسوف ابقر بطنك وانا آسف .. انت لاتحسين بما افعل الآن .. بعد الموت لايحس الجسد .. وانا لااحترم الموت في الجسد ، سيان ، ليقطعوني ، انا زكريا المرسنلي ، الف قطعة بعد موتي ،وفقط ليحترموني في حياتي ، لتكن حياتي جميلة ، مثل ليلة صافية » .

قال التجار : « عجل يازكريا ، عجل ، ماذا تنتظر ؟

سكرت ؟ تتحدث الى سمكة ؟ مجنـون انت ؟ ، لا ياسادتي ، لست مجنونا ، ولذلك اسكر ، لو جننت لسكرت مرة وانتهى الامر ، انا قبضت منكم خمس ليرات ، ومقابلها سامزق لكـم سمكتي ، واستخرج احشاءها ، ولكني لن افعل ذلك ، قبل ان اسكر ، انتم خنازير ، وانا مثلكم ، قد اذبح جملا ، امزقه ، استخرج احشاءه ، دون شفقة او ندم ، ولكن سمكتي هذه ، تصـدرونني ، لاتتعجلـوا علي ، لاتحرموني مرآها بسرعـة ، اذهبوا الى النار ، ياأولاد الابرة ، عدت الى دمجانتي فرفعتهـا الى فمي ، وصل الشجعان ، الصيـادون الحقيقيون ، الرجـال الذين كانوا يصارعون البحر ، وصلوا ، فقلت لهم : « لنشرب ، ياإخواني ، على اسم الله ، ولنأكل من صيدنا حلالا زلالا » ،

سحبت خنجري وأغمدته في خاصرة السمكة من جديد .. لم يكن بامكاننا ان نقلبها ولا سبيل الى تفريغها الا من خاصرتها ، وهناك لعبت بخنجري ، صارت الثغرة طاقة ، وادخلت يدي .. عبثا ، لابد من كسر الضلع .. « الي ببلطة » صحت ، وضربت .. كنت قويا كثور المصارعـة وضربتي لاطبيب لها ، ولكن عظـم السمك .. هل تعرفون عظم السمك ؟ لا ، وهل تعرفونني ؟ هذا لايهـم ، لست شيئا يذكر على كـل حال ، وفي المـدينة لايأبهـون لي ، اما على الشاطىء فالمسألـة تختلف ، انا رب الشاطىء ، اقول لكم انا رب الشاطىء ، وهذه السمكة تشهد

لي ، وفي كل الاحوال لن اطلب شهادتها ، ولا يعنيني مايقال عني ومالا يقال • حافيا امشي • الحذاء لايدخل في قدمي ولم تعتادا عليه • وحين اسير حافيا ، مفتوح الصدر ، معصوب الجبين ، وراء اذني عرق حبق ، وفي جيبي ثمن سكرة ،عندئذ لاأسأل عن الوالي • لقد عرضتم علي تفريغ السمكة ، وانا قبلت والسمكة لاتقبل ، والبلطة تصيب عظمها وترتد ، تتأبى علي ، هي ايضا لاتعرفني •

كان علي ان اكسر الضلع • وامام عناد السمكة استيقظ عنادي ، وفي داخلي فارت عصبية مدمرة • السمكة التي كنت الاطفها واسقيها لم تعد سمكة ، لم تعد جسما هامدا يستدعي الشفقة • صارت ، مرة اخرى ، خصما كريها ، امرأة عصية، اما ان تعطيني نفسها واما ان احطم رأسي لانالها •

كانت فتحة الخاصرة قد اتسعت ، فادخلت رأسي فيها واخرجته بغير فائدة • العرق يتصبب من جسدي المقهور ، والدم يلطخ شعري ووجهي وصدري ، وقدماي الحافيتان تغوصان في الرمل البارد ، فوق الحسك ونثار العظام ، وغضب يلهب دماغي • قذفت البلطة بعيدا ، وبغير كلام ركضت شبه عار الى الخمارة •• لقد تبخرت دمجانة العرق ورشحتها مسامي •• ولكي ادفيء نفسي طلبت نبيذا ، وضعت الليرات كلها على الطاولة وقلت للخمار :

ـ نبيذ يازخريادس !

قال زخريادس :

ـ النبيذ كثير يامرسنلي ، ولكن لا ابيعه بالليرات •

ـ وبماذا تبيعه ؟

ـ ببطرخ السمكة ، انت احضر لي مافي جوفها ••وانا اسقيك قدر ماتريد •

ـ واذا شربت كل مافي خمارتك ؟

ـ اشربه ••

ـ كلمة شرف •• ؟

ـ نعم ••

ـ اتفقنا اذن ، لسوف آتيك بكل مافي جوف السمكة •• اشهدوا ياناس •• كل مافي جوفها ، حتى القلب ••

تناولت ابريقا زجاجيا كبيرا ارجوانيا فأعدته فارغا •

ـ املأ يازخريادس •

ـ حاضر يامرسنلي •

ـ املأ

ـ حاضر ••

ـ املأ مرة ثالثة •

صاح البحارة :

ـ يكفي ، لسوف تصترعك الريح •• هذا نبيذ وليس ماء •

قال زخريادس :

ـ اتركوه •• هذا البرميل كله له ••

كان يضحك من تحت شاربـه الاشيب المعقوف ، الناصـل الخضاب ، ومن عينيه الصغيرتين يطفح فرح وعزم •

قدرت انه سيسقيني نبيذه كله لو اردت • السمكة اللعينة ، والنار على الشاطىء وضجيج الناس •• انه عرس حقيقي•• المرفع الكبير كما في بلاد اليونان • وخطر لي ، انا زكريا المرسلي ، ان ارقص •• كانت الفرحة طاغية ، وقالت امرأة لامرأة :

ـ هذا الذي ربط السمكة ••

قلت في سري :

ـ لعينيك وعيني السمكة •• مري •• انت،يانسل حواء اللعين!

صحت بزخريادس :

ـ اعطني هذا البرميل والحقني بمالديك من سلال فارغة •

حملته وركضت عائدا الى حوتي ، وقلت للبحارة: « اشعلوا النار •• اشعلوها ياإخواني محبة بالله •• واشربوا •• هنا البرميل لكم •• وما في جوف السمكة لزخريادس ، لحبيبي زخريادس • »

هتف البحارة لزخريادس • هتفوا وشربوا ، وملأت زجاجة واقسمت ان اشربها داخل السمكة ، وامسكت بلطتي وجئتها من خاصرتها الثانية ورحت اضرب •• تناثر اللحم على وجهي وصدري ، ولهثت من السكر والتعب ، لكني احدثت فيهافتحة جيدة • تناولت خنجري وشرعت بتجويفها ، وعندئذ وقعت المفاجأة ••

ابني ، الذي قتل اليوم حسن الجربيدي،لايصدق كلامي•• البندوق لايصدق اباه •• واقول له « انا ، انا الذي اصطاد الحوت ، يانغل! » ويجيبني :«انت اجهزت عليه •• كان جانحا فربطته ، وميتا فبقرت بطنه ، انت مدع عاجز ، قهرتك انتياسة، فأخذت القصبة منك وهربت »•امك ياابني صالحة مثل اسمها• امك كانت قوية كفرس فهددتها انا ، زكريا المرسنلي • هي شريفة وانت عاهر •• انت ابني الحقيقي ، من دمي العكر ، من صلبي الذي لم ينه ابن امرأة ، وتضحك ، وتصدق ان الانتياسة اخذت مني القصبة •• تفو ياوغد ، يامن ، في تلك الليلة ، ليلة اصطياد الحوت ، قذفت بك في رحم امك ••جئتها

تلك الليلة مخمورا ،مع طلوع الفجر ، في عربة نقل استأجرها لي، زخريادس • كنت قذرا كجاموس تمرغ في وحل ، داميا كقصاب لف نفسه بجلود ذبائحه ••وصاحت امك وانا اكشف عنها الغطاء :

ـ اذهب ، اذهب واغتسل •• لاتقترب مني •• لاتقترب ياشيطان !

ولكني اقتربت •• لو مانعت لقتلتها •• في الصباح كانت اذنها مقروضة ، والوسادة مبعوجة ، وفمي مليئا بالريش ، والفراش ملطخا •• وكنت انت ، ياعاهر ، في رحم امك •• لقد زرعتك دون وعي ، في هياج اقرب الى الجنون •• وحشاً كنت ومخمورا ، وكان الله في عون امك المسكينة • لقد تزوجت حوتا وولدت درفيلا ، وبالحديد المحمى كتب على جبينها ان تشقى معنا نحن الاثنين •

نمت الى المساء •• كنت اشخر كمذبوح نصف ذبحة • امك قالت هذا ، وقالت انني نهضت في المساء ، وخرجت بنفس قذارتي ودون كلمة ، الى الملعون زخريادس • امك لاتحب الخمارات ، ولكن اية دنيا كانت هذه ، ابنة الابرة، لو لم يكن فيها خمارات ! ؟ ياالهي ! ياربي الرحيم ، ادعوك ، انا زكريا الخاطىء ، فاستجب دعائي : « ادخل جميع الخمارين الى الجنة ، وادخلني انا الى جهنم ، كفارة عنهم ، آمين • »

صاح زخريادس وهو يراني :

- اوه •• اوه •• ألم تمت بعد ؟

قلت وانا ابحث في جيوبي مستعجلا :

- اعطني خمرا •• الحقني •

لم يكن في جيوبي شيء • ضاعت نقودي ، سرقوها حين تعريت ودخلت السمكة • اقسم انهم سرقوها ، اولاد الكلاب فعلوها معي • انا واثق من ذلك • امك لاتمد يدها الى جيبي • صالحة لاتفعل هذا ، لاتحتاج اليه ، هي الداية التي تولد نصف نساء المدينة ، والتي ليس لها ولد ، فانت يانغل ، جئت متأخرا ، حملت بك في الثلاثين ، وكنت انا اكبرها بعشر سنوات ، ومن يراها يظنها امي • كانت معذبة ، اسكر واضربها، وقد حدثتك بكل هذا ، واوغرت صدرك علي ، لهذا انت لاتحبني •• ولهذا صدقت حكاية الانتياسة التي اخذت قصبتي •• تفو يانسل الشيطان !

اعطاني زخريادس خمرا بدون نقود •

- في صحتك ياصاحبي ، يامن ادعو له بدخول الجنة •

قال زخريادس :

- اشرب بدون دعاء •• انا لاأومن بدخول الجنة •

اهانني ابن الكـلاب • وحق السمـاء، اهانني • ليس معي نقود وهو لايؤمن بالجنة ، فكيف اسدده اذن ؟

ــ يازخريادس •• يجب ان تؤمن بالجنة •

ــ لاياحبيبي !

رفض العتريس ان يؤمن ، فصحت به مغضبا :

ــ تؤمن او اضربك بهذه الزجاجة ؟

ــ ولماذا يامرسنلي ؟

ــ لانه يجب ان تؤمن حتى ادعو لك •

ــ انا لااريد ان تدعو لي ••

ــ لابد ان تريد ••

ــ بالقوة ••؟

ــ نعم ، بالقوة •• حتى يصير معي نقود ، وعندئذ انت حر •

ــ في صحتك اذن •

ــ لاتشـرب ، قف •• يارب ، يارحمن يارحيـم ، ادخـل زخريادس الجنة ، بدعائي هذا الذي يسمعـه حتى لاتبقي منته علي •• والان في صحتك •

شرب وشربت • قال :

ـ انت يامرسنلي ، ياحبيبي ، معك فلوس ؟

ـ انا !؟ سألته مدهوشا .

سحب من درجه ليرتين وقال :

ـ ايوه ، هذه لك ، واشرب على حسابي حتى تسكر .

ـ انا لاافهمك يازخريادس .. ولن ادعو لك بالخير . انا لاادعو مقابل فلوس ، فهمت ؟ الدعاء مقابل الخمر ، لااريد جهنم مقابل فلوس ، لاتحاول رشوتي .

ـ اشرب انت يامرسنلي .. هذا تعبك .. امس اشتغلت .. من السمكة الكبيرة طلع سمك كثير ..

حسنا ! شربت حتى سكرت ، وقال لي الصيادون فيما بعد :

ـ انت مجنون يازكريا .. اعطيت زخريادس كل ماكان في جوف الحوت ..

ـ وماذا في جوف الحوت يااخواني ؟

ـ اشياء كثيرة !

ـ السمك ؟ البطرخ ؟ الامعاء ؟

ـ لا .. هذا كله لا قيمة له .. كان في جوفه ذهب وماس ..

ـ ذهب وماس ؟

ـ وخواتم ، واساور وعقود ..

حذرتهم :

ـ اياكم ، اياكم ، لاتتلاعبوا بي .. لاتخدعوني ، من اين للحوت الذهب والماس والخواتم والعقود ؟

قال عجوز فيهم :

ـ الحوت ، يازكريا ، يقطع المحيطات .. يتبع البواخر ، يهاجم الاحياء ، يأكل الغرقى ، وتأمل .. الذين يسافرون، غالبا من الاثرياء .. والذهب في جيوبهم ، والحلي في اعناقهم وسواعدهم ، ومعدة الحوت لاتطحن المعدن ، تفرزه في كيس خاص ، وعن هذا الكيس كان يبحث زخريادس ، فهمت ؟ لقد خدعك اللعين ، ضحك عليك .

اكد بحار آخر :

ـ كان سياح على رأس الصقالة في البحر، ومن امرأة فيهم سقطت اسوارة وكنت اصطاد على مقربة .. نادوني فجئت ، دفعوا لي ليرة فضية .. وغطست .. انا اعثر على الابرة وهي على عمق عشر قامات ، ومع ذلك لم اعثر على الاسوارة.. وبعد شهور اصطاد جاري سمكة كبيرة ، وفي البيت شقت امرأته السمكة وصاحت : « ياالهي ! اسوارة » . واوصاها زوجها : « اكتمي الخبر ، الله ساق لنا رزقنا » ولكن زوجته تكلمت .. كانت ثرثارة .

هدرت :

ـ لسان امرأة •• تفو •• وبعد ؟

ـ كانت الاسوارة من الماس ••

ـ من الماس ••؟

ـ وحق الله •• تأمل ! سمكة لاتزن خمسة كيلوات ، فيها اسوارة من الماس ، فكم في هذا الحوت الذي اعطيت كل مافي جوفه الى زخريادس مقابل برميل من الخمر؟غشك•• هذا واضح •• اذهب اليه وطالب بحصتك ، لاتحل عنه قبل ان يعطلك •

قلت في نفسي : « لقد فعلها اذن ، هذا الكافر •• طيب ياالخواني ، سترون الآن »

مضيت اليه،وجاؤوا هم في اثري • انا لست ضد الخمارين، ولم يحدث ان تعاركت معهم • على العكس ادعو لهم بدخول الجنة ، ولكن ان يغشني خمار ابن عاهرة مثل زخريادس ؟ الآن فهمت •• لقد غشني حقا ، والا لماذا دفع لي الليرتين وسقاني نبيذه ؟ يازخريادس ، ياابن التي كانت تنام على ظهرها من الصباح الى المساء ، اعد لي الذهب والماس ، والا فاكتب وصيتك ! اكتبها وانت واقف على قدميك !

قال زخريادس :

ـ انت يازكريا مجنون •• ضحكوا عليك •• تعال انظـر •• احلف لك بالله ••

ـ لاتحلف •• اريد مالي ، اريد الذهب والماس •

ـ لايوجد ياحبيبي ذهب ولا ماس •• يضحكون عليك •

ـ علي انا ؟ لايازخريادس ، انا زكريا المرسنلي ، ولا احـد يضحك علي •• اعطني ، هذه اللحظة ، حصتي • اريدها قبل خروجي من الخمارة ، ولا اقبل ليرات فضية او ورقية، اريد الذهب •• انا لم املك يوما ليرة ذهبية ، اتسمع ؟ •• لم املك يوما ذهبا ولا ماسا ، والآن ، بعد ان اعطتني سمكتي الذهب والماس ، تأخذه مني ؟ لا •• هذا لايجوز ، اعطني حصتي ، هيا ، اين خبأت المال ؟

قال رجل من ورائي :

ـ في كرشه يازكريا !

للتو ، بدا لي العنبر الكبير ، المواجه ، اصغـر من كرش زخريادس • خيل الي ان في وسعه ان يضع الحوت نفسه في كرشه ، وان في وسعي ، انا ، ان اشق ذلك الكرش فيتساقط علي منه الذهب والماس •• وكأنمافطن زخريادس الى مايجول في خاطري ، فاستولى عليه الرعب •• جحظت عيناه ، وتراجع الى الوراء ، فاستند بظهره الى رفوف زجاجات الخمر ، ثـم

حجم ، وقد رأى نظراتي تستقر على السكين التي يقطع بها « البسطرمة » يريد اخذها .. هو دلني عليها . انا لم افكر فيها حتى دلني عليها . اكتملت في رأسي صورة مايجب ان اعمل . كرش ، وسكين ، وذهب وماس ! سبقته الى التقاط سكين السطرمة ، وبضربة طولانية انفتح الكرش ، من اعلى الى اسفل ، واندلقت منه الاحشاء .. تفجر الدم ، والامعاء تدلت ،وزخريادس ، بشاربيه الكبيرين ، تهاوى على ركبتيه ومعه انهارت رفوف الخمر التي تمسك بها .. تكسرت القناني ، وانساح الخمر ، وصارت الوليمة جاهزة .. اولاد الكلاب الذين ورائي ، الذين اغروني ، كانوا على موعد مع الوليمة . اختلطت الاصوات وتشابكت الايدي ، وانفلتوا كجرذان في الخمارة ، ولم يهتم احد بي ولا بزخريادس .. صار الخمر ، والبسطرمة والنقانق ودرج النقود ، نهبا لهم ، والشاطر من شرب واكل واخذ اكثر مايستطيع ..

كان زخريادس مكوما وراء الدكة ، اسفل الرفوف،وكنت انا ذاهلا كأن كرشي هو الذي بعج ، والخمارة بكل مافيها ، تفتل من حولي:الدكة والرفوف والزجاجات وسكين البسطرمة المدماة .. وكان العراك ، بين الناهبين ، على اشده ، والخمر المتدفق من الزجاجات المتكسرة والدمجانات المرفوعة الى الافواه، يصبغ الشعور والوجوه والقمصان ، وعلى الصدور جداول

منه ، والاصوات ، والزمجرات الحيوانية ، والعراك بالايدي ، والتخاطف بالاكف ، كل ذلك كان يجري من حولي ، يحيط بي ، وكذلك كانت « لبادات » الرؤوس التي سقطت وديست تحيط بي ، وانا وسط هذا الانفلات الصاخب ، مفتوح الفم ، لاادري مااصنع .

اخيرا واتتني القدرة على الحركة ، زعقت وامسكت بواحد فرفعته وخبطته على الدكة ، فتدحرج الى الداخل وسقط على زخريادس . أنشأت اضرب بيدي ، ورجلي ، وانطح برأسي ، وكل همي ان اشق طريقا لنفسي فاخرج واتنفس . وحين تم لي ذلك انطلقت بقوة عاصفة ادور بين الازقة ، كأن زخريادس ، والناهبين ، ورجال الدرك ، واهل المدينة يطاردونني كلهم . حثثت الخطى ، بل ركضت ، وخرجت من زقاق يؤدي الى البحر عبر مستودعات الاخشاب ، حتى انتهيت الى الشاطيء ، ورحت اسير عليه ، هائماً ، لاوجهة محددة لي ، لاهدف ، مثلي يوم كدت اقتل ابني . كنت قادرا ان اسير على امتداد الشاطيء حتى الف المتوسط كله . تملكتني رغبة في ان اقوم بهذه الرحلة العجيبة . لعنت في سري المدينة والحوت وزخريادس واولاد الكلب الذين حرضوني عليه . بدا لي ، عندئذ ، ان الحياة حلوة ، هكذا بدون ذهب ولا ماس ، بدون بيت ولازوجة ولا ولد . كل هؤلاء اعداء ، على نحو ما ، وليس من صديق

الا البحر . هو وحده الذي يقبلني ، ويعرف سريرتي ، ويقدر ان يغسلني من خطيئتي . تعبت من السير فجلست على صخر بين الادغال . جاءت الاسماك ترعى تحتي ، تمنيت لو تخرج الى السطح ، وتراني ، وتتحدث الي وتقبلني بينها . تساءلت : « اذا أنا القيت نفسي في البحر ، وظللت اسبح واسبح فاين اصل ؟ سابلغ البر ، من الطرف الاخر ، وسأجد ناسا آخرين ، فكيف يكون هؤلاء الناس ؟ »

في هذه اللحظات ، اكثر واكبر من كل الاماني ، كانت امنية التحول الى كلب بحر . شكلي وطبعي يلائمان هذا الحيوان . انزل في البحر فلا اخرج ابدا .. بلى ، اعود مرة واحدة الى المدينة ، الى خمارة هذا اللعين زخريادس ، فارى ماحل به ، ثم اغطس ولا اعوم . ابقى في الاعماق ، في كهف بعيد ، عميق ، لايصله بشر ، سمكة من الاسماك التي تعيش هناك . ترى ، لماذا يعيش السمك في الماء ولا يعيش الانسان ؟ السمكة تتنفس من غلصمتيها ، فلماذا لايتنفس الانسان من اذنيه ؟ ولماذا لم اتدرب على التنفس من اذني ؟ لو استطعت ان اتنفس كذلك ، لعشت هناك ، ولم ارجع الى هذه المدينة الساقطة .

خلعت ثيابي وقفزت الى الماء .. نزلت مفتح العينين الى الاعماق .. بقيت تحت الماء حتى احتبس نفسي . تضايقت

و « طقت » اذناي فاضطررت الى الصعود .. كنت جائما ولم يعد امامي سوى الاختباء ، فقلت اذهب الى امام ، وفي الجبل الملاصق للبحر اعيش ، الندم ! الندم ! ياالهي ! انا الضخم كجاموس ، الجاف كزيتونة احرقها الصقيع ، احسست ، وربما لاول مرة في حياتي ، بالرغبة في ان اركع واصلي . كانالبحر هادئا ، شفافا ، ومويجات رقاق،ذات زبد ابيض ناعم كالتخاريم، تتكسر على الشاطيء ، وعند الافـق حيث الزرقة الداكنـة ، جبل اخضر ، وعلى الجبل منارة ، وقلت في نفسي : « مااسعد حارس المنارة ! » الشيطـان ، في داخلي ، نـام . زخريادس الملعون ، الذي لايؤمن بالجنة ، قد يعيش في داخله مـلاك ، اما انا فهيهات ، ولكنني لست بعيدا عن جو الملائكة الان . ولو رأيت زوجتي لغمرتها بعاطفة انكرتني معها . كنت قبلتها ، من القدم حتى الرأس، ووسدتها زندي ، واستغفرتها كل ذنوبي، واصطدت لها سمكة فضية ، واطعمتها لحمها الابيض بيدي ، واذا تعذر وجود الطاسة ، حملت اليها الماء من الينبوع براحتي، ثم وضعت ذراعي حول خصرها وسرت ، احكي لها ، ونحن نخب في الرمل المبلل ، حكايات ايامي الخوالي .

نهضت وتابعت مسيري ، دائرا مع الشاطيء ، حول الجون الهادىء . كان الوقت اصيلا ، وفي البعد دخان يتعالى ، وقد أهاج الدخان جوعي ، فيممت شطر المنارة وبلغتها ليلا ،فطرقت باب الحارس ، وبت عنده .

في الصباح غادرته • اعطاني رغيفا وتينا يابسا ، وسرقت منه صنارة مع خيطها • لو طلبتها لاعطانيها ، ولكنني سرقت الصنارة والخيط ، وكذلك كبريتة ، واعطاني هو قليلا من التبغ ، وهكذا تأمن قوت يومي ، فقررت ان اعيش على مقربة ، في احراج الغابة المحاذية للبحر • اقمت خيمة صغيرة على صخرة واطئة • كنت مجبرا على الاكتفاء بها • فقد جمعت اغصانها من الغابة ، وباوراق القصب ربطتها ، ولملمت كومة من القش وفرشتها على صخرة ، وحفرت الارض واخرجت بعض الديدان وعمرت صنارتي للصيد •

عند المساء كان سمك كثير عندي • واكتشفت ، لخيبتي ، انني نسيت الملح ، وقلت لابأس ، انظف السمك في ماء البحر ، وفي الغد انشف الماء واحصل على الملح ولو كان مرا • جمعت كومة من حطب الصنوبر ، واضرمت النار فشويت السمك واكلت وتدفأت ، فقد كانت الامسية باردة •• كنا في الربيع • وبعد ذلك دخلت الخيمة واستندت على مرفقي ، وطمرت قدمي في القش ، لكنهما ظلتا باردتين ، فوضعت رأسي بين ذراعي وتكومت على نفسي ونفخت في صدري ، ولم اشعر بالدفء • نمت وانا احلم بالشمس ، بالشمس القوية ، المعبودة •• ومن حولي تعالت اصوات الوحوش ، وسمعت عواء الكلاب في الابعاد ، وخشخش الغاب ، وارسلت ضفدعة زعقات الاستغاثة الرتيبة •

ومع تقدم الليل سكن الغاب •• لم يبق سوى خرير الموج على الشاطىء ، ورائحـة الصنوبر العطرة ، ونجوم تتغامز في القبة ، وسماء صافيـة ، وانا كالقنفـذ الخائف ، متداخـل في بعضي ، وحيد ، مطـارد ، وملعون • راح المـاضي ، ذكريات كئيبة ، يسيل في صدري •• ولكني نمت • كنت تعبا ونمت ، ثم افقت مذعورا ولم يأتني النوم ثانية الى الصباح •

« هكذا ياابني ، ياحنشا خلفه حنش ، لدغت مثلك رجـلا في شبابي • انت قتلت حسن الجربيدي،وابوك قتل زخريادس الخمار • انا لااعرف لماذا قتلت حسن الجربيدي انت ، ولست مكترثا ولا مستعجلا • سازورك يوما في السجن واسمع منك، وارجو الا تكون في ذلك اليوم تيسا تركمانيا فترفض الكلام ••

نمت تلك الليلة في خيمتي على الصخر • لو قال لي انسان انني جبان لضربتـه على يافوخـه • ماهـو الخوف ؟ ماهـي الشجاعة ؟ ماهي الفضيلة ؟ ماهي الرذيلة ؟عمري لم اعن بهذا • اعيش كما اعيش • قد لايكون في رأسي دماغ ، ولا في صدري كبد • يقولون ان الكبد يفرط من الخمر ، ولو كان لي كبـد لفرط • ففي شتاء ما وكانت نويـة على البحر ، اشتغلت عنـد رجل يشيل العرق [1] ••

---

(١) يقطره

قال : « يامرسنلي ، كيف انت وسهر الليل ؟ » قلت : «انا ليس لي ليل ولا نهار ، انام حين يواتيني النوم ، ولو على العتبة ، لكن النوم لايواتيني كثيرا ، اسهر كما يسهر الثور » . قال : « لا ، الثور ينام » . قلت : « اسهر كما يسهر السمك » قال : « طيب ، لافرق ، المهم ان تسهر ، لدي شدة [1] تقطير ، واريد من يسهر عليها .. » قلت :« انا لها . ركب انت الكركة[2] واذهب الى بيتك .. والباقي علي . »

اتفقنا . كان عنده قبو كبير ، مليء ببراميل ضخمة ، فيها تين تخمر واصبح جاهزا للتقطير . دخلت القبو فهفت علي رائحة حادة ، كريهة ، يدوخ منها غيري كما علمت منه ، يقيء ، او يهرب ليستنشق الهواء . انا ، على العكس ، اعتدل مزاجي . جعلت اضع رأسي في فوهة البرميل وافتح منخري واستنشق . وكان التين المخمر ، المبقبق ، يرسل فقاعات الى اعلى محملة برائحة كحولية تينية تقتل الخنزير . واعلمني، وهو يضحك ، انه افرغ طاسة من هذا الخمير في خطم خنزير فداخ وتمكن من ذبحه . انا لم يؤثر علي . قال : « انت يامرسنلي ، اقوى من خنزير » قلت : « صدقت » عندئذ اطمأن وتركني في القبو . كان علي ان اراقب « الكركة » فاذا امتلأ الوعاء بالعرق الخام ، حملته وافرغته في برميل ليرقد ويستريح

(١) وجبة .
(٢) آلة تقطير الكحول .

حتى التقطيرة الثانية مع اليانسون • ومنذ هبط الليل وغادرني هو الى بيته ، جلست على الارض ، قرب النار ورحت انتظر امتلاء الوعاء • كان شيئا مضجرا هذا الانتظار ، فجعلت اغني :

« زحلة بلدنا والعرق مشروبنا •• »

ولم يكن لزحلة ، ولا لعرقها ، شبه بالعرق الذي نستخرجه • انا واثق من ذلك ، سماعا ، غير انني ، لفتح شهيتي كما يجب ، غنيت موالا او اثنين ، ثم ابدلت الوعاء المليء بآخر فارغ ، ورفعته الى فمي • انزلته فارغا ولحست شفتي بلساني وعدت الى الغناء • ازداد ضجري لبطء التقطير • كان الانبوب ، مثل « بلبولة » الطفل ، يسيل منه خيط رفيع ، ولكي اوفر على نفسي تعب تبديل الاوعية استلقيت على ظهري ، وفتحت فمي تحت الانبوب ، وللحال صرخت ووثبت كالملسوع • كان العرق حارا ، حارقا ، ولم تنفع عملية توفير التعب • عدت الى الانتظار والى الغناء ، وحوالي الفجر ، اكتشفت ان سكرتي المرجوة لن تتم الليلة • كنت اصحو ، مابين امتلاء الوعائين ، فيضيع المشروب سدى • ووجدت من الامانة ان اضع في البرميل الفارغ بعض العرق ، لذلك امسكت عن الشرب ، ورحت اغطس رأسي في براميل التخمير ، وفي الصباح نقلت في عربة يد ثفالة التين المستخرج الى رجل يربي الابقار ، وقبضت اجرتي ، وذهبت من هناك الى زخريادس فشربت نبيذا ،

كتحلاية • في المساء عدت الى عملي ، ولما سألني صاحب القبو عن العرق ، قلت له انني وضعته في البراميل ، فصدقني • لم يشك في كلامي لمعرفته ان هذا العرق ، الخام ، الحارق ، لايشرب ولا يباع ، لكنه في اليوم الرابع ، تفقد براميله وخبط على جنبه وهو يزعق : « ياسارق ، لمن بعت العرق ؟ » قلت : « لم ابعه ، شربته ، ألم تقل لي ، « مزمز » [1] قليلا لتتسلى ؟ فعوى : « وهذه مزمزة ؟ » فقلت وانا لاافهم سببا لعوائه : « وماهي المزمزة اذن ياصاحبي ؟ » •

قاسني طولا وعرضا وصرفني • بدون اخذ ورد صرفني• قال لي : « لسوف يفرط كبدك وتموت » • لم امت • انا لاكبد لي ، ولا مخ ، وهذا افضل ، غير ان مخي موجود كما يبدو ، وهذه الليلة ، بسبب زخريادس ، أثبت وجوده وعذبني ، ربما عقابا على تجاهله ، وربما لانه افلت ، مثل زمور سيارة ، ولم يسكت حتى الصباح ، جامعا حولي ، وفي رأسي ، كل الشياطين والاشباح ، وعلى رأسهم شبح زخريادس ، بكرشه المدلوق وعينيه الجاحظتين وسكين البسطرمة التي بعجته بها •

خرجت من الخيمة استكشف ماحولي • كان علي ان اعرف منطقتي ، وابحث عن صلة مع مخلوق يسعفني في ورطتي • ذهبت داخل الغابة ، فقفز سنجاب بني ، له ذنب

(١) المزمزة ترشف الخمر في جرعات صغيرة •

طويل مشرع ، وتسلق شجرة وراح ينظر الي • لم يكن معي سوى عصا ، وانا لست صياد سناجيب • فقلت لها في نفسي : « لاتخافي ياجيرتي ، انا لاانت ، من يطلب الامان ••» كانت الغابة ذات خضرة رصاصية ، وفي الوديان خرير المياه • وعلى الارض ، تحت قدمي الحافيتين ، تتكسر ابر الصنوبر ورائحة رطوبة وعفونة تهب علي ، وحول جذوع الاشجار الهرمة ينبت العشب والفطر ، وانا امضي لاامیز طريقي • نسيت لماذا اتيت ، وسحرني اكتشاف هذه المجاهل، ومن فرجة ، بين الاشجار ، رأيت الشمس ، فقفلت راجعا ، لان الغابة ، في الاتجاه الذي اسير فيه ، لامنفذ لها ، وخشيت ان اضل يومي كله •

في طريق العودة ، اجفلت وضحكت من جبني • وقلت في نفسي ، « اي رجل انا ؟ ضخامتي الجاموسية ،ورأسي الكبير ، الملبد ، ولحيتي الطويلة ، وحقل الشعر في صدري قمينة باخافة ضبع ، ثم اخاف من عصفور ، يرف فجأة في الدغل ، ويطير هازئا او خائفا مني ؟ » انسابت ، بعد قليل ، افعى امامي ، فذعرت وتراجعت الى الوراء • احسست ان قلبي صار في معدتي ، واكتشفت ان للافعى تأثيرا مرعبا علي ، فصرت اخطو بحذر ، وتشددت ، دون وعي ، قبضتي على العصا ، وزايلتني البهجة •• في البحر لاتوجد افاع ••

افمي البحر سمكة ، وهل احلى واقرب الى النفس من السمكة؟ السماء فوقي مرآة تنعكس عليها نار وهاجة .. وكان السير قد ادفأني ، واللون الرصاصي للغابة صار افتـح قليـلا ، ورقاق شمسية ، متفرقة ، متداخلة ، مستديرة ، ومقرقشة ، تتكاثر على الارضية العشبيـة للغابة ، وتتفـرق على الادغـال واطـراف الصخور ، وعصافير تتطاير ، تزقزق ، وغراب اسود ، ثم آخر ، يرتفعان في الجو ، يغادران الغابة ، وانا كذلك اغادرها .. ولم اعثر على مخلوق ..

وقفت على صخرة عالية ونظـرت باتجاه البحـر . رأيت المنارة على لسان صخري في زاوية المنحدر امامي ، وبرؤيتها حددت وجهتي الى المكـان الذي اقيـم فيه . الازرق سطـح منبسط ، يمتد ، يغمق ، وعند الافق يوشحه بيـاض قطني . تنفست ملء رئتي ، عيناي ارتاحتا للمدى المترامي بعد ذلك الاصطدام بجدران الغابة . خيل الي انني اخرج من بئر جدرانه من طحـالب خضراء . وددت لو اتـدحرج كحجر حتـى ابلـغ المـاء واغوص فيـه ، وظللت بصـري بكفي ونظرت حولي ، فاكتشفت ابقارا ترعى الى يمين خيمتي ، وعلى نحو مستقيم . قصدت الابقار بحثا عن الراعي فلم اجده .

قبيل الظهر عدت الى الصخرة التي تركت عليهـا نصف رغيف الخبز والصنارة في الوكر القشي . كنت منسحقا بشعور

من الضياع والصغار • ولو كان القطيع الذي رأيت اغناما لسرقت خروفا وأكلته • كنت جائعا ، ونصف الرغيف هنا ، ماذا يصنع مع فيل مثلي ؟ لففت سيكارة ، وبعود صنوبر حفرت الارض واخرجت بعض الديدان ، ولوحت خيط سنارتي وربطته بطرف الصخرة ، وذهبت اجمع الحطب لاشعال النار • لو وجدت الراعي لتفاهمت معه • اعطيه سمكا مقابل الخبز والملح وقبضة من التبغ ، فاين ذهب ياترى ؟ تنصت لاسمع طلقا ناريا،فقديكون في الغابة يصطاد • لو لم اكن مطاردالسقت بقرة امامي وجعلته يركض ورائي • اما في مثل وضعي فان رعونة كهذه ستؤدي بي الى السجن • يازخريادس ! ياابن اليونانية ،لاتمت، كرامة للهلاتمت ،ولسوفانسىمن جهتي،قصة الذهب والماس ، واتحمل لاجلك ، السجن لفترة ما •• انا لم ارد قتلك ، ولو انك لاطفتني قليلا لما بعجت كرشك •• لقد كان حوتاً كبيراً ذاك ، وانا الذي خاطر بنفسه وربطه بالحبل الحديدي ، وانا الذي فتح خاصرتيه بالبلطة واخرج مافي جوفه واعطاك اياه ، فلماذا لم تعطني نصيبي مما في ذلك الجوف ؟ طيب،الى جهنم اذن،انت والحوت والذهب والماس، فقط لو اعلم ماذا حل بك ، يازخرياس ، ياابن اليونانية • انا لااريد سوى ان اعرف ما حل بك ، وعندئذ اتدبر امري، بطريقة ما •

التوت القصبة التي بجانب الصخرة ومالت نحو الماء الى

درجة الانقصاف • هرعت الى الخيط وشددته •• كانت سمكة كبيرة ولا شك ، فهي تنتر بقوة ، اعطيتها قليلا ، داورتها حتى لاتقطع الخيط • فعلت ذلك بدون لذة • بحركة فاترة • ظلت تقاوم فتقدمت نحو المـاء حتى أعطيهـا مسافة تتعب فيهـا ، وسحبت من جديد ، ولكنها نترت ، فارخيت لها •• الصنـارة لا السمكة ، هي التي تهمني ، ولســوف يأتي يوم ، ياعاهرة الماء ، واملك اكثر من صنارة • صبرا ، صبـرا ، ان شاربي زكريا المرسلي لن يبقيا متدلين مستعطفين امام ساقطة مثلك•

اخيرا تمكنت منها • سحبتها فنطت على العجينة الرمليـة شيلانة تزن ثلاثة كيلوات •• دستها بقدمي فخرشتني • مددت اصبعي غير مبال باسنانهـا • اخرجت الصنـارة ، ثم فتحتهـا وجوفتها ، وغمستها بالماء المالح ، وحملتها الى النار ، وقسمت نصف الرغيف الى قسمين ، ورفعت الكسرة الى رأسي •

صارت الشمس فوقي تماما •• انتصف النهـار • تكومت على الصخرة ، تحت الخيمـة ، ودخنت سيكـارة ، وقلت في نفسي « يجب أناجد مخرجا » • كانتالمنارة علىمبعدة،ولكني لااستطيع العودة اليها • الدرك،اذا كانوا يطاردونني ، فلابد ان يسألوا حارس المنارة ، وهو ، مهما يكن طيبا ، ابن حكومة ، وقد يبلغ عني بحكم الوظيفة •

وللمرة الثانيــة رأيت الخيط يهتــز ، ومن نترة الخيــط ادركت انها صغيرة ، ومــع ذلك لاعبتها قليلا حتى اغريتهــا بالخروج واعادة الصنارة الي • وفي عودتي الى الخيمة رايت الابقار في بقعة مكشوفة ، والى جانبها امرأة ، ذات رداء احمر ، مبقــع ، وذوائب شعــرها يتلاعب بها الهــواء • لماذا راعيــة ؟ اهتمامي الآن محصور في نصفي الفوقي • كيف يفكر الخصيان في الجنس ؟ لعلهــم لايفكــرون •• استراحوا ، وانا صــرت مخصياً ومستريحاً ، ولا شأن لي بامرأة • لسوف تهرب ان اقتربت منها ، وحتى لو ملكت الشجاعة وبقيت فستدلق على رأسي دلواً من طين اسئلتها • اليونانية ، تلك ام زخريادس ، لاترعى ابقارا • دجاجة فرنجية كانت ، والخمارة التي انشأتها خدمت فيها بنصفيها ، وكان التفاهم ، مع اي نصف ، سهــلا اذا وجد المال •• وانا لا املك مالا ، وحتى لا املك خبزا ، والنصف الاعلى لهذه البلوطة ، يابس ، ومظهري المتوحش لايغري نصفها الاخر ، الا اذا كانت مجربة ، او ارملة ، فهل صنع المرحوم بموته معروفا حفظ في الغيب على اسمي ؟

واتتنــي فكرة : ان اصطاد كميــة من السمك اضعهــا في سروالها •• كان لي زميل اسمــه عبعوب يقول : « الليلــة ، ساضع مجيديا في سروال امرأة ، وكنا نضحك لمعرفتنا ان هذا الاعلان بداية نوبته الكحولية • يشتغل مثل بغــل ، ويصمت

مثل حجر ، ويجمع القرش فوق القرش ، فاذا امتلأ كيسه انذرنا في ساعة القيلولة : « ساضع مجيديا في سروال امرأة » وفي المساء يذهب الى المبغى ، ويعود منه الى خمارة زخريادس، ثم منها ، حين تنتهي فلوسه ، الى العمل • يشرب الى ان تنتهي فلوسه ويستدين على الشغل المقبل ، ويظل كذلك اسبوعا ، اسبوعين ، شهرا ، وذات مساء ، بعد منتصف الليل ، يقول لزخريادس : « غدا الى العمل » ويشجعه هذا « مظبوط ياحبيبي •• الى العمل » ونراه مقبلا على الساحل ، ودون كلام ، يذهب مع قوارب الصيد • وقد سهرت معه ليلة في ضوء القمر ، ونحن نصطاد بخيط التلويح ، خارج الفريق • سألته : « لماذا تقول ساضع مجيديا في سروال امرأة ؟ » فشرح لي وجهة نظره بهذه الكلمات : « سروال المرأة يازكريا ، لاينزل دون ان تضع فيه شيئا •• مجيدي ، سمك ، فجل ، وعد •• كلمة لطيفة ، المهم •• ضع هناك شيئا دائما » •

انا لم احفظ هذه الحكمة • لم اخلق لاحفظ اية حكمة ، اما ابني فقد عمل بها دائما وربما دون ان يسمع بها ، ولئن كنت لاحفظ شيئا ، فانا اتذكر ، مرغما ، بعض الاشياء ، وقد قلت في نفسي : « ضع قليلا من السمك ، يازكريا ، هناك » • فككت الخيط من القصبة وامسكت به • حين يأخذني شبق الصيد وأمسك الخيط بيدي ، واحس انه ينتقل ، عبرها ، الى

الخيط فالصنارة فالماء •• يخرج من الطعم مواء الى السمك ، وتأتي الاناث ، السمينات ، من بعيد على صوت « القط » الرابض على الساحل •• لهذا شرعت ارقص الطعم ، لاستثير شهية الأسماك ، وبين السمكة والاخرى ، اقف وانظر صوب الراعية ، واناجيها باعذب ماعندي : « انتظري قليلا ، انت ، ياذات الحسن » •

بعد وقت ما ، خلته طويلا جدا ، كان صيدي مرضيا • ولقد لعنت الزمن الذي اضطرني الى هذه المقايضة • ام زخريادس نفسها كان يكفيها نصف هذا السمك ، وزخريادس (ورجوت الله ان يكون حيا) يضع خرطوم النبيد في فمي مقابله ، وها انا ، في سبيل ابرة ، ابذل صيدي كله • تفو على الدنيا ! شككت السمكة الكبيرة بحبل جدلته من ورق القصب، وعلقت سمكاتي الاخريات ، وسرت باتجاه الابقار ، لااقصد المرأة مباشرة •• صياد يمر عفوا في الطريق ، هذا هو المظهر اللازم ، وبيدي رفعت الاسماك لكي تراها •• وجعلت انحرف حتى مررت بالقرب منها ، وتجاوزتها دون ان التفت اليها • وبعد خمسين مترا توقفت : « اين هي طريق قرية •• ؟ » صحت بصوت عال ، فهزت المرأة كتفيها واجابت : «أغناميورم» [1] كررت عليها العبارة بالتركية ، فاسمت لي قرية

(١) لاافهم ماتقول •

قريبة وأشارت بيدها ، لكنني استدرت اليها بعد خطوات وسألتها :

ـ أنت من القرية ؟

ـ انا في الاصل ، من « اشقر ضاغ » واسكن في القريةالآن .

ـ ويشترون السمك في قريتكم ؟

ـ المختار ، ربما .. والآغا اذا لم يكن في اسكندرونة .

ـ والدرك ؟

ـ لايوجد درك في القرية .. ياتون من حين الى حين ، ولكنهم يأكلون الدجاج والبيض .

ـ اعرف (قلت وانا اعود ادراجي اليها) الخيالة يأكلون مجانا ، وانا اريد ثمنا ، لااسمح لهم بنهشي ، لست ارنبا .

ـ هنا واضح (وضحكت) ولكن لاتعرض سمكاتك عليهم اذا رأيتهم .

ـ ساعرض .. انا لااخافهم .. ولكن المختار ، هل هو كريم؟

هزت كتفيها ، ونظرت برغبة ظاهرة الى السمكات :

ـ اقصده على كل حال .. سيعطيك شيئا ما ، لابد ان يعطيك، رغم أنه بخيل كما يقولون ..

ـ لن اذهب اذن •• اذا كان بخيلا فماذا اصنع به ؟ أفضل ان ارجع سمكاتي الى البحر •

عدت في نفس الدرب الذي سلكته ، وتجاوزتها وهي تلاحقني بنظراتها ، ثم استدرت اليها وقلت :

ـ هيه ، انت ، الا تشترين ايضا ؟

ـ انا ؟ لست ابنة الآغا ولا المختار ••

ـ افهم •• ولكن سمكاتي طازجة كما ترين،وزوجك سيكون مسرورا لو اشتريتها له ••

ـ زوجي غائب •• ذهب الى الاناضول ليشتغل ، وانا فقيرة ، لست من القرية ، ولا يعطونني ، في مقابل الرعي الا الحبوب ••

ـ وهل لديك اولاد ؟

ـ بنت وصبي صغيران ••

اطرقت متظاهرا بالتفكير ، ثم القيت السمكات على العشب وقلت لها وانا ابتعد :

ـ خذي هذه السمكات اذن •• لاحاجة لي بها ، أطعمي اولادك ••

وسمعت صوتها ورائي :

ـ هيه ، انت ، تعال ، لاتترك السمكات ••

مضيت غير آبه •

ـ هيه •• لاتترك السمكـات ، قلت لك •• (وبعد وقفـة) اسمع •• ساعطيك شيئا اذن •

ـ لااريد •• اطعمي اولادك ••

ـ لن آخذها مجانا •• تعال ، قل لي من انت ؟

مشى احدنا باتجاه الآخر • جسمها ، الملفوف بسترة بالية، كان عامرا ، وعينـاها ، مغروزتان ، لاتنمـان عن خوف ، وفي يدها عصا •

ـ انا صياد كما ترين ، وهذه سمكات •• والبحر كريم ••

ـ افهم •• ولكن اين تذهب ، ولماذا انت هنا ؟

ـ ابحث عن مناطق جديدة للصيد •• هناك ، قرب المدينة ، لم يبق سمك •• اذا وجـدت اسرابا منها هنا ، ساحضـر شبكتي واصطـاد •• علي ان انتظر تغير الريـح ، ولست بحاجة الى السمكات •• خذيها •

صدقت ؟ لاأستطيع الجزم • عيناها المغروزتان لاتـدلان على سذاجة ، ولكنهـا امرأة ، وتركمانية ، وربمـا لاتعرف

المدينة ، وتريد ان تأكل سمكـا ، هي التي جاءت من « اشقر ضاغ » ولم تأكل السمك في جبلها النائي •

– خذيها (اعدت التأكيد عليها وانا اهم بالانصراف) وغـداً أحضري لي معك شيئا من الخبز •

في الغد ، جاءت بعد الضحى • انا واثق انها لم تقل لاحد انها رأتني • التركمانيـات لايتحدثن عن علاقتهـن بالرجال• ومنذ الصباح الباكر ، عمدت الى ربع الرغيف فنقعته ، والقيته، عند جذر الصخرة ، علفا للاسماك • خفت من تلويح الخيط، فقد تعلق به سمكـة كبيرة وتقطعـه ••• بالقصبة والصنـارة اصطدت صيدا وفيرا من سمك البوري ، وعلقت ثلاث فجاجات على غير انتظار ، فاكتفيت وانصرفت الى جمع الحطب ، آسفا لانني لم اطلب منها ملحا •

خطتـي كانت مقابلتها بعيـدا عن الخيمة ، كـلا تعرف مكاني • ومن اوراق القصب صنعت مايشبه السلـة ، وحملت السمكات بعد ان نظفتها وذهبت الى حيث ترعى الابقار ، ثـم خرجت من طرف الغابة معتزما صنع وليمة •

كانت تتلفت متوقعة مجيئي من الجهة التي اتيت منها امس• ناديتها من بعيد ، فحملت صرة ولوحت بها • في الصرة خبـز وملح وبصلة وقليل من الدبس •• ولم تنس التبغ ولكن بدون

ورق ، فاصطنعت غليـونا من غصن صنـوبر يابس ذي عجرة ؤدخنت . قلت لها :

ـ اصطدت اليوم كمية طيبة من السمك .. انه كثير هنا .

ـ هل انت ذاهب لبيعه ؟

ـ الى المختار ؟

ـ الآغا في القرية .. وهي ليست بعيدة ، اذهب اليه ..

ـ لااعلم ، بعد .. انا جائع .. سـرحي ابقارك وتعالي الى الغابة ، سنشوي بعض الافراخ ونأكلها .

ترددت ..

ـ طيب .. ابقي هنا .. سأشوي بعض الاسمـاك وآتي بها .

عدت الى اجمة الصنـوبر فجمعت حطبا واوقـدت ناراً .. وفيمـا كنت اشوي السمـك رأيت رأسهـا يبرز من بـين الاغصان .

ـ لاتشعل النار على طرف الغابة .. يراك الدرك .

ـ لاأسأل عنهم .

وفي ذاتي :

« لن اشعلها الا في اعماق الغابة بعد اليوم » .

ـ ممنوع اشعال النار في الغابات •• اذا رأوها أساؤوا اليك •

ـ اعرف ذلك •• ولكن لايوجد درك في هذه الناحية •

ـ بلى ، انهم في القرية •• عند المختار •••

انكمشت لتـوي •• ولأخفـي اضطرابي تشـاغلت بتقليب الافراخ ، فقالت :

ـ لاعليك •• اذا رأيتهم مقبلين نبهتك •

برز صدرها بعد رأسها ، وظل جذعها وراء دغل الصنوبر • الشمس جففت الندى ، وكالعنبر راح الشذى الصنوبري ينتشر مع الدفء ••• طفقت الغابة تتنفس ، واغصان يابسة تطقطق من حولي • وفاحت رائحة شواء السمك فاستعدت هدوئي شيئا فشيئا •

ـ هيا •• السمك جاهز ••

نهضت فاحضرت لهـا حجرا • وعلى ابر الصنوبر بسطت ارغفة الخبز وانا اختلس النظر اليها • كنت مرتبكا ، اتضرع الى شيطاني الا يستيقظ • ولزمت الصمت حتى لاأقول شيئـا ينفرها ، ولعلي لااعرف مااقول ، سوى الرغبة في ان تطمئن الي • نجحت في كبت رغبتي ، وكنت على استعداد ان اترك لهـا السمكات وامضـي • زخريادس قال لي : « عندنا ، في اليونان يامرسنلي ، يقصدون الغابات في فصل الثلوج ويضمون

الحبوب في صناديق خشبية للطيور • الصيادون اليونانيون لايطلقون النار في كل الفصول ، ليسوا اوغادا » • اما انا فلم يصدف ، مرة واحدة ، ان فتت الخبز للسمك الا وصنارتي جاهزة • قلت لزخريادس « ياابن اليونانية ، الصياد هو الصياد ، لايمكن ان يترك طريدة تفلت » •

« بلى يتركها احيانا » قال • صدق زخريادس • يضع الصياد الحب لليمامة في الغابة الثلجية ، وينثر فتات الخبز للسمك في اوقات التفريخ ، ويشوي الاسماك ويقدمها للراعية، لا لاجل الخبز الذي حملته ، ولا لان لها صدرا وعجيزة مكورة ، بل لانها مهجورة وجائعة ايضا •

قلبت فرخا على الجمر • حرصت على شيه جيدا • لقد اكرمتني هذه المرأة • مجرد وجودها ، على مقربة مني ، وفي هذه البقعة المعزولة ، وفي وحدتي وقلقي ، كان فضلا • والسمك لاقيمة له • لا اتعب به ولا انتفع ، وعملية الصيد لايمكنني ايقافها • انا لايمكن الا ان اصطاد ، حتى لو اعدت السمك ، ثانية ، الى البحر ، وهذه الصرة من خبز وتبغ ، اثمن منه كثيرا ، وهذه المرأة المجهولة ، اعز علي من كل النساء وكل الناس الآن •

شويت عدة افراخ وهممت بمناداتها حين خشخش دغل

الصنوبر ، وخرجت منه ، كما تخرج امرأة من صورة على جدار ، حذرة ، حيية ، مترددة ، تحدق في السمك والنار برغبة يلجمها الخوف .

- تعالي ، هذا لك .

- . . .

- تعالي ، لماذا تخافين ؟

افلتت الكلمة الاخيرة مني .

- لااخاف (قالت لتدفع عن نفسها التهمة) ولكن لماذا تتعب نفسك لاجلي ؟

- وما افعل اذا كان مختاركم بخيلا ، والآغا ابن كلب ،والدرك يريدون السمك بلا ثمن ؟ كلي انت .. هيا ، تعالي اجلسي .. اليك هذا الفرخ ..

وأضفت :

- كيف كانت سمكاتك امس ؟

اقتربت وقالت :

- طيبة .. اكلنا سمكة كبيرة .. وضعتها فور وصولي على النار .

جلست وشرعت تأكل . راقبت اصبعها وهي تتحسس جلد

السمكـة فاكتشفت تعجبهـا من تنظيف الحراشف ، واذ لحظت ذلك اسبلت جفنيها وقالت :

ـ لذيذ !

ـ نظفته جيدا • اكشطي الجلد،هكذا •• خذي هذهالشريحة البيضاء ••

مدت يدها فتناولتها • مضغتها بتأن ولكن بلذة ، فاقتطعت شريحة اخرى ، حارة ، وقدمتها لها :

ـ دعي الخبز ، لدينا سمك كثير •• انظري (كشفت اوراق القصب والقيت فرخين في النار) البحر كريم ، اعطاني هذا الصباح ، وساصطاد الان ، مرة اخرى •

عريت ، بأصابع معتادة ، فرخا حارا من عموده الحسكي ، ولففته بقطعة من رقاقة الخبز واكلت •

مضت فترة دون كلام •• بدأت تتعلم اكل السمك ،ولكنها ظلت تنظر خلسة الى النار • ولكي تأكل اكثر ، حملت باقي السمك الى جمرات الصنوبر ، وقلت :

ـ سنأكل هذا كله ، هيا ••

جاء كلبها يوصوص ، فقذفت اليه بفرخ كامـل • صاحت:

ـ لا ، ستقتله !

التهم الكلب الفرخ ، وعوى ضاربا رأسه بالحرش، وركض وذنبه بين خلفيتيه،وضحكنا نحن • عاد المسكين ولعـابه يسيل ، وهو ينخر متألمـا من الحسك ، ثم هدأ ، وتمـدد قربها ، ورنا الينا ، بعينين شرهتين ، رغم التجربة المرة •

اشتدت حرارة الشمس عند الظهر ، وغدت طراوة الغابة مغرية بقيلولة جميلة • كنا قد اكلنا الاسماك كلها • وجاءت بالقرعة التي تستقي بها فذوبت الدبس، وسقتني • لم نتبادل الا القليل من الكلمات • كانت شهيتنا طيبة ، والوليمة المرتجلة في الغاب وضعتنا على تخوم سعادة حقيقية • الشبع ، بعد جوع ، سعادة ، وفقط ، لو كان لدي خمر!•رحمك الله يازخريادس، ياابن اليونانية • لو علمتني كيف يصنع الخمر • سمك ولا خمر ، حتى ولا قهوة ! لو كانت لدي ركوة وسكر وبن •• على هذه الجمرات ، والقهوة تحت غشائهـا البني ، تزمزم ، وتغلي ، ويتصاعد بخار •• عبعوب قال لي : « يازكريا لاتحرك القهـوة وهي تغلي •• تحرد » وفي خرجـه ، بين الصنانـير والطعوم كانت الركوة والفناجين وعدة الناركيلة ، وبين فترتي صيد ، يشعل النار •• لايمسهـا كي لاتحرد • وحين ينجلي الدخان عن بيدر صغير من الجمر ، يضع على طرفه ، بكثير من العناية ، ركوته ، ويعمر ناركيلته ، ويتحدث عن الاسماك والنساء •• وقد جربت فعلته مرة ، ففارت القهوة واندلقت

وتبددت على الجمرات •• غضبت فشتمني • قال مع اشارة ازدراء من يده : « انت ولا مؤاخذة ، حمار يازكريا •• لايهمك الا ان تكون العليقة مليئة •• لماذا تغضب اذا فارت القهوة ؟ احيانا انا نفسي ، ادعها تفور ••• القهوة ، والخمر ، والمرأة ، لاتشرب نقط ، تشم ايضا •• تنشق الريح الآن •• اسكب قليلا من القهوة على الجمر ، ودعني بمنخري ، امتص سعوطها في الهواء •• »

وهاانا ، بعد هذه الوجبة الكبيرة من السمك ، لااجد خمرا ولا قهوة •• يارياح الغابة ، يانسماتي ، مري على خمارات المدينة ومقاهيها ، وقولي لهم ، هناك ، ان يسفحوا بعض الخمر على الارض ، ان يدعوا القهوة على النار تفور ، واحملي في هبوبك رائحة النبيذ والبن المحروق •• ولئن عدت يوما الى المدينة ، حرا مثلما كنت ، طليقا كالصيادين ، فلسوف انثر في الريح ، على شرف الريح ، لاجل الذين تهب عليهم ، اقداحا كل يوم • سأدع القهوة تفور ، والرائحة البنية تنتشر ، وساقول لبعبوب : « زكريا ، يابعبوب لم يعد حمارا ••وانت ، ياابن الابرة ، وحدك القادر على شتمي ، على نعتي بالحمار دون ان اكسر رقبتك•• انت نحيل ، طويل ، معوج كالمقتاية، وانا بعكسك ، قوي ، قادر على ملط رقبتك ، انتبه اذن •• لاتقل عني حمارا، زكريا لم يعد حمارا منذ رفس زخريادس••

لقد رفسته في الكرش تماما •• لو لم يكن الكرش لما كان الرفس •• وهذا الكلام ينفعني غدا في المحكمة •• اقول : ياسيدي الحاكم ، انا ضربت بساطور البسطرمة زخريادس ابن اليونانية فبعجت كرشه •• انا مذنب واعترف ، وهوايضا مذنب لأنه صاحب كرش •• لماذا كان له كرش ؟ اذا رأيت ، ياسيدي القاضي ، يوما ردف امرأة جميلة عارية فماذا تفعل ؟ انا اعضه • اشنقني ، ولكني اعضه ، ثم اشنقها معي ، لانها صاحبة الردف ، هي السبب • لاتنتهرني ، ارجوك ، لااعرف مثل « الافوكاتو »[1] ولا افهم مايقول •

مرة كنت مع عبعوب وسمعنا « الافوكاتو » فلم افهم اقواله• سألت عبعوب فلكزني في خاصرتي ، قلت في سري : « كيف يحفظ الافاكاتو كل هذا ؟» رأسي اكبر من رأسه ، ومع ذلك لايسع مثله • هو مثل الساحر ، يسحب من فمه ، بلاتوقف ، بلا نهاية ، حبال الكلمات ، والقاضي يسمع ويهز برأسه • انا لاتصور « الافوكاتو » يسجن يوما ، حتى ولو قتل مثل ابن اليونانية •• يسحب حبال الكلمات ويكتف القاضي ، ولوكان لي مال لدفعت لواحد منهم نكتف لي كل هيئة المحكمة •• عبعوب يومها ضحك علي وقال : « الافوكاتو لايحفظ كل

(١) المحامي •

هذا » « لماذا ؟ » « لان احدا لايستطيع حفظ جميع الذي يقوله » « وحتى الذي يخطب ؟ » قال عبعوب : « حتى الذي يخطب » « ومن اين يسحب هذا الكلام كلهاذن؟ » « لايسحب شيئا يازكريا .. الكلام يخرج بنفسه .. من الحشيش » . صحت به :« يافاسق ، وانا ، الا احشش ؟ لماذا لايطلع معي شيء ؟ » قال : « لانك حمار ! » واكد وهو يضع يده على رأسه خوفا من الضربة ، « نعم انت حمار ، المغني والمشخصاتي والافوكاتو وامثالهم يحششون .. والا فمن اين يطلع معهم الغناء والكلام ؟ »

يومها اقتنعت بكلامه . انا اصدق ابن الابرة هذا ، قلت له : « اذن ليس من قينهم [٢] ؟ قال : « لا .. » سررت . معنى هذا ان رأسي الكبير ليس فارغا .. وان الكلام ليس من رأس هؤلاء ، بل من الحشيش ، من الدخان الذي ينزل من الحلق الى تحت ، الى المعدة .. ثم يدور في الجسم ، مثل الروح التي لا مكان لها ، ولا ترى او تلمس .. لقد مات الكثيرون امامي ، وكنت ابحلق فيهم لارى كيف تخرج الروح فلا ارى شيئا ، وصالحة ، زوجتي ، اقسمت انها رأت روح امها تخرج وتتحول الى حمامة ، ثم تحط على السطح فيما كان الجثمان في البيت ، وقلت ذلك لعبعوب فقال : « زوجتك

(٢) القين : الذات .

اذن تشحط ، ضربته ! ليقل عني ماشاء ، اما زوجتي •• اراد ان يخاصمني فمنعته ، حين اصطاد اغني ، اشتم ، اسكر ، واحيانا افكر •• أتساءل : من حفر البحر ، مثلا ؟ ولماذا الاف وآلاف الناس ، وكلهم بعينين وانف وشفتين واذنين ، يختلف واحدهم عن الآخر ؟ ومن اين جاء جد جد جدي آدم ؟ قالوا: حواء من ضلعه ، على رأسي ، وهو ، من ضلع من ؟ استغفر الله • هذه الخواطر لاتأتيني الا نادرا ، حين يكون الصيد قليلا، وعلي ان انتظر ساعات ، وأتأمل الدنيا من حولي • في هذه الحال أتمنى ان يكون عبعوب معي ، وانا اريده دائما ان يكون معي ، وان يحدثني ، لكنه يغط لاعرف اين • وحين يحضر، يحلو له ان يماكسني ، ان يضحك علي ويستحمرني ، فاضربه ويزعل • وعندئذ اضربه من جديد ، وكدت مرة ، اخنقه والقيه في البحر • قلت له : « اسمع ياعبعوب ، كن آدميا ياابن امك • اذا تماديت ضربتك ، واذا زعلت ضربتك اكثر • انا لااسمح لك بان تزعل مني ، ولا ان تخاصمني • قل اني حمار، بل تعال اركب على ظهري ، لن اضربك على هذا ، اما زوجتي صالحة فلا علاقة لك بها •• ثم لماذا لايعجبك الحمار؟ اليس مخلوقا وله رأس مثلك ؟ » •• سألت والدي مرة : لماذا يرفع الحمار اذنيه اذا رأى حمارة ؟ فخلع« صرمايته »[1]

(١) الخف الحلبي ذو اللون الاحمر •

الحلبية وقذفني بها ، وسألته يوما : « لماذا ينزل الحمار اذنيه وهو محمل ؟ » توقعت ان يقذفني بالصرماية كما فعل في المرة الاولى ، لذلك ابتعدت ، فقال : « لانه يفكر في امور الدنيا » قلت : « ولماذا لايفكر الا وهو تحت الحمل ؟ » قال : « لانه حمار مثلك اولا ، ولان التفكير يكون في وقت الشدة ثانيا .. توقف عن الاسئلة والا قصفت عمرك » . كان المرحوم لايحب اسئلة الولد ، يعتبرها حشرية وقلة ادب . ولم يطرح علي أحد اسئلة لأنني ماكنت أمكث في البيت الا نادرا . هذا هو السبب في ان دماغي لم يشتغل بالتفكير ، وانني كنت بحاجة الى دماغ عبعوب ليفكر عني ، ولو رأيته ، ذلك اليوم ، لعرضت عليه قضية زخريادس والذهب في جوف الحوت ، ومن المؤكد انه كان نصحني وهدأني . لكن عبعوب كان قد خطفه الشيطان لسوء حظي . عليك اللعنة ياابن امك ، انت ذهبت لتضع فلوسك في السراويل وتتركني اضع ساطور البسطرمة في كرش زخريادس!

كنت استلقي على ظهري ، وأبالسة الافكار هذه لاتريد ان تفارق ذهني . وكيفما بدأت انتهي عند اللعين زخريادس . كان يتربع في رأسي .

وكانت التركمانية قد ذهبت لتفقد بقراتها ، وحتى لو بقيت فما حاجتي اليها ؟ انا لن اتحدث معها . للمرأة لسان مثل الدلو ، طافح بوحل الثرثرة .. واحسب انها بدأت تفهم شيئا عن وضعي .

قالت : « اذا جاء الدرك نبهتك » فمن قال لهـا انني هارب من الدرك ؟ ربما وصل الخبر الى القرية •• وغدا اسمع صهيـل الخيل في المنطقة •• يامرسنلي ساءت حالك ، وتضي عليك ، تدبر امرك • انت في شدة ، وهذا وقت التفكير ، وانا لم اعتده • لو كان عبعوب لفكر عني •• العقدة الميئوس منها يحلها بطرفة عين ، ولو عرف مكاني لجاء الي ، الا اذا كان متواريا بعد ، او في حـداد على زخريادس •• ترى مات زخريادس ؟ ولـماذا يريد ان يموت ؟ حتى ينتقم مني ؟ آه يازخريادس ، ارجوك، لاتمت ياابن اليونانية ، لاجل خاطر زكريا لاتمت ، وبعد ذلك افطس • اذا امسكت خاطري ، فسأمسك خاطرك ، اقسم لك بشرفي ، لن ارغمك على الايمان بالجنة ، اذهب الى جهنـم اذا شئت ، سآتيك باحشاء كل الحيتان دون مقابل ، وحتى لو اخذت مقابلهـا فليس لك حق في اللوم ، وليس لك حـق في الموت ، اتفهم مااقول ؟ لاحق لك ان تموت على يدي ، ان تؤذيني وتنتقم مني ، واذا فعلتها كنت عدوي ، نعـم عدوي ، اياك اذن ! •

نهضت من تحت الصنوبرة وتمطيت • وجبة السمك كانت كبيرة ، وفي هذه الحـال يتحرك النصف الاسفـل • الكلب ، بعد الفرخ الذي التهمه رفع رأسه وتشمم الريح •والتركمانية عـادت وقعدت قبالتـي •• لاشك انهـا تريد ان تتحـدث •

دلو الأسئلة جاهز ، ولكن حذار ، لن ادعها تدلقه على رأسي • كانت تحملق في ، لعلها استغربت استلقائي كالضبع الذي وقع على جثة فاتخمتـــه • كانت تنتظر شيئا ، انت اطعمتها سمكـا يازكريا • هذا نصف المعروف •• والنصف الآخر ، الاهم ، بالنسبة اليها ، وربما بالنسبة اليك ؟

غادرتني ثانية • ربما يئست مني • زوجها في الاناضول ، والليالي الباردة • فرخ السمك ذكرها بشيء •• لقــد أسأت اليها • كان علي ان ادع التفكير بالقاضي « والافوكاتو » وابن الابرة •

في الماضي كنت استلقي على ظهري واغمض عيني واشخر بعد وجبة كهذه • وفي حالة السكر الشديد اغني او ابكي ، اما الان فافكر •• امرأة تنتظر وانا افكر ، حسنا ، الى الصيد الآن ، حتى لاافكر من جديد••اذا طال مقامي في الغابة فسدت اخلاقي • اصير ناسكا باذن الله !

مضيت اطوف في الغابة • كنت ضائعا حقا • لحيتي طويلة، قذرة ، ووجهي لم يغسل هذا الصباح ، ورائحة السمك تفوح مني • صالحـــة تقول : « صوبن يازكريا رائحتك سمـــك » واقول : « يامرة أليس في وجهي انف مثلك ؟ كيف لااشـــم

اذن ؟ ، وليلة العيد اغتسلت ، ومع ذلك ، كشرت في وجهي، القطة ، وانا فوقها ، فشتمتها وتابعت شغلي •• ومرة عطرتني •• كان ذلك في عرس اخيها،وكنت منتشيا •سكرت، رقصت في حذائي الجديد ، فلما ضايقني خلعته ، ولكي ترضى صالحة ، خطر على بالي ان احمل العريس وارقص به امام الزفة • حملته على كتفي ، ذلك العصفور ، ورحت ارقص به • نثر علينا الجيران العطر من القماقم •• امتلأ خيشومي ، تهيجت ، قلت في سري : « الليلة ، اذن ، وانا معطر••اخوك، ياخربوشتي (١) ، لن يسبقني » وفي الليل ، على ضوء الفانوس ، رأيت انف قطتي منشمرا : « يازكريا قتلتني من رائحة السمك » كنت راكعا على ركبتي ، ارغي وازبد مثل جمل ، ولم تكن زوجتي هي الممددة امامي • العروس في خيالي المخمور ، كانت مكانها • ولقد توقعت ان تأخذ صالحة جمتي وتشمها ، فاذا بها تشكو من رائحة السمك • قررت ان احلق شعري • وفي اليوم التالي ذهبت الى الحلاق فجززته • وقال الحلاق : « الماكينة تعطلت في شعرك الملبد » فضحكت ولم اناقشه • تعطلت الماكينة او انكسرت ، هذا لايعنيني • المهم ان يحلق شعري لتزول رائحة السمك من رأسي • حلقه بالموسى ولم تذهب الرائحة • اذن لافائدة ، تركت منذ ذلك

---

(١) كل حيوان صغير يخربش باظافره ، مثل القطة وغيرها •

اليوم شعري على حاله • العطر باطل مع السماكين واللحامين، وبدلا من العطور ، في القماقم ، لماذا لايضعون عرقا او نبيذا ؟ لو فعلوا لاعتدل مزاج الناس ، ولحملت الي الريح ، في هذه الغابة ، شميم الخمرة المنعش • انهم مخطئون ، وانا اكتشف هذه الاخطاء وساصلحها حين تنتهي ورطتي مع ابن اليونانية • سأدع القهوة تفور على النار ، والخمر تنثر من القماقم ، واعلم الناس اشياء كثيرة مفيدة •

تابعت مسيري بين الاشجار • الشمس مالت قليلا • حميت ونفذت الى ارض الغابة من بين الاغصان • وفي فرجة بين الصنوبر ، كانت بقعة خضراء مشمسة •• سمعت خرير الماء•• نبع صاف كعين الديك ، في دغل على كتف جرف ، وزهور الربيع البيضاء ذات التويج الاصفر • كان الماء ينساب في ساقية ، فانبطحت وعبيت حتى ارتويت•قطفت زهرات وضعتها وراء اذني • واعتليت رابية ونظرت الى البحر •• انه هناك ، كبير ، واسع ، ازرق ، مثل السماء التي فوق •• ناجيته في سري : « ياصاحبي ! يارفيق عمري ، مهلا ، ساعود اليك •• وحتى لو مات ابن اليونانية ساعود اليك،سأجد وسيلة لذلك•• انا لااخاف السجن •• ولكن السجن بعيد عنك ، في الطرف الآخر من المدينة ، وهناك يحشروننا في ثقوب لاترى الشمس، ويخرجوننا للعمل في تكسير الحطب والحجارة ونقل الاوساخ،

ولكنهم ، لم يبعثوا بنا للصيد ولا مرة ، وهذه ايضا خطيئـة • العالم مليء بالاخطـاء ، العالم يسـير على رأسه كمـا يقول عبعوب • ولهذا نزلت الميـة الزرقاء على عينيه • انا لااخـاف السجن • ومستعد للمكوث فيه الى النهاية ، لو كانوا يأخذون السجناء الى البحر ، او يصنعون لهم بحرا للصيد داخله •لقد سجنوني مرة لان نذلا من حراس الشاطىء اهانني فضربته • وتمكنت من الهرب فقبضوا علي وانا على الشاطيء • اعادوني الى السجن فقال لي سجين ذبح زوجته : « يامغفل ! لماذاهربت الى الشاطيء وليس الى الجبل ؟ » رفسته فانقلب وطار مغزل الصوف من يـده • كان رجـلا كبـيرا فاوجعتـه • اضحكت القاووش عليه • قلت له ملاطفا بعد ذلك : « واين تريدني ان اذهب اذا لم يكن الى البحر ؟ ولماذا هربت اذن؟وماذا في جبلك اللعين هذا ؟ » كنت مشتاقا الى الصيد ، وبعد هروبي مررت على صالحة •• ثم على اليونانية •• كنت فتيا واليونانية تحب الفتيان ، الثور الهائج ، عندها ، ينعكف قرناه •• يخور ، وانا خرت تلك الليلة ، ومن شقوق البيت رأيت الفجر ، فنهضت وخرجت ، نصف ثيابي في يد ، وعدة الصيد في اليد الاخرى، وقلت لها : « استعدي مساء ، ولسوف آتيك بسمك كثـير • سأمر على زخريادس في طريقي •• قولي له زكريا هرب من السجن •• حذار ان يبوح بالسر •• وحذار ان تسبلي

غيري ، ساذبحه واذبحك اذا فعلت » • هذا ماقلته ، ولكن بدلا من المبيت عند اليونانية في الليلة التالية بت في الزنزانة • لم يضربني مدير السجن •• اقفل الغرفة ليؤدبني •• كان مرعبا في قسوته وشراسته •• غافلته وانتزعت المفتاح •• « الآن تعادلت الكفتان •• انت وانا •• والموت لواحد منا ، للاضعف بيننا » •• حدجني المدير بنظراته • دار حولي كنمر حول فريسة • رازني جيدا • قال : « اعطني المفتاح » قلت : « اضربني اذن •• السوط في يدك ، والمسدس على خصرك •• تستطيع ان تعاركني ، ان تطلق الرصاص علي ، ولكن زكريا المرسلي لن يسلم المفتاح ، ولن يخرج الا قاتلا او مقتولا » •

ذهب في الغرفة وجاء • دار حولي ، هددني ، وضع يده على مسدسه • لم ينفعه ذلك • سألني : « لماذا هربت ؟ » قلت : « لأصطاد » قال:«انت احمق ! » قلت : «نعم » زجرني : «تأدب»فسكت • ارضاه سكوتي• انا لم اسكت ليرضى،ومع ذلك لابأس ، اعتبره نوعا من تاكيد النفوذ ، فشرع يبحث عن مخرج • قال : « اذا عفوت عنك فلم اضربك ، تعدني بالا تهرب من جديد ؟ » وعدته ، فقال : « افتح الباب واخرج » خرجت ، وصرنا اصحابا بعد ذلك •

تجولت في الغابة حتى انساني التجوال همومي • كانت

الريح قوسا على الاغصان ذات الابر ، تحتك وتولد همسا رخيما • السكينة ، والنداوة ، والضوء الرمادي ، اصابع مخملية تنفذ الى جسمي في ملامسة حنون • ومن اعماق الغابة نداء مجهول لايقوى الانسان على مغالبته • سقط الظل في نفسي • هدأت مثل الغابة ، ومثلها انتعشت بالطراوة ، ولاول مرة ، منذ يومين ، استشعرت راحة نفسية ، فاستلقيت على العشب اليابس ، كأني على فراش وثير وثير ، كأني طفل تحت شجرة تفاح في حديقة والده ، في فمه خصلة عشب اخضر يلوكها ، ومن فوقه رقاق مستديرات ، مخرمات من الزرقة وبيض السحب وخضرة الورق •

اغمضت عيني في هناءة اسيفة • حسدت الحراس والحطابين والزواحف وطيور الغابة ووحوشها • لم إكن راهبا ابدا،وحين زرت ديرا في صباي ، جلست في ممراته ، تحت عقد روماني، بانتظار تفريغ السلة التي حملت فيها السمك • كان الممر منعش الطراوة ، ونسمة رهوة تمرق فيه كتيار ، فغلبني النعاس ونمت • كان ذاك ديرا صغيرا ، حجريا،بقرميد احمر• والغابة دير شجري كبير ، رصاصي ، داكن ، مريح ، يبعث على النعاس ، والنوم الطويل ، خارج العالم ، خارج المتاعب والافكار ، وبين اذرع السكينة العميقة ، المخدرة •

اجفلني اهتزاز الدغل من ورائي • كان خوفي من الافاعي

مرعبا ، يقشعر له بدني ، ويسيل مع الدم في عروقي ، ومن المشكوك فيه ان اواجه افعى واقتلها • اصارع الضبع واهرب من الافعى • كان مرآها ، وهي تتدلى كحبل بين الاغصان ، وتلف على الجذوع ، او تساب على الارض ، يغطس جسمي في ماء مثلج ، وخوفي من ان تنسل الي خفية ، وتلدغني في اطرافي ، اسلمني الى ذعر لايفارقني ؛ وتسارع الذعر وتموضع في قلبي وانا اسمع اهتزاز الدغل • جلست والتفت فجأة وبغير ارادة ، فاذا التركمانية تبرز من بين اغصان الدغل ، حاملة قرعة فيها ذوب الدبس والماء ، ناظرة الي بعينين فاترتين متوسلتين • هممت بالصياح في وجهها • افسدت علي نوبة صفاء نادرة ، في ساعة سلام ، تساوي فيها الغاب والدير ، ونفذت رهبة السكينة وقدسيتها المطهرة الى اعماقي • الكلمات السفيهة التي خرجت من بطني الى فمي ، توقفت فيه • غمغمت بشيء ما ، لأنفس غضبي ، وسرعان مازايلتني الجهمة امام النظرة المتأنية ، الناعسة والآملة • كنا وحيدين في الغابة ، مستوحشين ومستأنسين ، واحدنا بالآخر • وقد صار بيننا خبز وملح ، ومقابل سمكاتي حملت الي الخبز والتبغ ، وهذا الدبس المذاب كان تكرمة فائقة،ولو ان كرش زخريادس دلق مع امعائه ذهبا وماسا فاستوليت عليه ، وحملته معي في هربي الى هنا ، لوهبته ، دون تردد ، الى هذه الراعية • ومقابل مافي القرعة من دبس وماء ، كنت وضعت جواهري بغير اسف •

كان فيض من العاطفة الانسانيـة يعمر قلبها ، وهـذا الفيض صادف لدي ، في ساعة الصفاء هذه استعدادا للقبول والمبادلة ، وهكذا نهضت اليها ، وتناولت القرعـة منها ، ومـددت يدي فامسكت يدها وسحبتهـا لتخرج من الـدغل وتأتي الى حيث اجلس .

تمنعت ، بادىء الامر ، بحركة سلبية تلقائية تصدر عن المرأة حين يمسك الرجل يدها للمرة الأولى . لفتتني هـذه الحركة الخفيفة بقوة . ايقظت في احساسا لـم يكن . مكثت واقفا قبالتها بغير حراك . لم افلت يدها ، ولم تصر هي على سحبها ، ابقتها مختلجة في كفي ، حرارتها تعديني . نظرت في عينيها فاذا بريق وماض من الشوق والرغبـة والخوف يرف على بياضهما ، ويتجمع في البؤبؤين السوداوين رغبة كامنة ، مثل الصوت في الطبل المشدود خلال الصيف . نقرة ويدوي. لمسة ويرتعش . خفقة ويعطي الصـدى . لم تقل شيئا ولـم أسأل . هي تعرف انها جاءت لتحمـل الي ذوب الـدبس ، ولكنها ، الآن ، تعرف اكثر انها جاءت لشيء آخر غير ذوب الدبس . وانا ، حين نهضت اليها ، كنت احسب انني ذاهب لتناول القرعة ، وافهم الآن ، انني ذهبت لغرض آخر غيرها . الدافع الخفي وضح . تجلى في العينين الجائعتين،المستجديتين، وفي اختلاجة الكف ، ولهاث الصدر ، واحمرار البيـاض ،

والذبول المرضي في الجفنين ، وتهدل الشفتين،وتقرمزالوجنة•

عمري كله،لم اقف وقفة كهذه•قبل صالحة وبعدها ، وهي نفسها ، وكل النساء اللواتي عرفت ، عاملتهن بطريقة عبعوب• هو قال انه يضع هناك مجيديا ، هدية ، كلمة حلوة • انا لـم اضع شيئا ، وخاصة الكلمة الحلوة • بلى ! دفعت في الماضـي فلوسا ، وقدمت سمكا • فعلت ذلك بصفاقة ، دون ملاطفـة ، دون تمهيد ، وفي حالة السكر الشديد ، وكنت احس الكراهية مع اللذة في الجسـم الذي بين بذراعي • كنت كمن يـدفع ، يغتصب ، او يمارس حق الزوجية ، دون عاطفة ، بغير منـة ولا احتفـاء • الطرف الآخـر لايعنيني الا كجسـد ، كآلة ، كفجوة ذات حرارة ، لو وجدتها في الرمل لاستعضت عنها • ولقد جربت في صباي ، فجوة الرمل ، واغريت بها الصبيان ، فضحكوا علي وسخفوني • العطاء ماكان يخطر • الاهتمـام بحال من معي لايرد •واذتتطابق النهايات يكون ذلك مصادفة، او باستعداد للانفعال معي بتأثير من قوتي او جنوني •

ولو ، في حال غير هذه ، وجدت التركمانية ترعى وليس من احد معهـا ، وركبني شيطاني ، لهاجمتهـا كذئب انفـرد بنعجة • قد تصيح ، تضربني في صدري ورأسي ، تشتمني بكل مايهـين ويحقر ، غير انها تصبـح جسما مطروحـا على الارض ، فوق العشب او الحجر ، بين بقراتها ، على طـرف

حقل او في خندق ، وبعد ذلك اقوم وامشي ، وقد اشتمها نكاية، انا ابن الابرة ، الوحش الذي يشرب العرق من « الكركـة » ويخمخم كخنزير في جميع القاذورات •

يد التركمانيـة في يـدي لاتزال • كالسمكة تنتر قليـلا وتهمد •• وهذه النترات التي اعرفهـا في السمكة عرفتهـا في المرأة ،تعني لا ونعم • ارخي الخيط واسحبه• اشد على الكف وارخي • الكف باقية ، وسمكتي البرية ، في الدغل ،تنتظر•• تريد ان اسحبها الي ، ان اخـدع شعورها بانها اخـذت على غير ارادتها ، وانها قاومت قبل ان تستسلم •

قلت : تعالي

قالت : عيب !

صوتها كان متهدجا ، متلعثما ، والقرمز على الوجنتـين والعنق ، والتماعة العينين تبرق في ضراعة محيرة ، مهيجـة ، وكل مافيها غدا مطاوعا تحت غشاء من التظاهر بالتمنع •

ـ تعالي !

ـ هنا لايمكن ••

ـ اين اذن ؟

ـ في خيمتك ••

كنت قد اخبرتها ان لي خيمة على طرف الشاطيء • وقد تكون رصدت ذلك اوحدسته •لم أشأ ان اكذب عليها •لم اكن مولعا بالكذب ، ولا اريده معها • انا ، الآن ، انسان على نحو ما • يقينا تبدل في شيء ، ندمي على مااقترفت فجر نبعا شحيحا في الصخـرة التي في داخلي • قطرات منـه اذابت قسوتي ، غسلت ماحول القلب ، شقت لها مجرى حتى بلغت رأسي المثقل بعبء جريمتي •

ـ الخيمة بعيدة •• هنا يمكن •• تعالي •

ترددت فلم الح • لم اجرها بغير ارادتها ، فانا اسمع عن التركمانيات وحرصهن على التستر في مثل هذه المواقف •

كانت صغيرة • لم تبلغ الخامسة والعشرين فيما قدرت • وليست من اللواتي فجرن او مارسن الحب بتبذل • ولعلها لم تعرفه مع غير زوجها الغائب في الاناضول • وهي خائفـة من انتقامه حين يعود • كانت فيهـا رغبة وفيها حياء وقـد وجحت رغبتها على حيائها لكنها لم تهزمه او تتخلص منه • لم أفعـل شيئا لاحسم لها الموقف • ربما ، لو تأبت ، لتركتها • فقد كنت محتاجا الى صداقتهـا وثقتها واستمـرار مجيئها الي • ولعلهـا الاولى ، في حياتي ، التي تحظى باعتبار الانسانة مني ، وتنتزع المودة من ضعفي ، من شعوري باني مدين لها بوجودها قربي،

وبالخبز الذي حملته الي ، وبالعاطفة التي ذوبتها دبسا وماء في القرعة التي في يدي .

شجعتها :

– تعالي ! هنـاك بين الادغال ، فسحة كالخيمـة ، والعشب ناعم وجاف .

لم تتحرك ، كانت تتشاور مع عقلها ، تعرف انها اذا رفعت قدمها وخطت فستمضي معي حيث اشاء . وقبل ان تخطو تبين موقـع خطاها ، وثبات الارض من تحتهـا ، ومـدى الخطر والسلامة في موقفهـا .. وهنا مارفع من قـدرها في نظري . اشعل لها فتيلا في صدري . آمنت انها جائعة وليست جشعة ، وان جوعها المشروع يطلب غذاء مشروعا ، وكل مابقي ان تتأكد من شرف المائدة ، شرف اللعبة ، واستحقاق اللاعب وكتمانه ، ونوع نظراته اليها ، واعتباره لها .

سحب بيض تتسارع ، رف من طيور يجتمـع كطابور ، ويتفرق كنقاط سود ، تهوي من شاهق كالبرد الفحمي ، كل شيء : الافكار ، الهواجس ، الرغبات ، تتدافع وتطير وتهيم كالطيور السهمية ذاتها . الدغل يفصل بيننا ، والكفان تصلانه بالاضطراب اللذيذ ، لاول وصال ، في وقفة لم اشهدها ، حيز الجموح الحيواني في مثل هذه اللحظات .

في هذا اليوم الذي قتل فيه ابني حسن الجربيدي،استرجع ذكرى تلك الوقفة وارتعش لها .. لاابالغ اذا قلت ان استعادتها ، بنفس حرارتها ولهفتها ، تساوي واحداً آخر مثل زخريادس ابن الونانية وتستأهل العذاب والالم والندم الذي كابدته من جرائه .

على اني ، في وقفتي تلك ، لم اكن قد سبرت عمق عاطفتي نحو التركمانية . كنت احسب ماسوف يقع بيننا نزوة ، استدعتها هي ، واذعنت لها انا ، وانها ستمر دون ان تترك اثراً في بلوطتي الهرمة .

– تعالي ، اقول لك .. لااحد هنا .. والمكان مثل الخيمة ، مريح .

– لن نبقى طويلا ؟

– كما تريدين ..

اضفت :

– اذهبي اذا شئت .

افلت يدها .

– زعلت ؟

« ياحلوتي ، ياسمكتي المفضلة ، يانحلتي البرية . »

– ولماذا ازعل ؟

مددت يدي ثانية فاعطتني يدها • تقـدمت نحوي بتلكؤ • خرجت كحجلة حمراء منقطة من الدغل • كانت رشيقـة ، انيقة ، نظيفة ، جميلـة ، وكنت عتريسا ، مهمـلا ، قـذرا • تهيبت ، اول الامر ، ان اجذبها الي • ولـما فعلت ، القـت رأسها على كتفي ، حارة كالكستنـاء المسحوبة من النـار ، وتركتني اقبلها في خـدها ، وهي تتوسـل بصوت مرتعش ، هامس :

- ليس هنا ، ليس هنا ••

اتجهنا الى الدغـل القريب الذي اكتشفتـه في طريقي • رفعت الاغصان المتدلية على البقعة التي في الوسط ، وثنيتها ، والقيت نظرة خاطفة ، شاملة ، على جذور الادغال المحيطة ، لأتثبـت ان ليس من افعى كامنـة فيها ، ثم سـويت الارض ، ومهـدت الحشيش ، ونزعت سترتي فبسطتها لها ، واخذتهـا في حضني فعصرتها ، وقبلتها طويلا ، وتدحرجت معها علـى العشب وانا لااصدق انها معي ، ولي ، في هذا المكان •

- (ضور) ، قالت بالتركية (انتظر)

توارت وراء الدغل وقتا قصيرا انفقته انا في تمهيد المضجع ، واقتلاع النتوء الحجرية وتسويتها بالعشب ، وفي داخلي يفور هياج الى اللحظة السعيدة المرتقبة •

خلعت سروالها الشيت المرقط بالاسود والاحمر وتركته هناك • كان سروالا طويلا يصل حتى الكاحلين • وقد حجب عني ساقيها فلم اتبين شكلهما • كان صدرها ملموما بصدرية، فوق الفستان القروي السميك ، ولم يكن بصري ، لانشغالي، قد استشف ماتحت الصدار او خمن مايكون • ولم تستلق عند عودتها • جلست الى جانبي مقرفصة ، والفستان يستر ركبتيها، فطوقتها بذراعي ، ولويتها نحوي ثم ادرت وجهها المعبق ، وزرعته بالقبل حتى بلغت شفتيها ، وعندئذ احاطتني من رقبتي، وتوفزت وضغطت وهي تغمغم : « امـان ! امان ! •• » •• احتويتها بساعدي ، وضغطت على جذعها بالمقابل ، فاذا طقطقة في عمودهاالفقريفجرتماتحت القشرةالرقيقة من الخجلالذي سرعان ماتوارى • لقد انكسر هناك شيء ما • تقوض حاجز وزال ، واندفع ماء في الاوصال ، واصبحت كلها لي • كتلة ملتهبة رخصة بين يدي ، ولم يعد اي منايحس بنفسه مستقلا، لم يبق حذر ولا احتياط ولا جمال او قبح ، ولا احساس بالحياء ولا مناطق محرمة ، ولا مسافة او اسماء • امرأةورجل، جسد وجسد في التحام ، التفاف افعواني ، غيبوبة عن دنيانا هذه ، السافلة ، ابنة الابرة •

اناملها الطويلة ، الخشنة من الرعي والشغل ، خرشت باظافرها رقبتي ، لامستها بتمسيدات سريعة ، كأنما

تنجر عليها وهي متراخية ، وتكورت الكف وراحت رؤوس الاصابع ، كأرجل النمل تدغدغ العروق ، بنقلات خفيفة متلاحقة ، ولم تلبث ان تشنجت واندفعت الى اسفل ، مع العمود الفقري ، فحالت ياقة القميص دون نفاذها .

فككت ازرار قميصي . كدت امزقه . ولاني لم ابدل ثيابي الداخلية من ايام ، اسرعت الى خلع الفانيلا . اضحى جذعي عاريا . وفي غابة الشعر ، في صدري دفنت رأسها وغمغمت ، وقبضت ملء راحتيها على زمانتي الكتفين ، وكشرت عن اسنان قوية ، بيضاء ، وانشبتها في اعلى الصدر ، تحت الكتف مباشرة .

ياابنة الجبل ، لماذا تحجب ملابس الجبل كل هذه المفاتن؟ لكي تحفظها من الشوك والغبار والريح والعيون ؟ وهكذا ، دفعة واحدة ، ياشيلانتي ، ينكشط الجلد ، ويتلألأ الهبر الابيض ، الملفوف ، ك « سفائن [1] دجاجة فتية ؟ »

كان الفستان قد انشمر . جلد الشيلانة انكشط عن الركبتين واوائل الفخذين ، والبياض تورد . تبقع الدم ، ثارا قانيا ، وشف الجلد عن شرائح مكتنزة مدورة ، صلبة

---

(١) اللحم الابيض في صدر الدجاجة .

الملمس • مرغت وجهي هناك على امتداد العمودين ،على العاج الورد • قبلتهما ، ياويلتي كم قبلتهما ••اقعى الكلب جانبا ينظر الي ، لاهثا ، وذنبه يضرب الارض ، وقادمتاه تخرمشانها • كان يعلم بغير شك ، اني لاأسيء الى صاحبته ، وانها مسرورة بما افعل • لم يعو • زمجر ولم يعو • ازداد ذنبه تراقصا ، وقادمتاه نبشاً بالارض ، وخاصرتاه خفقتا ، ولسانه انشط وسال منه لعاب • بدا منسجما ، مستثارا مثلنا ولم تحتمل صاحبته منه ذلك ، فغطت ساقيها وزجرته :

ــ ايها اللعين ، لماذا انت هنا ؟ اذهب الى الابقار ، هيا ، احرسها ونبهني اذا جاء احد ••

فهم الكلب ؟ وثب ، واستدار الى الدغل واختفى فيه ، وقالت هي موضحة :

ــ لااطيق هذا الشيء في الضوء ، ولا امام حيوان او طائر في قفص •• الم تر الى عينيه كيف احمرتا ، هذا اللعين ؟

ــ كان يهاجمني لو بقي ؟

ــ كيف اعرف ؟ اظن لا •• سيكون صديقك ايضا • كلبي وفي ، وقد اطعمته سمكا ، لن ينسى ، الكلب لاينسى ••

ــ وانا لن انسى ••

تكلمت من قلبي ••

ـ ستنسى •• قالت بتأكيد ، الانسان ••

وصاحت فجأة :

ـ يابما •• رجا ادارم (لاتفعل •• ارجوك)

تكمشت بياقة فستانها لاتريد خلعــه • كانت فعلا محرجــة في الضوء • لم تألف ان تتعرى ويراها رجل • في الظلمة ، داخل كوخها ، اعطت نفسها لرجلها • وعلى وهن السراج ، ربما ، انكشفت له ، اما هنا ، في الغابة ، في الخلاء ، والضوء مبهر ، في عز النهار ، ومع رجل غريب ، لاول مرة ؟

تشبثت الجبلية بثوبها • كانت تختلج ، واظافرها تغرز في ظهري • تريدني • تستعجلني ، تبيح لي مالا بد منه ، ولكنها ترفض ان ترى ماباحت ، وتقاوم ان تتعرى ، وتحس انهـا ستفعل لو اصررت ، وتتوسل الا اصر :

ـ آه جانم •• رجا ادارم •• يابما •• عيب •• اوتانيـــورم (آه ياروحي ارجوك ، لاتفعل •• عيب ، اخجل) •

اصررت • تمنعهـا استجلب اصــراري • اليونانيــة ، ام زخريادس ، كانت تتعرى سلفا • المحترفة تتعرى سلفا • كان

سريعا كقضاء غرض ، ذاك ، وكريهـا في النهايات ، وبذيئا ، ماخوريا •• اللعنة على تلك الدجاجـة وعلى صوصهـا الهرم الذي قتلته ••

قلت لها :

ـ ايستيورم •• سأتكلم ايستيورم •• آله براق (ارغب في ذلك يامحبوتي دعي يدي)

نزعت فستانها وهي تتخبط بين ذراعي • حاولت تستـير نفسها به فانتزعته وقذفته بعيدا على الدغل •• الورق الشائح للملفوفة المرصوصة عري وهاهي الملفوفة الحقيقية تظهر • « شكيبة » ياشكيبة ، يابنيتي ، ياصيدتي الغابية العزيزة ، في اية خرق بالية كان جسمك النضر مقمطا ؟ » صدارها كان رقاعا ومزقا ، وقمصانها الخامية مخيطة بالوان من الخيوط ، وبقطبات كبيرة مضحكة • ارتدت نظراتي كسيرة ، ورغبت للحظة عن تعريتها ، لولا انها كانت مغمضة العينين ، تنتظر ، كالنار تحت الرماد ، ان يفج عنها ، لتتألق وتعطي كل دفئها ،كل حرارتها،

« جويجة » [1] الملفوفة بدت اخيرا • ماكنت اتوقع ذلك • زوجتي •• الصالحة ، الداية ، المشغولة بولادات الاطفـال ،

---

(١) قلبها الابيض •

لم يكن فيها شيء يغريني • مجرد هيكل • هيكل ضخم ، قليل اللحم ، زاهده ، واليونانية اسرفت • تزهلت •• عرفتهـا في بدء ترهلها •• والنساء الاخريات •• وانا الضبـع المخمور ! الشرس ، لا ، لم يكن من قياس •• الغابة والصحو •• السماء صاحية ، وانا صاح وشكيبة انسانة • لب ابيض لجوزة خضراء، معكمك [1] ، يوضع في الكأس للمتعة وبين الاسنان للقرقشة • يؤكل •• كله يؤكل •

عارية كانت ، يارب السماء، عارية وممددة، والنهدان منفرجان، يميلان ، في اعلاهما نقطتان جوريتان كما حول منقار الحجل، والبطن املس • سرته صغيرة ، بعجة اصبع وسط «صمونة»[2] مستديرة مكلثمة ، والحقوان بدايتان •• عظماهما نقطتا حدود، وبعدهما تاجان لفاوان ، بينهما واد نبته غزير اشهب ، والفخذان من حوله جذعا حورة مقشرة ، مستديران من امام متكثبان من وراء ، يتكوران ويستدقان من اعلى الى اسفل •• ابهاماقدمي فتحا حفـرة في الارض • والسترة تحتهـا انشمرت ، تثنت وانزاحت • صـارت على الارض • كعباها حفـرا الارض •

---

(١) سمين •

(٢) الرغيف المستدير من الخبز الافرنجي •

مهرتي في جموحهـا ، وهي تضغط بالكعبين لترفع وسطها وتحركه ، وسحقت العشب ، وحفرت الارض ، ونهشت كتفي فكادت تحفرهما • والكلب الذي عاد ، بقادميته حفر ، وسمعت صرير أسنانها ، ورأيت قسوة وجهها المعبق ، المحتقن ،وعروق رقبتهـا النافرة ، وعينيها المغربتـين ، وهي تقترب من نهـاية رحلتها السعيدة ، البعيدة التي قاربت فيها على الاغماء •

طفقت تلال اربع ، من فوق ومن تحت ، تتقلص وتتمدد، وعضلاتهـا تتموج في توتر متلاحـق ، تنكمش وتتراخـى ، وتدور على بعضها ، لتطحن بعنف ، بشراسة ، بزمجرة كلبية، شيئا لايطحن •

انا لم اعض • حلفت لعبعوب ، بعد ذلك ، انني لم اعض، مع ان جويجتي اغرتني ،استثارتني • كانت غمغمة « جانم » التي تطلقها مع شهقات منزوعـة من الصدر ، من الاعمـاق ، بلذة والم وضغط ، توش في اذني ، كالماء على الحديد المحمى، وتحرق دمي ، فيتقلص الفكان ، وتتشهى النيوب ، فأهم ، ثم اتراجـع •• ادعهـا هي تعض •• واصـرخ بها : « عضـي يامهرتي •• عضي ، انا لااخاف ، ذلك لايضـيرني ، لايعلم في

جلدي الخشن ، اللبادي الذي يصلح لقلع نيوب افعى ، أفعى حقيقية كالتي يقلع الحاوي نيوبها بلبادة » •

في لحظة واحـدة ، وهي تستوعب ذلك الشـيء ، كانت شفتاها تنفرجان عن اسنانها ، فأشرئب على زندي ، فاغراً فمي لاقضم اسنانها ، وكيلا افعل ، اصيح بها : « اطبقي فمك ! هيا، قبل ان آكله ، ياحلوتي ، ياقرويتي ، اطبقي فمك » •

انحلت ربطة منديلهـا • والشعر الأسود تبعثـر ، كانت تشهق • تغمغم ثم تشهق ، ولا شيء ،بعد ، يعنيها •• الضوء ، العري ، انحـلال الشعر ، الكلب ، الناس او الابقار لم تعـد تعنيها • ومثلهـا لم يعـد يعنيني شيء ، خـرج زخريادس من رأسي • في الجنـة او الجحيم كنـا ، لافرق ، متوحـدين ، بعيدين ، ومخطوفين ، والدنيا وحدها ، على هواها ، لانحس بها ، لانكترث لها او نفكر فيها •

كان عبعوب يقول « اذا رأيت يازكريا حيتين متعانقتين ، ملتفتين كالحبل المجدول ، فلا تخفهما ، اقتلهما ولا تخف ، صوب اليهما البندقية او العصا عن قرب ، فلن تهربا من بندقيتك ولا من عصاك • انهما ، في تلك اللحظة ، يفعلان ذلك الشيء، يموتان » قلت لعبعوب: « ياابن القارحة ، تضحـك علي ، انا الذي اخاف الحية ، وتريدني ان ارى حيتين معا ، ولا اهرب،

واقتلهما فوقها ؟ كيف يفعلان ذلك الشيء ويموتان ، ياابن التي قامت عنك ؟ انا لاافهم » •

قال : « انت لاتفهم •• اقول لك يموتان يعني يموتان •• في الحب يموت الانسان ، وكذلك الحيوان ، انا هكذا احس •• اموت ثم اعيش • ثم اذهب ، حين يصير معي نقود ، لاموت من جديد » •

طيب ، انا لم امت ابدا • لم يحدث لي هذا ، ومع قرويتي حدث • ريح قوية امسكت بنا ، وبالعشب ، والدغل ، والشجر ، وهزتنا الى امام ، الى وراء ، لتقتلعنا • كل شيء ذهب واتى ، جسمها ، رأسها ، شعرها ، وجسمي رأسي وشعري • وانطلقت صيحة تنهدة ، وتوقفنا •• ظلت اختلاجات صغيرة ، وارتد الي شعوري ، وعاد زخريادس الى رأسي ، وكل الافكار اللعينة عادت الى رأسي •

افترقنا على عجل •• « اذهب من هنا » صاحت بي • ركبها ، فجأة ، حياء الضوء والعري •• انتهرت الكلب بغضب ، فتمطى ، ومرق عبر الدغل وانطلق • وحملت ثيابي الى دغل مجاور فارتديتها • جلست على جذع صنوبرة ادخن غليوني ، وانتظر ان تأتي الي فنتكلم ونفترق • يذهب كل منا باتجاه ، كيلا نخرج من الغابة معا •

لم تأت •• انسلت ومضت ، وحين وقفت لم ارها • عدت الى المكان فلم اجدها • كان العشب مسحوقا،وطبقة ابر الصنوبر منكوشة ، وعلى الارض ، مكان اقدامنا ، حفر ، وآثار عراكنا ظاهرة • تراءت لي صورتها وهي عارية ، متمددة ، ورائحة ما ، من امرأة ورجل ، في الوسع تشممها ، وكان الكلب يتشممها ، ثم رفع احدى خلفيتيه وبال •• وبقيت وحيداً في الغابة •

وددت لو بقي الكلب معي • غداً ، قلت في نفسي ،أطعمه من اسماكي • لن اغريه بان يؤالفني ويهجرها • لو حدث واعتادني ، لانتهرته كيلا يفارقها • هي وحيدة ايضا •• امرأة فى البرية ، وهو حارسها ، رفيقها ، وفي الليالي ، يقعي امام كوخها • اسمها شكينة وقد حفظته ، وغداً احفظ اسمه ايضا، واناديه • قالت انه سيكون لي صاحبا • اليوم ، اذا كان لايغار، صار صاحبي • لابد انه كذلك • وقد رأى بعينيه مافعلناه • في الماضي ماكنت بحاجة الى كلب • لم احب الكلاب ولا القطط ولا العصافير في الاقفاص • كنت حمارا كما قال عبعوب ، جلفا مع الكل ، وهذا عقابي•الكلب ، في هذه الغابة،نعم الصاحب•• يركض امامي ، يسير ورائي ، يؤنسني ، وفي الخيمة نسهر معا ، وينظر واحدنا الى الاخر ونتحدث •• حارس المنارة له كلب ، وكيف كان يعيش ، ويسهر ، ويتجول بدونه ؟ وعنده قطة ايضا ، وعصافير في الاقفاص • لسوف اربي كلبا • اقول

لشكيبة ان تأتيني بواحد • وسيكون لي قفص فيه عصافير ،تغرد فاصغي اليها ، واستيقظ صباحا على اصواتها • لايمكن ان احتمل هذه الوحدة • روحي تطلب روحا ، شيئا حيا ، اراه، اسمعه ، اضع يدي عليه ، احس بوجوده ، بقربه ، بحركته من حولي •

سباقت شكيبة بقراتها راجعة الى القرية • بدا كلبها مستثارا وهو يسبقها ويعود اليها ويدور حولها ، والبقرات بقع عنابية متحركة ، مقلمة بالابيض والاسود ، تغيب في الخضرة ، وراء الاشجار ، وتظهر ، وترفع احداها رأسها وترسل خوارا مديدا باتجاه القرية ، بعكس الشمس التي تذهب بدورها الى قريتها، الى البحر ، لتغطس فيه ، جمرة مدورة ، متوهجة • واخذت الطيور تودع النهار • تمرق سهوما • والغربان تفتح اجنحتها، وتعطي نفسها للريح والفضاء • تسبح في الضوء ، وتتجول ، لتعود فتبسط جناحيها ، وتظل ساكنة ، محمولة على الضوء الفضي الموشح بخيوط ذهبية •

بقيت على تخم الغابة اتابع شكيبة حتى غيبها الدرب • كنت مسلوبا بالسكينة والصفاء وجلال المساء الذي اعبده وانا على البحر في امسيات الصيف المبكر • بدوت مضيعا لااعرف مااصنع •• حزين ، ثقيل ، فارغ • وعلى الغابة شبكة واسعة الفتحات من العتمة ، والفتحات تضيق ، والغابة كتلة رمادية ،

ثم كتلة فحمية ، والارض تتنفس رطوبة الليل ، والكتلة الغابية الكبيرة تتنفس ايضا • ونسمات لطاف تهب من الشاطيء وكل شيء يأتيني دون مقاومة ، فيلفني الصمت ، والضوء الغارب ، والشلل • ولو خرج صياد من مكان ما ، لاصطاد الضبع المبهر ، دون ان يطلق عليه • ولو جاء دركي لكتفني وذهب بي الى السجن • ماكنت اهرب • ولو عاد الكلب لفتحت له ذراعي ، وسهرنا معا على التخم،كفي تمسد ظهره،وتداعب رأسه كطفل مدلل •

اغتالتني الطبيعة فكرهتها • اغتالت الشيطان في داخلي • كنت منسجما مع شيطاني • كان ملائما لجسمي وروحي • هجرني لاني تنسكت • لاخمر ولا قهوة ولا تبغ •• جفت عروقي • يبست من الداخل • تقشفت ، صرت فاضلا ، وماذا يفعل الشيطان مع الفضيلة ؟ وماذا افعل انا مع فضيلتي ؟ ادور معها ، نهارا ، في الغابة ، وانام معها ، ليلا ، في الخيمة ، اراقب النجوم ؟ احصيها ؟ أقضي عمري في مراقبتها واحصائها ؟ياالهي ، انا لااستطيع ذلك • بالخطيئة عشت وبها كان يجب ان اموت •• اعتذر عن الثوب الفاضل ، كبير علي وغيرلائق• ابدله اذن ، اتوسل اليك ، عذبني ، هناك ، في جهنم ، اما هنا فدع لي جنتي ، دع لي الرذيلة وامنح الفضيلة لغيري •

اشواقي الى المدينة استيقظت كلها • جف حلقي الى جرعة

خمر • اسفت لان ارتباكي شغلني عن حمل « دمجانة » منه بعد قتلي ابن اليونانية • كنت اقسطها كما افعل بالتبغ والخبز • حارس المنارة لايسكر • لم ار عنده زجاجة ولا شممت رائحة • كنت اذهب اليه وارجوه ان يسقيني • اسرق الخمرة اذا لم يفصل او آخذها بالقوة • التركمان لايشربون الخمر • يذيبون الدبس بالماء •• وشكيبة فعلت مثلهم • احضرت لي دبسا وذوبته بالماء • قد تحضره ايضا اذا طلبت ، ولكني لن افعل ، هذا لها ولاولادها ، ولن اقبل ان احرمهم منه • لكن من المشكوك فيه ان تحضر لي خمرا • ليس معي ثمنه ، وهي ، الراعية من اين لها ، وكيف تشتريه ؟ ومن اين ؟

على الطريق الترابية ، المبقعة بالعتمة ، سرت باتجاه الخيمة • فكرة العودة الى المدينة ، لمعرفة ماحل بزخريادس واحضار الخمر والقهوة والتبغ ، راودتني بالحاح • اذهب ليلا فالقي نظرة على الخمارة من بعيد • وياللفرحة اذا كان زخريادس حيا ، ساعانق ابن اليونانية ولو ضربني • استرضيه باي ثمن • اعمل معه اتفاقا ابديا على توريد احشاء الحيتان اليه • ارقص له • نعم هذا مافعله ايضا • لن اطلب منه ان يسقط حقه • لالزوم لاستغلال طيبته • يكفي انه لم يمت • ومقابل بعجي كرشه ادخل السجن راضيا • في هذه الحال لايشنقونني ولا يحكمون علي بالمؤبد • اقضي حكمي القليل وارجع الى

الشاطيء • احسن سلوكي مع صالحة وزخريادس وكل اصحاب الخمارات • لااضرب عبعوب لاي سبب • تعلمت من محنتي • نفعتني هذه المحنة •• لكن زخريادس ، حتى لو بقي حيا ، سيكون في المستشفى •• علي ان انتظر اياما، ثم اذهب فاطمئن • تكون الملاحقة قد خفت ، واذا لم يمت اسلم نفسي ، وينتهي تشردي •

لم ادخل الخيمة • قرفصت على الشاطيء • جاءت الأمواج من الاعماق • صوتها لم يصنع لي بهجة • انا خنتها اليوم في الغابة • هجرتها فوق ماهي مهجورة ، وعتابها في اذني شكاة مقهورة • تألمت ، تمنيت لو يكف الموج ، وتنقطع الشكاة • رحت ، عبر الظلمة المسدلة الى امتداد مخيف ، ارقب بزوغ ضوء على صفحة البحر • لو التمع ضوء في الاقاصي لاستأنست به • ولو مرت فلائك صيد لما توانيت عن مناداتها • اعمل معها طوال الليل ، طوال الليالي ، بلا اجر ، كيلا ابقى وحيدا ، بلا عمل ، بلا رفيق ، على الشاطيء • السفن في الميناء • هل تأخذني واحدة منها بحارا بأكله ؟ انظف القمرات ، اغسل السطح ، اشتغل في المطبخ •• احمل سطل الماء والصابون واعمل ، وفي الليالي اجلس في المؤخرة ولا أسأل الى أين • القمر يتبع السفن ولا يسأل الى أين ، لايتكلم ، وانا مثله لااتكلم ، نتناجى ، نتسامر ، ونمضي ، صامتين • ياربابنة

السفن ، ايها النائمون على اسرتكم ، الساهرون وراء مقاودكم، ايها البحارة والصيادون ، يااسماك البحر ، فكروا ، انتم ،انني وحدي ، انا جاركم وحـدي ، خذوني او تعالوا الي ، افعلـوا شيئا لاجلي ، اقتلوني ولا تدعوني هكذا منبوذا .

سهرت ليلتي على مصباح المنارة . عثرت اخيرا على ضوء فاستأنست به . تمددت في الخيمة على بطني . ابقيت رأسـي خارجها مسندا فكي الاسفل براحتي . لم آكل . لاشيء عندي يؤكل .والتبغ نفد . الوليمة استهلكت كل شي . لـم اغامر بالصيد خوفا على الصنارة . ولم انشط له اصلا . كنت حزينا، تعسا ، وقادرا على البكاء لو تسعفني الدموع ، كطفل اضـاع اهله وداهمه الليل فجلس على حافة الطريق .

زارتني شكيبة بعد منتصف الليل . طيفها زارني ، حـين تزحزح جبل الهم عن صدري زارني . في الاصيل انصرفت عني بغير كلام . ندمت على فعلتها ؟ لم تكن مسرورة بها ؟ انا لم ارغمها . وحق الله لم ارغمها . هي التي جاءت . ابتعدت عنها فلحقتني . بعينيها طلبتني وبعينيها طلبت سمكتي . حسبت انني اعمل معروفا . بصعوبة ايقظت نصفي الاسفل لاعمل لها المعروف ، وكان عليها ، حلوتي الصغيرة ، ان تشكرني . آه يازكـريا ، كل ماحـولك ، الآن ، يتبغـدد عليك . السمكـة والكلب وشكيبة . مهلا يااخواني مهلا ، شواربي لن تظل مدلاة

الى تحت ، ساعقفها يوما • الباشق ،يومهايقف عليها ولاتنحني•

لمت نفسي بعد قليل • ظني السيء بالتركمانية قبيح • لعلها خجلت • هذا هو : الخجل ، انت تتعامل مع امرأة شريفة، لها زوج وبيت واولاد • ليست ماخورية مثل اليونانية •اعذرها اذن وانتظر الى الغد • انهض باكرا • اصطد اكثر ماتستطيع من السمك • اصلح نفسك قليلا • اسفت لانه ليس لدي شفرة حلاقة ولا صابون • لاشي غير السمك ، وهذا في البحر، وقد لايعطيني • شكيبة لن تأكل السمك كل يوم • ستمله وتملني • الافضل ان ابيعه ، ولكن لمن ؟ انا لااستطيع ، وحتى لو اعطاني البحر لااستطيع ، وهي لاتستطيع ، سيقولون لها في الضيعة : من اين هذا السمك ؟ فضيحة!والمختار والدرك•• اف •• لو كان معي قليل من المال •

محاصراً كنت •طريقي مسدودة•اذا تراجعت فالى السجن ، واذا تقدمت فالى الموت • من يقتل يقتل • يشنقونني • لاجل ابن اليونانية يشنقونك يازكريا ، وانت لم ترد قتله ، لولا الذهب والماس وكرشه وسكين البسطرمة لم تقتله ، ولكنهم لايفهمون كل هذا • الافوكاتو وحده يخفف الحكم • وهذا يريد مالا ، وانا لااملك « برغوتا » [1] ! تفو على الدنيا ! شواربي لن ترتفع اذن بعد الآن !؟

(١) عملة فضية عثمانية ، جزء من المجيدي •

صممت على المقاومة • استرخصت نفسي بابن اليونانية • اذا لم يكن بد من الموت فليكن بثمنه • أقتل أيضاً • نظرت في كفي فارتعدت • سيتلطخان بالدماء • اتحول من صياد الى قاتل، مهزلة ، حياتي كانت مهزلة •• لم اكن اتصور ان مزحة صغيرة كهذه تنقلب الى جريمة ، والجريمة الى جريمة اخرى او الى المشنقة •ياربي الذي في السماء،اناكنت كمن يمزح •انت تعرف انني كنت كمن يمزح • لم افكر بقتله، ولم تكن لي به فائدة ، وكل شيء جرى كما في الحلم •• ترأف بحالي اذن •• لاتقصف عمر ابن اليونانية •• واحفظه واحفظني • اذا أمته أمتني ، وربما مات غيري • انت لاتريد هذا ، حاشاك ، فلا تفرط السلسلة •

صالحة تنفعني في هذا الموقف • انا خاطيء وقد يستجيب الله لدعائي • اما هي فصالحة • لابد انها تصلي لاجلي • انا عذبتها ومع ذلك تغفر لي وتصلي لاجلي • هيا اذن ياصالحة ، ياامرأتي الطيبة ، أكثري من الصلاة قليلا • ادعي ربك ان ينقذني ، قولي له انه زوجي ، ضربني ، اهانني ، عذبني ،ولكنه نوحي • واذا سمع منك وانقذني فسأتوب ، ومعك كل ليلة اصلي ، واغتسل جيدا حتى لاتشمي زنخة السمك ، وانام معك دون عض ، كما نمت مع شكيبة اليوم ساصير زوجا صالحا ، لااسكر ، ولا اتعارك او اشتم • كل ليلة في البيت • من البحر

الى البيت • من الشغل الى الفراش • ولن انام في فراشك اذا رفضت ، ولا اركبك اذا امتنعت ، وسنوفر ونذهب الى الحج ، سأصير حاجا • الحاج زكريا والحاجة صالحة ، وفي الامسيات نلعب « الباصرة » ، لايبقى لنا الا لعب الباصرة ،ولن اغشك ابدا ، وكل مااريده الان ان تصلي ، وان تطلبي من الله ان ينقذني •• اطلبي منه ، فعلاقتك به طيبة • اكفليني عنده ، قولي له انا اكفل زوجي زكريا المرسنلي ، واسأليه ان يبقي ابن اليونانية حيا ، وهذا كل شيء •

نمت اخيرا • وفي الصباح الباكر كنت اصطاد • بذلت كل انتباهي وجهدي • قلت للبحر كلمات لطيفة : « يابحر ،يابحر ، ياصاحبي ، انت تعرف محنتي • ساعدني • لاتكن بخيلا • الصديق وقت الضيق ،وانت صديقي ،لم يبق لي صديق الاك • اهل مدينتي نسوني • ربطت لهم الحوت ونسوني •• وغداً ، اذا جاء حوت آخر يذكرونني •• يكفي ، سانساهم كما نسوني • وابقى معك انت ، ياحبيبي ،ورفيق عمري • والآن اعطني من سمكك ، من بيدرك • التركمانية ستأتي ، ولاجلها اصطاد ، لها وحدها ، لتأكل ، وتنام على ظهرها ، وتأتيني بالخبز والتبغ ، وبكلب صغير ، يبقى معي ويؤنسني • » •

كان علف السمك ضروريا • لب الخبز الافرنجي الابيض ، افتته وأنثره في الماء • السمك يحب العلف ، يقبل عليه اسرابا ، وبين العلف تتدلى الصنارة وفي رأسها دودة • وحين يراها

يهجم • لها طعم مغاير ، وهو مثلنا يميل الى التغيير • الحيوان يفعل نفس الشيء ، يأكل الحشيش الاخضر ، ثم العلف اليابس مع الملح • نحن ، جميعا ، نتملح • نتحلى وتتملح ، وقد تحليت انا وتملحت زمنا،لكنني لم اتمتع بحلاوة كالامس• قلب الجوز تلك ، شكيبتي، قرويتي ، ملفوفتي ، كانت حلاوة بقشطة وبسمن حديدي •

لاخبز لدي • لم آكل مساء ، ولم افطر حتى تأتي شكيبة• ليتني ابقيت رغيفا • كنت قسمته نصفين ، لي وللسمك • مانفع التحسر ؟ سألوح الخيط • اذا لم افعل لااصطاد شيئا • هـذا ليس بخيط تلويح ، ومع ذلك انا مضطر •• انا مضطر ورجلي على رأسي •

لوحت خيطي والقيته في البحر ، في مملكـة صديقي • تعريت حتى منتصفي تحوطا • لن اجازف بصنارتي اليتيمة • اذا علقت بشيء،أنزل اليها واخلصها • ساداور صيدي حتـى يطاوع ويخرج الى البحـر • ساداور حتى « الغريبـة » [1] العاهرة ، سوداء البحر ، زبالته •

نزلت الماء فهرع الي مشتاقا • راح الموج يلحس ساقي ، يتشممهمـا ، يشرئب الى مافـوق الركبتين ، كجـرو يرحب

(١) سمكة سوداء صغيرة ، بدون حراشف ، يحتقرها الصيادون •

بصاحبه • غمست يدي بالزبد اداعبه • مهلا ، قلت ، مهلا ، اهدأ ، أصغ الي ، اعطني شيئا لتركمانيتي ولا تبلل ثيابي • ليس لدي سواها • خزانتي على ظهري • بيتي على ظهري • لااملك شيئا • ولو تقبلني ، ضيفا عليك ، في اعماقك ، بين صخورك وكهوفك ، بين اشجارك وحدائقك ، لجئت اقيم هناك • لااتدخل ، لاافسد ، ولااسكر ، وفي الليالي المقمرة نتسامر • اقص عليك كل حكايا عبعوب ، وكل اخبارالصيادين، ونعيش هكذا ، بدون فراق ، الى الابد • نعم الى الابد ، حتى اموت ، وبعد ذلك الفظني ، اعدني الى الارض • ولسوف يعثر علي احدهم ويدفنني •• ولكن لا،أبقني عندك ، هذا افضل••

اهتز الخيط وانا سادر،مأخوذ بروعة الصباح على البحر• قرصة البرد الاولى زالت • انتعشت وتقت الى السباحة •كنت قادرا ان امكث في الماء كما في الغابة•اندمجت ونسيت اشجاني• وحين انتبهت الى الخيط كان توتره ينذر بالانقطاع • سمكة كبيرة ولا شك ، صديقي اعطاني • هيا يامرسنلي أخرج مواء الذكر من اصابعك حتى تنتشي الانثى التي ترهز تحت غطاء الموج • دعها تمت من اللذة كما اوصاك عبعوب ، ثم خذها اليك بلطف ، فعلك مع شكيبة •

امسكت بالخيط ورقصته•اعطيتها قليلا • شدت وغاصت • العاهرة غاصت • هزت الخيط اكثر • شرعت دفقات من

الحنان والوجد تخرج من يدي وتسري داخله•بدأت ترتعش، كأنها تمسح على فخذ امرأة • يدي تعرف ماتعمل • لذاتها تعمل • بنفس السهولة التي ترقص الخيط ، تداعب الفخذ ، وتضرب عبعوب ، وتبعج كرش زخريادس • اذا مات ابن اليونانية سأقول لرئيس المحكمة : انا غير مسؤول ياسيدي ، يدي هي التي ضربت • هي التي تضرب وتداعب وتصطاد • احكم بقطعها وارحني منها ، اقطعها حتى لااذهب بجرائرها »•

تقدمت في الماء لاعطي سمكتي مدى اكبر • انا اعرف قانون اللعبة • لتقتل سمكة طوّل لها الخيط • تذهب بعيدا والصنارة في حلقها ، تمضي كسهم حتى تتعب ، ثم تتباطأ ، وعندئذ اسحب ، ولكن لاتغتر •• حذار ! لاتلف الخيط • ستنقلب ، مشاكسة ، وتنتره بقوة ، فاذا لم يكن ملقى ، في دوائر مستطيلة على الرمل ، ليعطي نفسه لها ، بقدر ماتريد ، قطعته وافلتت ، اخذت الصنارة وراحت ، فاما ان تنجو منها، شكل من الاشكال ، او تموت في البحر ، فتصير طعاما لسواها•

انثى السمك تقاوم اكثر • تغنج ، تتمنع ، تضم فخذيها الى بعضهما ، كامرأة تريد اثارتك ، فيكون عليك ، لاخذها،ان تفتحهما بالقوة • لم يفتني منها ذلك • من نترة الخيط عرفت انها انثى ، وانها ، في الصباح ، تريد الهراش مثل المرأة قبل ان تنهض من فراشها الدافيء ، من بين ذراعيك ، حيث تعصر،

وتحص طـوال النهار انها عصـرت « ياحبوبتي ـ قلت لهـا ـ ياابرتي ، هذا من حقك • لنتهارش قليلا ، ولكن قليلا فقط• خيطي قصير ، ومع ذلك خذيه،سانزل الماء لاعطيك منهقليلا•»

كانت نشيطة فوق ماتصورت • جذبت فأعطيتها • جـذبت اكثر فاعطيتها اكثر ، حتى لم يبق خيط ، ولم اعد قادرا على التقدم في الماء • توتر الخيط • حز عقلـة اصبعي كشفـرة • صرت مرغما : أنترها فتقطعه ، او اسبح واذهب معها لأتبعها • بلا تردد سبحت • كان علي ان اخلع قميصـي ، ولكن فات الاوان • سبحت به • لاحقتها ، العاهرة ، كنذل وراء ساقطة • لاشيء يعيقني الآن ، ولو ذهبت معهـا الى اللجة •• اعطيتهـا حتى تراخى الشد ، وشرعت اسحب • وقفت في المـــاء على قدمي وجذبتها بحذر كي لااستثيرها •

في السابق ماكنت افعل هذا • ماكنت ابلل قدمي لاجلها ، وها انا اسبـح في البحر وراءها • اقامر بكـل شيء ، حتـى بسمعتـي كصيـاد ، ولو رآني زميـل لفضحني ، لقـال عني ماا خجلني طول عمري ، ولصدقه ابني ايضا • كان صدق ان سمكة جرجرت اباه ، وربما صـدق انها خطفت الخيط كمـا خطفت القصبـة ، وعندئـذ يسمح لهـم ان يمرغوني بوحـل تشنيعاتهم البذيئة • نعم •• كان يفعل ، العاهر ، كل هـذا •

فلأجل والده لايكترث ، القواد ، ولاجل نفسه يقتل حسن الجربيـدي •

اعطني « نصية » [1] جديدة قلت للخمار • لست مستعجلا في العودة الى البيت ، ولن تسرني رؤيـة صالحة وهي تبكـي لاطمة خديها • هي ام ، وهذا شأنها • لم تهنأ معي ولا مـع ابنها • ولكنها تحب ابنها اكثر • ربما صدقت مايقـال عني ، وربما لم تغفر لي انني طعنت زخريادس ، وانا لاشأن لي بها وبابنها وزخريادس • يكفي ، للبحـر كل مابقي ، لحبيبـي ، ولاسماكه ، وللسكر •• كي انسى فأنام •

تلك السمكة الساقطة عذبتني • فتية كانت ،وظهرها قوي ، وعلى سرير الماء تقلبت ورهزت • التركمانية ، امس لم تكن مثلها • لم تجعل العرق يتصبب مني • كنت مـع السمكة كطفل يمسك بمقود كبش ، ويركض وراءه يمينا ويسارا ، الى امام ووراء • والكبش يجرجره ، وهو يصرخ ويبكي • لم اصرخ • لم ابك • لكن اية اهانة إن اتجرجر ، انا زكريا المرسنلي ، رابط الحوت ، وراء « فلعوصة » [2] كهذه ؟

---

(١) نصف ليتر من العرق •
(٢) القلعوص او البلعوص بلغة العامية : الدود الحقير الذي يلوب او ماتفه من الحيوانات •

حسناً ، كنت بحاجـة اليهـا ، وكنت بحاجة أشـد الى الصنارة ، وكما ارادت فعلت • تقدمت وتراجعت • ركضـت يميناً ويسارا • فعلت اشياء مخجلة • صبرت حتى اهتز الماء • اهتز السرير تحتها •• لم يبق الا ان تغادر الفراش وتخرج ••

خرجت غاليتي من سريرها ، واستلقت على الرمل المغسول بالزبد ، كبيرة ، جميلة ، مهيبة ، كامرأة الآغا على فراش فلاح •

كانت « لقصة » [1] ضخمـة الرأس ، بنية اللون ، تشـع نضـارة ، وتتنفس بتسـارع ، وتنظر الي معاتبة ، شاكيـة ، تتوسل •• ومن حين لآخر تتوثب ، وتتخبط ، محاولة العودة الى البحـر •

انتزعت الصنارة من حلقها وتركتها على الرمل المبلـل • احب لاسماكي ان تبقى قليلا على الرمل المبلل • لسوف تهمد فترقد براحة • الرمل المبلل يجعلها تموت وهي تحسب انهـا تنام في الماء • وقد يكون لها صغار هناك • اكيد لها صغـار • فبهذه المقاومة الطويلة تخفي لهفة ام • انهم ينتظرونها ، ولكنها لن تعود اليهم ابدا •• علقت بصنارة • كل منا يعلق بصنارة • كنت اصطاد يوما في الميناء ، فمر بي عجوز يتوكأ على عصا •

---

(١) نوع من السمك يسمى اللقص •

راقبني قليـلا ليتسلى • افلتت مني سمكـة فغضبت • قـال : « لاتستعجل عليها ، افلتت من صنـارة ، لكنها ، مثلنا ستعلـق بصنارة اخرى ، وتنتهي » • تطلعت اليه حانقا • كان نحسـا علي ، ولو لـم يكن شيخـا لذكرت امـه بسوء • قلت لـه : « اعرف هذا ولا لزوم لان تقوله • ليس المهم ان تعلق بصنارة، بل ان تعلق بصنـارتي انا •• ثم ان الانسـان غير السمكـة ، وعزرائيل غير الصياد ، الصيد مهنة شريفة » •

رفع عصاه ونقرني على مؤخرة رقبتي « اضحك على نفسك ولكن ليس علي ، عزرائيل صياد ايضا ، والمهنة واحدة • انت تلقي صنارتك في بحر السمك ، وهو يلقيها في بحر البشر ، وحين يبلعونهـا يجذبهم •• بعضهـم يجاهد ويتخلص مثـل سمكتك هذه ، فيفرح به اهله • واهل هذه السمكة فرحوابها الآن ، فلا تزعل انت • »

قالها ومضى • بصقت وراءه • بقيت زمنا اذكره ، وكلمـا مرض شخص اقول في سري : « بلع الصنارة » وقد احسست انني سأبلع صنارة يوما ، وهاانا ابلعها •• سيصطادونني مثل سمكتي العزيزة ، يرخون لي الخيط الآن ، وسيشدونه غدا ، وحين اصير بين ايديهم ياكلونني ، كما سآكلك « يالقصتي » ياكلونني•

كنت مقرفصا قربها ، وهي تفتــح غلصمتيها وتغلقهمــا • اشفقت عليها ، وربما ،لو طال تأملي فيها ، لتركتها • غير انها همدت • كانت جريحة • مشرومة الحلق ، وقد ابقيتها ولن ينفعها ان تعــود الى الماء • لوحت خيطي من جــديد ، ونزعت قميصي المبلل فعصرته ونشرته على الصخر ، تحت الخيــوط السفرجلية للشمس •

في الضحى تجمع لدي عدد جيد من الاسماك • البحــر اعطاني بكرم ، ومن انواع مختلفة • سمكتي الكبيرة وحــدها كافية لطعام يوم كامــل • ولو بعت صيــدي لوضعت في كف شكيبتي نقودا كثيرة •

حملــت الاسماك الى الصخــرة • انتقيت بعض الافــراخ فنظفتها استعداداً لشوائها فور اطلال شكيبتي • فرغت من ذلك ولم يعد لي ماعمله •لم تبن الابقار في المرعى فوثبت الى الصخر وظللت عيني بيدي • لااحد في كل المنطقة ، ولا من زوال على الدرب ، او في الابعاد • مكثت كذلك وقتا • كانت الشمس قد ارتفعت ، وحرارتها ادفأتني • صار الظل مقبولا • رغم هــذا لم اغادر مكاني • لربما ، من وجهة نظر الذي يراني ، كنت ابدو تمثالا منسيا في وضــع الانتظار • كان جــذعي عاريا ، وشعري الخشن ، القذر ، يتهدل كفروة من جلد خــروف على رأسي،وذقني طويلة وليس الا شروال ازرق يستر نصفي

الادنى ، ولو كانت ، من حولي ، ارض مزروعة ، لكنت فزاعة حية لجميع الطيور • مااردت تصديق وساوسي بان شكيبتي لن تأتي • انا لم اتسبب لها في اي ضرر • لم اشتمها او ابصق وراءها • وبلطف اخذتها • وحين قالت لي « اذهب » أطعت وتركتها تستر نفسها على مهل ، ثم لم ألحقها ولم اقسرها على المسألة مرة اخرى • حسبت انني ارضيتها • لاشك انها كانت راضية ، فقد اهتزت جيدا • وكل شيء كان على افضل وجه ، فما بها قرويتي ، اذن ؟ عاد زوجها من الاناضول ؟

غادرت الصخرة وقرفصت في ظلها مواجها للبحر • على صفحته هامت هواجسي واشجاني•راقبت النوارس تطيرفرحة، واجنحتها البيضاء تنفرد وتنضم • كانت تحط على اكتاف الموج، وتنقر الماء لتصطاد ، ثم لاتلبث ان تطير ، محرضة الموج على الامساك بها ، او باحثة عن رزقها في غيره • وبدا البحر مناطق طولانية وعرضانية ، بين الزرقة النيلية اوالسماوية الفاتحة،وفي تكاسل يتلاشى الزبد على الرمل ، ويعود ادراجه لاحقا ببقايا الموج ، وانا أفتح حفرة العجينة الرملية ، وادع الماء يغمرها ويخربها •

تقلص الظل فغمرت الشمس ظهري • نهضت على امل يائس ،وظللت عيني بكفي وبحثت في الابعاد • ارتقت الصخرة

معاندا وبحثت • مكثت عليها وعللت نفسي ، وفي الظهيرة خاب كل شيء •

بفتور تحركت اجمع الحطب • اشعلت النار وشويت السمك • التهمته بدون خبز واستشعرت تقززا فرميت ماتبقى منه في الدغل • خطر لي ان احمل السمكة الكبيرة معي الى الغابة ، وخطر لي ان اذهب بها الى حارس المنارة • عدلت قد تأتي شكيبة بعد الظهر • وقد لااصطاد فآكل السمكة • المشكلة ، كانت ، ان احفظها من التلف بعد اشتداد الحر • فتشت عن مكان اخفيها فيه • جاءتني فكرة : ان اربطها بالخيط والقيها في البحر • ضحكت على نفسي ، فالموج سيقذفها على الشاطىء • قلت اربط معها حجرا لتغوص • لكن ذلك مضحك اكثر ، فالاسماك تأتي وتنهشها • خيمتي مكشوفة للشمس ، والحر الشديد سيجعل سمكتي قديدا فاسدا • وددت ، الان ، لو كانت حية لاتزال • اذن لاعدتها الى الماء معتذرا عن هذا الحجز الموقت •

لقد اصطدتها كما يجب ، لاجل شكيبتي ، وهذه لم تأت• ومن يدري •• انا لن اصطاد سمكا لها مادامت بعيدة • وسمكتي لاحق لها في العتب علي • خدعتها بصنارتي ولكني لم اغدر بها • هارشتها بقدر مارغبت ، وتحملت الاهانة منها • وحتى بعد ان صارت في كفي اخذتني شفقة عليها • لم اقتلها

بيدي ، تركتها تنام وتحلم على الرمل المبلل • هي التي ماتت بسرعة • وكان لموتها فائدة لو جاءت قرويتي ، لو عندي من يأكلها ، من يشتريها ، ولكن ، في مثل حالي ، يبدو موتها بلا مقابل ، بلا طعم ، مثل موت زخرياديس • مثل مزحتي معه ، والفارق الوحيد ان احداً لايطالبني بدمها ، ولا يلاحقني لاجلها كما يلاحقونني لاجل ابن « الجاجة » •[1]

وسدتها الرمل قربي ، ورحت انظر اليها متأسفا على حالها • ولانني لم اتكلم مع مخلوق منذ امس ، فقد ناجيتها كأنها تسمعني ، ثم حملتها من ذنبها ووقفت على الشاطىء ، معتزما اصطحابها الى الغابة • ارتحت الى هذا الحل ، غير ان هاجسا ثبط همتي • اذا رأوها في يدي عرفوا انني صياد • وسيسأل الدرك حراس الغابة عن وجود صياد في هذه المنطقة فيقولون « نعم رأيناه وبيده سمكة » آه يابنيتي ! ـ قلت لها ـ حتى هذا لايمكن • لابد ان نفترق • انت لاتحسين بحيرة ولا بألم • انت افضل مني • لااحد يطلبك مثلي ، وكل شيء صار سهلا عليك : الفراق ، والطمر ، والبلع ، والغابة ، والبحر كلها سواء ، ولاجل هذا سأبعث بك الى المكان الذي خرجت منه • اذهبي اذن الى الجحيم ، انت وكل مايتعلق بك •• قذفتها بعيدا في قلب الماء ، وانا اقف على الصخرة • تطاير رذاذ وغابت في الردم • نفضت يدي

---

(١) الدجاجة •

وقفزت لافركهما بالرمل ، حين لاحت لي ، تتهادى على السطح ، تاركة نفسها لعبث الموج • تجاهلتها • غسلت يدي ونهضت •• لكن البحر رفض هديتي ، اعادها ، مسرعا الى الشاطىء ، كأنه لايعرفها •

الارض • لم يبق غير الارض • صدق الوالد • حفرت قرب الدغل لاطمرها وامضي • جميلتي ترقد في الحفرة ، فلا اراها ثانية ، ولا تتفسخ امام عيوني ، او ينهشها كلب • عدلت مرة اخرى • قد احتاج اليها اذا لم اوفق الى الصيد بعدالظهر • شققت بطنها ، نظفتها وملحتها ، وفتحت حفرة عميقة ، في ظل الصخرة ، تحت الرمل المبلل ، وطمرتها •

هناك اودعتها ، وسلكت دربا ألفته بين الادغال ، محاذرا ان تفاجئني افعى ، ومتوجسا في كل خطوة ، ان تنساب امامي ، او اراها وهي تفكك كعكتها البغيضة ، وتحدق في بعينيها الباردتين قبل ان تتوارى ، في زحفها الشنيع ، الخائف ، المعادي •

مررت بالمنطقة التي كانت شكيبة ترعى نقراتها فيها • خلفتها ودخلت الغابة • توقفت في البقعة التي ضاجعتها فيها • لم ترتسم لضجعتها في خيالي صورة مثيرة • تجاوزتها الى الدغل ، وتريثت عند جذع الصنوبرة •

انتهى تطوافي في الاماكن التي اعرفها • عدت ادور بين الاشجار ، كنملة تتف شاربها • امتصتني طراوة الغابة • سكينتها ، ضوؤها الرمادي ، احزناني • نبت لدي احساس بالتوحش الكئيب ، والغربة ، والانفصال عن كل شيء ، كل شيء ، حتى البحر •

وبدلا من ضيقي السابق بالغابة ، ملت الى التوغل فيها • انا لم اجلس يوما في غرفة مغلقة باختياري • كنت افتح الباب والنوافذ • امشي حافيا على الساحل ، تحت الشمس والريح• يحلو لي الصيد وانا جالس على مرتفع • لم تكن الشمس مؤذية ولا مربكة ، والضوء الساطع كان حبيبا ، مبهجا • الانسحاب الى وكر كان بغيضا ، ولكم حملت قهوتي ، من قبو المقهى ، الى الرصيف ، واذا لم تكن طاولة ، ولا كرسي ،كنت اجلس على الارض ، ادخن ، احدق بالمارة ، اهرش رأسي اذ يعجبني منظر ، واشتم وانا افكر بصوت عال •

تركت نفسي تدب بين ادغال الغابة • حين كان والدي يشتري ديكا كان يقص جناحيه كيلا يقفز الى دور الجيران• وفي صغري اصطدت كثيرا على الدبق • كنت انتف جناح « القرقفانة » (١) الكحلاء التي احتفظ بها حية • اتركها على

(١) عصفور موسمي كحيل العينين •

الارض تدفدف بجناحيها المقصوصين ، وتثب ثم تقع . تنط وتذهب الى الدغل لتختفي الى ان ينبت الريش . السماء للذي له جناح ، وانا بدون جناح . انا ادب في الغابة . انسرح كالحرذون وادخل الوكر . الغابة وكري . المغارة مأواي ، بعيدا عن النسور والضوء مأواي .

تعمقت الغابة والجبل سمتي . استبدلت بعصاي اخرى من غصن الصنوبر . علق قميصي بشوك « الديس » فتمزق . بان كتفي فصرت اشبه بشحاذ او متشرد . داخلني هم على هم . ليس في وسعي الظهور امام احد ، ويد خفية تدفعني الى مصير تعس . بات واضحا النفق الذي اسير فيه . مظلم .. بارد .. وموحش . سادخل هذا النفق مضطرا . اخرج منه لاعود اليه ، وفي كل عودة اتوغل فيه اكثر . اعيش كالكلب الذي يغادر قبوه لينهش مايقع عليه ، وفي رجوعه يحمل عظمايقضمه بكسل وتراخ . السبع يفعل هذا ، والذئب ايضا ، ولكنني اعرف حقيقتي . لاسبع ولا ذئب . كلب مقطوع في قبو قذر ، وعلي ان انهش شيئاً اليوم ، او غدا ، او بعده . لايمكنني ان اظل جائعا ، لايمكنني ان اعيش على خبز شكيبة ، هي جائعة مثلي ، ومثلي ممزقة الثياب ، ولن يكون مفرحا لها ان تعيل تيسا عجوزا هي الراعية الفقيرة .

انسانة ،طيبة ، مستقيمة ، ولكنها امرأة ، تريد شيئا من

الذكر • سروالها لاينزل بفرخ من السمك دائما • السمك لايؤكل دائما • انا الصياد بدأت اعافه • لابد من الخبز ،والتبغ والثياب والخيطان والصنانير • ولا بد مقابل خدماتي لهـا ان تأخذ شيئا لنفسها ، غير ذلك الشيء الذي اعطيها وهي مستلقية على ظهرها • اذا رجعت كافأتها • ساحصل على هذه المكافأة لاجلها • الكلب نفسه لايستمر في الركض وذنبه بين خلفيتيه والاحجار تلاحقه • يقف ، يعوي ، يعض ، وساعض • هالك على كل حال ، ولن اهلك وحـدي ، لـن افطس بـدون ان اخرمش • القـط المحصـور يخرمش • ولست اضعف ولا اجبن منـه •

تصميمي على المواجهة حرك الدم في عروقي • توفزت • حل الاستهتار محل اللامبالاة • آكل او مأكول ؟ آكل • واذا فرض علي ان اكون قاتلا او مقتولا ؟ اكون قاتلا • قررت ذلك لعلمي ان أوان التراجع قد فات •

سادخل النفق المظلم ، واعيش ولو صارت عظام ضحاياي تلة من حولي • اجاهد حتى الرمق الاخير ، وبعـد ذلك الى النار ، كل شيء الى النار ، وليحترق العالم •

كنت اسير عبر غابة لانهاية لها من الصنوبر والسنديان • تسلقت مرتفعات جبليـة كثـيرة • صار الهـواء جافا ، وعطر

الصنوبر شميما يفتح الصدر المغلق ، والشمس المتساقطة من فرجات الاشجار تغري بان يلاحقها المزء ويقبض عليها • مفاصلي تحركت كلها ، وترشح من جسمي العرق والهم ، استعدت شهيتي الى الحياة • صرة طعام ، بعد هذا التجوال ، تساوي مملكة • افتحها عند جذع هذه الصنوبرة العتيقة ،فوق هذا القش الجاف الاسود ، واتربع امامها ، وارفع زجاجتي الى فمي ، والف سيكارة واشعلها •

اتكأت على كتف وادظليل لا يرى قاعه لكثافة اشجاره وادغاله• فراش مستطيل مقعر من الخضرة الزرقاء القاتمة • خيل الي ان بوسعي التدحرج فوقه • كنت احلم بكل شيء ، سعيدا مشتاقا ، متشهيا • وكل مااحلم به يتشخص بسرعة ، حتى ليمكنني رؤيته ، والامساك به • ياربي كم كانت الاشياء قريبة مني وبعيدة عني • عزيزة ، غالية ، شهية ، ادفع مقابلها ، لو توجد ، قطعة من جسمي •

اغفيت ورأسي على زندي • نمت على تعب • نمت كحجر • رأيت صالحة في المنام • كانت تلبس ثوبا أبيض • وعلى طبق من قش كان طعام • اندلق الصحن • رفعت الغطاء عن الطنجرة فوجدتها فارغة • وعلى النافذة وقف زخريادس بشاربه الكبير يبتسم • تركت « السفرة [1] » ونهضت • « اذن

---

(١) المائدة •

لم تمت ؟ ــ هتفت بفرحة ــ لم تمت يازخريادس وانا اتوارى واتعذب ؟ » اقتربت منه فابتعد • ظل يبتسم من وراء النافذة ، وعبثا حاولت الوصول اليه •• استدرت فاذا دركي على الباب• صحت مرتعدا : « انا لم اقتله ، لم يمت » وقفت صالحة بيني وبين الدركي • نبق والدي من الغرفة : « لاتخف يازكريا » انجردت لاقبل يده واحتمي به فتراخت وسقطت •• تحولت اليد الى افعى •• هرعت الى الباب فاذا الدركي يصوب بندقيته الي • تراجعت الى النافذة فلمـع ساطور البسطرمة في ضـوء الشمس • وصلت الافعى الـي وهي ترقص لسانهـا فصحت مذعورا •• وفتحت عيني •

كان نمل يدب على صدري ورقبتي • سكينة مهيبة مـن حولي • غار من الاشجـار والادغال والخضـرة الداكنـة • نفضت القش عن رأسي وجسمي • عاينت المكان الموحش • تثـاءبت • صنعت من ركبتي زاويتـين وانا جالس • فوقهمـا تدلى ذراعاي • رحت استعيد الحلم ، اجمع مزقه ، افسره وفق ماسمعت من تفاسير الاحلام • ازددت كآبة لان زخريادس كان حيا في الحلم • معنى هذا ، وكما تقول صالحة ، انـه ميت • انقطع خيط الامل • موت زخريادس صار يقينا • الافعى عدو، ورجال الامن يسدون علي المسالك •

داهمتني الافكار • انصبت كالحجارة على رأسي • تقوس

كتفاي تحت وطأة الحلم • غـام كل مافي داخلي وخارجي • انقلبت الغابة الى مغارة ، جدرانها طحلبية ، خضراء ، كريهة، وضوؤها معتم ، كئيب ، وهواؤها خانق • تمنيت ، الآن ، لو املك سلاحا • رصاصة في الصدغ وينتهي الأمر ، وفي الليل يحمـل الهواء رائحتـي الى الوحوش ، فتأتي لتعبث بجثتي ، لتمزقني وتبتلعني ، وهكذا لااحتاج الى قبر ، أوفر على الناس تعب دفني •

الظل مال واستطال • الوقت بعد الظهر • عرفت ذلـك دون اكتراث ، كأنما لم يعد يعنيني اين انا او اين ابيت • ظللت جالسا حيث نمت اعبث بالعشب ، اجمعه ، افرقه ، ابني منـه كوخا ، ينهدم الكوخ فأجدد بناءه • اقطع العيدان • الوك القش، انفض النمل المتسلق جبل هيكلي ، اضيق به ، أمله ، ادعـه ينسرب كيف يشاء ، الا ان يدب على جسدي •

انا لم اعاين الغابة ولا أعرف لغتها•الحياة نفسها كانت مجرد حياة • في صغري ضربوني كثيرا • والدي جعل العصا معلمي الوحيد • كان يضربني باستحقاق ، ولكنه كان يضرب نفسه، والدتي نصحتني ، حبستني ، فعلت كل ماتستطيع لاصير بشرا، وخابت مساعيهـا • تركتنـي وشأني • قالت : « انت ازعر ، لاخير فيك » لـم أفهم شيئا • مامعنى ازعر ؟ وما هو الخـير ؟ وكيف انضبط ؟ وكيف اعيش بدون ان اتطاول على حـدائق

الجيران ، واضرب اولادهم ، والوث ثيابي ووجهي بالتراب والاقذار ، وامتنع عن الشقاوات ؟ كبرت قليلا فساقني الوالد الى دكان خياط • « لا ـ قال الخياط بعد ايام ـ هذا الدب لايصلح للخياطة » نقلني الى حلاق •• نفض « الاسطة » يده مني وصرفني •• اكتشف انني استعمل امواسه في تنجير الخشب او اخفيها لشهرها على الاولاد واخافتهم • حسب الوالد انه وضع يده على سري •• امسكني من اذني الى النجار •• احببت هذه المهنة • غير ان النجار قال لي « بغل مثلك خلق لتكسير الحطب ! » عملت بتكسير الحطب وساعدني جسمي • حملت على ظهري • كثرت الشكايات وحفلات التأديب •• حزمات من العصي تكسرت ولم افلح •• قال والدي : اخرج من بيتي ياارذل خلق الله، ياكلب ، ياحمار » • لم آبه لشتائمه لانها كانت اخف من عصاه • خرجت ولحقت الصيادين • كان التشرد ، حافيا ، ملوثا ، على الشاطىء ، وفي فلائك الصيد ، ملائما لي • صرت صيادا •• تعمدت بهذه المهنة عشقتها لانها اتاحت لي جوا فسيحا ، طريفا ، مغامرا • كانت المعارك يومية • سالت دمائي • القوني في البحر • القيتهم، ادميتهم ، ولم ابرح الشاطىء • صار لي حق عليه ، ومكان فيه • كسبت نقودا،ضاع اكثرها في التدخين والسكر والمشاكل• رجعت الى البيت عشرات المرات ، وبعدها غادرته مطرودا او هاربا • فكر الوالد : « نزوجه ونستريح » • وافقت الوالدة•

زوجوني واستراحوا • جرى كل ذلك كما يجري المـاء في النهر ، كمـا ينزل المطر ويأتي الحر • لـم اكلف خاطري معاينة او تدبر أي شيء ••

والدي قال : «الذي لاتعلمه الأيام يعلمه الحكام يازكريا» ياأسفاه على كلمة والدي•ضاعت والتقت • الايام تعلمني الآن• والحكام سيعلمونني غدا • رحمة الله على الوالدين • بغلهـم تعلم في الغابة • لديـه الوقت ، الآن ، للتعلم ، للتسـاؤل عن اسم هذا العشب وتلك الشجرة ، هذا العصفور وتلك الافعى•

ماذا افعل ، ياالهي !؟ انا جائع ، وليس في الغابة طعام • لم ار شجرة مثمرة ، ولا صادفت نباتا او جذرا يؤكل • قـد كنت اجمع الفطر ، ولكنني لم اجربه من قبل • لاأميز بـين السام وغير السام منه • ثم ان الفطر لايؤكل نيئا • قلت ابحث عن الخبيزة [1] واسلقها • آكلها بدون ملح•ولكن•اين الوعاء؟ كان علي ان التقط تلك العلبة التنكية الصدئة التي صادفتهـا في طريقي • انا لم آبه للعلب والطناجر او الصحون في الماضي• صالحة كانت تفعل ذلك • ومنذ اليـوم علي ان احسب حسابا لاتفه الاشياء اذا كنت لااريد ان اموت جوعا •

هكذا صرت افكر بالجوع • ولكن خوفي منه تبدد حـين

(١) نوع من النبات البري الذي يؤكل •

استكبرت ذلك على نفسي ، انا زكريا المرسلي • رفضت الخوف من الجوع بشدة • قلت محال ، لن اكون عاجزا الى هذا الحد • اسرق ، اقطع الطريق ، اقتل انسانا في سبيل رغيف • اجاهد حتى الرمق الاخير ، وبعد ذلك علي وعلى الدنيا السلام •

ومرة اخرى تذكرت سؤالي لوالدي : « لماذا ينزل الحمار اذنيه وهو محمل ؟ » « لانه يفكر في امور الدنيا » « ولماذا لا يفكر الا وهو تحت الحمل ؟ » « لانه حمار مثلك اولا ، ولان التفكير يكون في وقت الشدة ثانيا » • والدي كان يفهم بلغة الحمير ولا شك ، وانا من فصيلتها كما يبدو • الشدة حمل • اثقل حمل • في زمني ، وأنا اصطاد في الميناء ، حملت صندوقا خشبيا عجز عنه الحمالون • صاحوا بي وأنا انحني تحته لارفعه: « انتبه يازكريا ، سيصير لك فتاق » ضحكت منهم : « لاتخافوا ياإخواني ، عروقي مثل النعل ، لاتفتقها سكين الاسكافي » • حملت الصندوق والسيكارة في فمي •• قلت لرئيس الميناء : « اطلع فوقه اذا اردت •• انا زكريا المرسلي ! » قال : « شهادة لله ، انت حوت » • قلت : « والحوت لايطلب سوى الاسماك •• لاتقل لي اخرج من الميناء بعد اليوم •• دعني أصطد السمك المعلوف ، ولك منه ماتشتهي » • اباح لي الصيد في الميناء مكافأة •، ظن الصندوق حملا ثقيلا • انا لم اشعر به••

لم افكر وانا تحته ، لم انزل اذني مثل الحمار كما افعل اليوم.

ترى تنزل هذه الشدة عن ظهري ؟ لااعود افكر بالجوع ؟ اشبع طعاما وخمرا وتبغا ؟ اذا حدث ذلك فسأقتسم رغيفي مع كل جائع • في السجن ضحكت من شاب حكم بسبب الجوع • لم افهم مشكلته يومهـا • فهمت مشاكل الآخرين • السرقـة مشكلة • القتل مشكلة • العراك مشكلة • الزنى مشكلـة • العربدة كما كنت افعل حين اسكر ، مشكلة ، ومن اجلها يمكن ان يسجن الرجل ، ولكن ماهي مشكلة الجوع ؟ ولماذا يهتم به الناس ؟ وكيف يحس الجائع ان سواه جائع ؟ قلت في سري « هذا الرجل مجنون او حيوان » كنت انا الحيوان • كان تحت الشدة مثلي ، ولكن اذنيه ظلتا مرفوعتين • اذا دخلت السجن ورأيته فسافتح له فراشي واجلسه عليه • ساقول له : « معـك حق ، الجوع مشكلة » أسأل الله ان يرفع الشدة عن الجميع ، وأسأله كذلك ان يضعها على الجميع ، كي يعرفوا ان فيالدنيا مشاكل اثقل من الاحمال •

كالحمار الذي تحت الشدة ، انزلت اذني وفكرت • بقيت جالسا وفكرت ، وانتهيت الى فكرة : اعود الى الخيمة فاشوي السمكة وآكلها •

قبل الانحدار عن كتف الجبل ، صعدت صخرة عاليـة

اطللت منهـا على البحـر • استطعت ان احـدد الجهـة التي استقبلها • العودة اسهل • فهي نزول دائـم •• كنت جائعا ، تعبا ، وقـد طغى حزني على كل مباهج الغابـة من حولي • تعلمت شيئا جديدا : الا اغادر الخيمة بغير زوادة • سيكـون السمك كل زوادتي،ومهما سئمته نفسي ، فهو غذائي الوحيد• لو كان غيري احمـل السمكة معه احتيـاطا • لو فعلت ذلـك لبعتها ، او جمعت الحطب وشويتها • ومن حسن الحظ انـي طمرتها تحت الصخرة • البحر ارجعها الي بعد ان قذفتها اليه• حبيبي ادرى بحاجتي • اعادها الي والهمني ان اطمرها لتكون طعامي بعد هذا الجوع • أنا خبأتها اشكيبتي ، وشكيبتي لـن تأتي • ربما عاد زوجها من الاناضول • اذا عاد سيكون عدوي• كان عليه الا يعود • ياربي اجعله لايعود ، واجعـل شكيبتي تأتي غدا وتراني • لن أنام معها كما فعلت امس • هذه خطيئة، وفي مثل حالي تزيد الخطايا في عقابي ، وحتى لو رغبت في ذلك فلـن أفعل • سـأقول لهـا : « نصفي التحتي مـات ياشكيبة ، من الافضل الا نفعل ذلك بعد الآن ، دعيني اصالح ربي • اتوب اليه لينقذني من ورطتي ، وحين يفعل استأذنـه واعود اليك • لسوف اعوضك الضعف ثلاثة • سجلي ديوني فاسددها وازيـد ، واعطيـك على الحساب ايضـا • اما الآن فاعذريني ، انا ياشكيبة اريد مصالحة ربي ، اريد مسـاعدة عجوزي التي تشفع لي عنده » •

انتعشت لمجرد احساسي بالعودة الى البحر • مهما تطل المسافة ويشتد الجوع فان سمكتي تكفيني • اخرجها من الارض ، اغسلها ، اصنع لها سريرا من جمرات الصنوبر ،ثم اصبر نفسي حتى تنضج • سابذل جهدي لاصبر نفسي حتى تنضج ، فانا لااطيق اللحم النيء • وبعد اليوم ، غدا صباحا ، اشرع بالصيد • اصطاد كمية كبيرة • اسأل البحر ، حبيبي ، ان يعطيني كمية كبيرة • اكل منها وادخر مؤونة • كذلك احصل على وعاء لسلق الاعشاب • وبعد ذلك ابحث عن سلاح : سكين ، قطعة حديد ، نبوت ، اي شيء يفيدني وقت الحاجة • ولسوف احصل على المال ، وبه اشتري « جفتا » وخرطوشا وابتاع مؤونة ، واعطي شكيبتي منه قليلا • ساجعل دماغي نافعا ونشيطا •

وجدت نفسي امام درب الجبل • ذعرت وارتددت الى الغابة • لطيت وراء شجرة وراقبت الدرب • كانت عليه آثار اقدام ودواليب • طريق عام • حسنا ، علي ان اكتشف هذا الطريق • اسير في الغابة بمحاذاته واكتشفه • قد احتاج اليه• انصب فيه كمينا واسلب المارة•لن افعل ذلك الا عند الضرورة القصوى ، يوم يضيق الخناق علي واضطر الى المواجهة ، الى المجاذفة بكل شيء ، كيلا اذهب رخيصا بابن اليونانية وحده•

انحدرت عن الجبل وانا افارق الطريق وألتقيه ، وكلما

تقدمت خيل الي انني اسمع اصواتا في الغابة • احترزت في سيري ، ابتعدت قليلا عن مصدر الاصوات ، وبينما كنت ادور حول دغل خشخش شيء ماعن يميني • اجفلت وتوقفت حابسا انفاسي • ماكان ذلك افعى ولا وحشا • سمعت غمغمة• قرفصت وازحت الاوراق فاذا شاب وشابة عند جذع شجرة • كان الشاب راكعا امام الفتاة ، وهي تلعب بشعره وتدلله • استثارني الموقف • احترق شيء ما في دمي • ماكنت اطيق التلصص على الآخرين ، ولا ترددت على المبغى ، انا الخنزير الذي خمخم في كل القمامات ، رفضت ان اضع بوزي في قمامة النساء اللواتي يذهبن مع عدة رجال ، ويمارسن تلك المسألة مع احدهم امام اصحابه او على مقربة منهم • عبعوب حدثني يوما عن السلطان عبد الحميد • قال ان السلطان ضعف جنسيا في شيخوخته ، فاشاروا عليه باستعمال المهيجات •رئيس خصيانه نصحه الا يتناولها خوفا من رد فعلها المؤذي • دبر له طريقة شيطانية • صنع له عينا سحرية في سقف غرفة ، وجعله يرى منها الآخرين وهم يمارسون الجنس • كان رئيس الخصيان ينظم هذه الحفلات،ويحرص ان تكون طبيعية عفوية، يجهل الذين يمارسونها انهم مراقبون • وكان السلطان يهتاج فعلا ، فكافأ رئيس خصيانه بامرأة ! • قلت لعبعوب : « ياابن الابرة ، جعلت من السلطان قوادا » قال : « وللقواد لذته ايضا » شتمته • « الى جهنم انت وجميع القوادين •• السلاطين

لايرضون بهذا ، ولا يفعلونه » فاتكأ على جانبه وقال : « انت حمار يازكريا ! لاتعرف السلاطين ، ولا سمعت عنهم » نعم ! انا لاأعرف السلاطين ولم افكر بهم حتى صرت سلطانا مثلهم ، سلطانا بدون رئيس خصيان • الكلب ، امس ، كان سلطانا ايضا • رآنا وتهيج • حفر الارض بقادمتيه واندلق لسانه • ولسوف يندلق لساني لو بقيت مكاني اتلصص على الشابين • سأصير قوادا في آخرتي ، اصبح ثورا بقرنين ! وسيكون ذلك جميلا ، ولائقا جدا ! اللعنة على جميع القوادين • انهض يازكريا وتابع طريقك • دع الناس وامورهم • اهتم ، انت ، بامرك •

فجأة سقطت المحفظة من يد الفتاة • ربما ألقتها هي لتتفرغ بكلتا يديها لاحتضان رأس الشاب • ظلت المحفظة حيث سقطت • كانت لماعة ، ولها مقبض ذهبي ، وحجمها يسمح للمرء ان يتخيل بان فيها اشياء كثيرة• صالحة لاتحمل محفظة• في حينا لاتحمل النساء محافظ • النساء الثريات يحملنها فقط• هذه الفتاة ثرية • اهلها في الغابة ، واصواتهم هي التي كانت تأتيني •

ركعت لاتخاذ وضع يتيح لي الاستمرار في المراقبة • اذا حصلت على المحفظة انحلت مشكلتي • لااضطر الى السرقة ولا الى القتل ، واستطيع تدبير نفسي لبعض الوقت • آه يا صالحة،

بدأت خيرات دعائك تصل • تابعي ياعزيزتي ، يازوجتي التي ستكون آخرتها افضل من بدايتها ، تابعي شفاعتك ، واكفليني عند ربك • علاقتك به طيبة • من يوم تزوجتك تصلين ، ولك عليه دالة • سيقبل شفاعتك ، ويجعل ابن اليونانية لايموت ، واذا فعلها وابقاه حيا سأصلي مثلك • اركع انا الفيل كمافعل الآن ، واصلي • اتعلم الصلاة ، وانذر نفسي لله • ادخل الدير اذا اردت ، واذا لم ادخله ، وكان ذلك الشيء خطيئة ، اخصي نفسي كما يخصى الثور • اعمل كل ماتطلبين •

ظهرت علامة اخرى على قبول الشفاعة • تفلتت الصبية من يدي الشاب وركضت فلاحقها • بقيت المحفظة فيمكانها • تهيأت للانقضاض عليها • استدارت الفتاة نحوي والفتى يطاردها • اختبت وتلبثت في مكاني حتى استدارت • رحت ارقب اللحظة المناسبة ، اللحظة التي تسمح لي بالوصول الى المحفظة والركض باسرع مايمكن في الغابة •

الفتى ادرك الفتاة • جذبها فارتمت ارضا • ارتمى فوقها فقلت : « سيعتليها ! » كانا قرب المحفظة ، كان هذا من سوء حظي ، فما لم ينهضا ويركضا فلا أمل بالوصول اليها ، وبانتظار ذلك ساكون سلطانا بالرغم عني •• السلطان اراد تهييج نصفه الأسفل ، وانا أريد تهميده • اريد المحفظة لا الفتاة •

تلبستني روح الشر • ادركت انه لابد من الخطيئة لاحصل على المحفظة • كل شيء له ثمن ، والخطيئة ثمن المحفظة • قررت ان ارتكب الخطيئة واستغفر ربي • هو يعرف انني اسعى الى مرضاته ، وان وعدي بالتوبة صادق ، ولكن لماذا لايساعدني هو على التوبة؟ لماذا لايجعل الفتى والفتاة يتراكضان ويبتعدان ؟ هذه المرة هو المسؤول ، وساقول ذلك لصالحة ، واضربها اذا عارضت •

الاغتصاب او القتل • لم يبق غيرهما • اذا قاوم الفتى قتلته ، واذا صاحت الفتاة خنقتها • بعد هجومي لايمكنني التراجع • لن اهجم الا في الوقت المناسب ، حينما يصير الفتى فوق الفتاة ، او حين يتعريان •• يامهزلة حياتي ، كان علي ان احمي الفتاة ، ان امنع وقوع ذلك الشيء ، وها انا اتمناه • صرت مثل الرجل الذي يأخذ بقرته للتشبية [1] ، أنتظر ان يشب الفتى على الفتاة ليتاح لي الانقضاض على المحفظة ، وكلما امتدت يده اليها قلت «بدأنا» •• تعذبت في متابعة «اللعبة» ولعنت اولاد الاغنياء والمدارس على برودة دمهم في «اللعب» ، فلو كنت انا ، او كان عبعوب ، او اي واحد من حارتنا ، لكان « الشغل » في نهايته الآن • لماذا ، ابن الكلب هذا ، لايبدأ شغله ؟ انا لست سلطانا يابني ، ولا اريد اثارة • باشر بتعريتها

(١) تلقيح الحيوانات بعضها من بعض •

كرامة لخاطري • انزع ثيابك أنت ايضا • لاتخجل • انالااهتم الا بالمحفظة • في غير هذا الوقت كنت اضحي بكل محافظ الدنيا في سبيل امرأة • كان كلبي الصغير ينبح، ولكنني ، في الوقت الحاضر ، اتنازل عن كل النساء مقابل المحفظة • عرّها اذن وتعرّ • كلبي الصغير نائم • وكل أفخاذ هذا النسل لاتوقظه • ابدأ ، هيا لاتجعل دمي يفور غضبا • انا اكره القوادين وانت صيرتني قوادا • احذر اذن ، اهنتني بفعلتك • كل مااريده ان تعجل قبل ان يتأخر الوقت فتغط الشمس في البحر وانا في الغابة •

لم يعجل • رفض ابن المدرسة ، ابن الابرة ، رجائي • لم يسمعه • كانت اذناه مشغولتين بسماع فتاته تتحدث عن حبها • قالت له « حبيبي » واخذت كفه في كفها • راح يلثم شعرها • اغمضت عينيها فلثمهما • ظل في المنطقة الفوقية • يقبل الشعر والخد والشفتين • لم يكن مستعجلا • كان كأنه في بيته • سمعت غمغمات • قبل عنقها • لم ينحدر الى الصدر • مافك القميص • تحرك ساقاها فانشمر الفستان • جرضت بريقي وتحفزت • دهشت لان حركتها لم تلق التفاتا منه • رأيت يدا تمتد الى الفستان • كانت يدها • اعادت الفستان الى ماتحت الركبتين • استوت جالسة • همت بالوقوف فامسك بها • قالت له : « لا ، دعني ، لااريد ، اخاف ان يرونا •• في المرة المقبلة •• » وقال لها : « احبك •• آه ياروحي احبك •• ابقي لحظة اخرى » كان يتعذب في حبها ، يكاد يبكي ••

وكانت هي منفعلة ، موردة الخدين ، وعلى استعداد للاستجابة لو امسك بها وطرحها ارضا ، لكنه افلتها ، وجلس على العشب بقربها ، وراحا ، اليد في اليد ، يتأملان خضرة الاشجار وزرقة السماء ، واسندت رأسها على كتفه ، وراحت تقول له كلمات عن الحب ، عن السحب ، والطيور والزهور ، وقربت خدها من خده وقالت :

ـ يامعبودي ، ياحبيبي كم انا سعيدة اليوم •• كم اشتهي لو نبقى هكذا ، الى نهاية العمر ••

اضافت :

ـ هل نبقى معا الى نهاية العمر ؟

أغمضت عينيها وتمتمت :

ـ تحبني كما احبك ؟

ـ احبك ! احبك ! ••

كانا سعيدين حقا ، يتبادلان كلمات مهذبة ، كما بين اخ واخته ، وهما ينظران ، الواحد في عيني الآخر • ضغطت باصبعها على انفه ، فتناول كفها وقبل رؤوس اصابعها ، قبل اصابعها ، وبشفتيه ملس شفتيها ، ونهض فقطف زهرة برية وعاد فشكلها في شعرها ، وهذا كل شيء •• لم يجذبها ، لم

يعرّها ، ولا ظهر انه سيعتليها • لقد سلاني هذا المنظر • انا لم اعرفه في شبابي • ومرة قفزت عن الحائط الى بيت جارتنا ليلاً • تظاهرت الجارة بالرعب ، وهمت بان تصفعني • امسكتني من صدري ودفعتني ، وخيل الي انها تقاتلني ، فامسكتها بـدوري من ياقة فستانها ، ومن شعرها ، ورحت اقاتلها ، وعندئذ تناولت يدي فوضعتها على حوضهـا ، وقالت ضاحكة وقـد اكتشفت غفلتي « غريمك هنا ياابن الكلب ، اترك شعري ! » اما صالحة فلم اجلس معها ، لاقبل الزواج ولا بعده ، لاعلى الشاطىء ولا في الغابة • لاعرف ماذا اقول لو جلست •• انا لاافهم بلغـة العشاق ، ولم اكن عاشقا في حياتي •

تعالى ، من طرف الغابة ، صوت ينادي ، فقفزت الفتـاة وتناولت محفظتها • فتحتها ورأت الى وجهها في مرآة صغيرة، ثم مدت يدها الى حبيبها لينهض •• سارا بين الاشجار ،حبيبين صغيرين ، كفراشتين ، كزهرتين ، وبقيت جاثيا على ركبتي حتى غابا ، وتلاشى وقع اقدامهما في سكون الغابة •

ضاع كل امل في الحصول على المحفظة • غضبت • لكن غضبي زايلني بسرعة • لو فعلا ذلك الشيء لاختلف الامر • كانا ، عندئذ ، رجلا وامرأة • كنت قادرا على خطف المحفظة وقتل الرجل واغتصاب المرأة • اما ولدان ، حبيبان ، وبهجـة اللقاء والمودات ، والكلمات السعيدة ، والآمال العريضة •• كل

ذلك سلاني • كانا ، وهما يتبادلان القبل ، يراقبان الغيوم البيض ، ويطيران كحمامتين بينها • لو تراكضا ، كرة اخرى، لاندفعت واختطفت المحفظة • كنت قادرا على السرقة وعاجزا عن القتل • احسست ، في اللحظات الاخيرة ، بالشفقة عليهما، ولو بقيا يتناجيان الى الصبح لبقيت قابعا في الدغل ، مصغيا الى كلمات حرمت منها طوال حياتي • ليظلا محبين • لسوف تخونه يوما • انا لا اثق بالمرأة • هذا الجنس الملعون لاعهد له • ستخونه حين تكبر ، حين تنام على ظهرها وتنظر ، من فوق كتفه ، الى الرجل الذي وراءه ، وتنسى ، عندئذ ، كل كلمات الحب ، كل العواطف والتوسلات ، ولا تشفع لديها ، لادموع الحبيب ولا تنهداته •• وفي ذلك الوقت ، لو صادفتها، اقتلها • اقتل الشيطان في جسدها • اما الآن فهي ملاك ، قال لها : « ياملاكي ! » انتبه ياصغيري • ملاكك لن يبقى ملاكا • للشيطان مكان في جسمها ، هو الان حبيس ولن يظل حبيسا• حين يكبر ملاكك يصبح شيطانا •

بقيت مستثارا ومأخوذا بمشهد الشابين اللذين تراكضا امامي على العشب • وعندما استأنفت سيري باتجاه البحر ، تمهلت في الوادي ، تحت الرابية التي تأتي الاصوات منها • المتنزهون على كتف الوادي ، في المرتفع ، وسط غابة يضيع الناس فيها اذا تفرقوا ، ويمكن ان يسمع بعضهم بعضا ولا يرى

احدهم الآخر • بدأت أفهم فوائد الغابة • ليس فيها سمك مثل البحر ، واشجارها عالية كجدران السجن،وفيها ادغال وافاع، ومع ذلك مفيدة • لو لم تكن الغابة اين كان يلجأ أمثالي ؟واين كان يجلس العشاق امثال الفتى والفتاة ؟ وكيف كنت أنام مع شكيبه التي لم تأت اليوم •• ترى هل اصابها مكروه ؟ هل عاد زوجها من الاناضول ؟ اذا عاد سيكون عدوي مثل زخريادس ، ولماذا ياربي ، يعاديني الناس ؟ وانت لماذا لاتلهم زوج شكيبة الا يعود وزخريادس الا يموت ؟ استغفرك على كفري ، ولكن اسمع ، انا اشعر ، بعد حادث المحفظة ، انك أيضاً تعاديني • وانا احملك مسؤولية عذابي وذنوبي • ساقول هذا يوم الحساب ، ليأخذوني الى جهنم ولكنني ساقوله ، ساتقبل النار ولكنني سأقوله !

كان الماء يجري في قاع الوادي • وكنت مضطرا الى السير في القاع دائرا من حول الهضبة التي تأتي منها اصوات المتنزهين • انعشتني رؤية الماء المنساب يترقرق على الحصى وبين الصخور ، بمحاذاة الاشجار البارزة جذورها في عروق ضخمة طويلة ، سمراء وبنية ، انجرفت عنها التربة ،وكشفتها الانهيارات من على جانبي الوادي •

انحنيت على الماء المتجمع وحدقت لارى اذا كانت فيه اسماك • لم اجد لها اثرا • صورتي وحدها طالعتني • بدا

وجهي بشعا مخيفا كوجه متوحش متغـول • رأيت عيني في الماء : كانتا حزينتين ، شاكيتين ، ثقبين مدورين في وجه مغطى بالشعر • كانت سحنتي غريبة ، يبعث مرآها ، في هذه الغابـة الموحشة ، الخوف في القلب • ولو ظهرت للشابـين قبل قليل لتركا المحفظة وهربا • كنت بحاجة الى مرآة لأعرف ذلك ، وبحاجة الى التحديق فيها لأتيقن ان وجهي المخيف كان سلاحا مرعبا فاتني استخدامه • لكن التحديق في الماء اخافني انا ايضا، كشف لي تعاستي ، جعلني اشفق على نفسي واحبها ، احـب زكريا المرسنلي البائس ، الجائع ،الهارب ، واحزن لحزنـه ، الى درجة الاندفاع في نواح يتفطر له القلب اسى •

« يابني ، لماذا كتب علينا ان نقتل ، انا وانت ، ونتعـذب ونتشرد ونسجن ، ونعذب امك معنا ؟ حسن الجربيدي اسوأ من زخريادس ، وانا لاالومـك على قتلـه ، ولا اعرف سبب القتل ولايعنينـي • انت حكمت علي بقسوة • صدقت ماقيـل عني • كرهتني • وانا لااقسـو عليك ولا اكـرهك ، ولكني لاابالي بامرك • مبالاتي لن تنفعك • قد ابكي • انا الآن ابكي• من يعلم انني ابكي ؟ لقد بعت سمكتي وانا اشرب بثمنها ، وغدا اصطاد غيرها ، ومنذ الغد ساصطاد كل يوم سمكة لاجلك •• لا لانك ابني ، بل لانك تتعـذب ، وابوك ، زكريا المرسنلي تعذب مثلك ، وحزن على نفسه كما تحزن على نفسك ، ولكن

حزنه لم ينفعه شيئا .. كان هاربا ، وجائعا ، ومحاصرا ، وكانوا ، على الهضبة يتنزهون ، وهو،في قاع الوادي ،يجرجر قدميه عائداً الى كوخه على البحر » .

غسلت وجهي فاعتكر الماء . اختفت صورتي فاسترجعت خواطري . اجتزت مجرى الماء على جذع شجرة يابسة كأنها جسر طبيعي . جلست على صخرة في الطرف الآخر ، وغمست قدمي في الماء ، ثم تناولت حصاة قذفتها في المجرى ، ورحت اتناول الحصى والاحجار واتسلى بقذفها ، وادندن باغنية شجية .

خطر لي ان الطي وراء دغل حتى يغادر المتنزهون مكانهم ، فأهرع باحثا بين مخلفاتهم عن فضلات الطعام . هكذا تفعل الكلاب الشاردة التي تغتذي الجيف والقمامات ، وانا في وضعي لست الا واحدا منها.هي افضل حظا ولا شك.في وسعها ان تمصمص العظام وتقضم بعضها ، وستتعارك ، وتزمجر ،وتهر اذا كانت جائعة ، وسيكون علي ان افعل مثلها .

تصورت نفسي ادخل معركة كهذه . لاأخاف الكلاب الكلب ، بعد كل شيء ، ليس افعى . ان أدلى في بئر داخله كلاب متوحشة تمزق لحمي او افسخ اشداقها ، فهذا عراك . تعارك حيوانا بحجمك ، تخافه او لاتخافه لايهم . المهم انك

لاتحس بقشعريرة باردة كما امام افعى • لو حكموا بالقائي في بئر فيه افاع لمت قبل ان اصل اليها • لايمكنني تخيل ذلك • هذا الكابوس فوق الكوابيس • انا عصفور من هذه الناحية • الضفدعة اشجع مني ، فهي تزعق حتى النهاية والافعى تبتلعها •

ثم ان الكلاب على مزبلة غير الكلاب في بئر • سأجعلها تولي لمجرد ظهوري امامها • لن استعمل العصا حتى لااهيجها • الكلب يهتاج من العصا ، ويهاجم الذي يحملها • يعرف انه يخافه • الحجر افضل مع الكلب ، يهرب منه ، وقد اوصى كلب جروه بان يهرب ماان ينحني الانسان على الأرض لالتقاط الحجر ، فقال الجرو : « واذا كان هذا الانسان يخبىء الحجر في جيبه ؟ » رويت النكتة لعبعوب فلم يضحك • لااحفظ النكت ولااورويها • استمع الى نكاته وأضحك • اسايره ، ابن الابرة ، ولا يسايرني • اضحك لكل نكاته ، ومرة في العمر ، حفظت نكتة ورويتها له فلم يضحك • كان عبعوب يستلقي قربي على الشاطىء • اصابع يديه متشابكة تحت رأسه ، وعيناه عالقتان في الغيوم التي تنفخها الريح فتسرع ، بينما يخيل اليك ان القمر هو الذي يسرع ، سابحا وحده في الفضاء • قلت وقد اغتظت منه : « الم تسمع النكتة ياعبعوب ؟ » قال : « بلى » قلت : « ولماذا لم تضحك اذن ؟ » قال : « لان نكتك لاتضحك •• اضافة الى انني اعرفها » • ازداد غيظي حتى تحول الى قهر ،

فرحت اتحرش به لاضربه • قلت : « كان عليك ان تضحك مسايرة » قال : « انا لااساير احدا » •العرض قال انه لايساير أحدا ، مع انه يفعل حين يطيب له ذلك • سكت على مضض• هذا المتهتك يتشوف علي • يتذلل للجميع ، ويتجبر علي • لابد من تأديبه اذن •الفكرة التي في رأسه عني يجب اخراجها من دماغه ولو حفرته حفرا • فار الغضب في داخلي فتركت الصنارة وجئت اليه • ظل غير مبال • كانت عيناه عالقتين بالقمر • خطر لي ان اعفو عنه كرامة للقمر ، ولو قال لي : « انظر الى فوق يازكريا ، تأمل الغيوم مااجملها ، استلق بجانبي واستمتع بهذا المنظر » لأطعته واستلقيت • كان خاطري ينجبر لانه يعتبرني انسانا قادرا على الاستمتاع بالقمر • لكن عبعوب لم يقل ذلك • قيدني مرة في خانة الحمير وانتهى • قررت ، تلك الليلة ، ان اغير خانتي بالقوة • امسكت بحجر كبير وهززته قائلا : « اسمع ياعبعوب ! تطلع صوبي ، هذا الحجر اخذته من الأرض ولم اخرجه من جيبي • أنا لااحب الغدر ولا الاهانة • اضحك للنكتة التي رويتها لك والا سحقت رأسك بهذا الحجر • » نظر نحوي فرأى الحجر في يميني والغضب في عيوني • كان تحت رحمتي تماما • وهذه المرة لن القيه في البحر ليسبح ويهرب فاركض وراءه وأصالحه • اعدت الكلام عليه : « اضحك للنكتة » لم يضحك • تنازلت قليلا : « اضحك مسايرة لي » • لم يضحك ، قلت : « ألا

تسايرني ، انا زكريا المرسنلي ؟ » اجابني : « قلت لك لااساير احدا •• » جن جنوني •• كان القمر قد غاب ، وانتبه الي بكليته ، فرأى الموت بعينيه •• قال لي : « سأضحك اذا رويت لي نكتة اخرى » فصحت به : « ياابن العاهرة •• معاجزة ؟ تعلم انني لااعرف نكتة اخرى ، وترفض ان تضحك لنكتتي؟» قال : « لاارفض ، ولكني لااحب الكلاب ولا النكات عنها » سالته : « والافاعي ياابن الافعى ؟ » قال : « لااحبها ولا اخافها •• اما الكلاب فاكرهها » •

كان غضبي قد اخذ يخف منذ قال انه لايرفض •• تكفي هذه الكلمة التي اجبرته عليها الليلة • سأحفظ نكتة واجعله يضحك لها ، فاذا لم يفعل ظهر كذبه وقتلته بذنبه •• لاحيلة لي مع هذا التيس ، انا بحاجة اليه وهو يعرف ذلك ويتبغدد •

رميت الحجر في البحر وعدت الى صنارتي،وقبل اناخطو مبتعدا شتمته كختام • قلت له : « انت لئيم والكلب وفي • انت جبان والكلب شجاع • انت افعى،بل انت عقرب ، انتقملة•• انت ابن قحبة ! فضحك وقال : « قل عني ماشئت ، الا انتنعتني بالكلب •• انا لااحب الكلاب » •

اتكأ على جنبه واضاف : « تعرف لماذا لااحب الكلب يازكريا ؟ » قلت « لانه عضك في صغرك ؟ » قال : « لااذكر

أنه عضني ، ولكن الكلب حيوان حقـير مثلك » • لم تغضبني كلماته • اعرف انه سيتكلـم الان ليشتمني ، ولكـن لابأس ليتكلم فقط •• لااطيق صمته وهو بجانبي • قلت : « انا لست حقيرا ياابن امك •• والكلب ليس حقيرا ، والناس يشهدون » قال : « الناس أغبياء مثلك » قلت : « وانت ؟ » قال : « وانا واحد منكم •• الا نعيش في مدينـة واحدة ، وحي واحـد ، عيشة الكلاب هذه ؟ » سألته : « ماذا تقصد ؟ » قال : « اسمع الحكاية تعرف • لاتقاطعني • سمعت ان الكلب كان ذئبا •• صياد قال لي ذلك ، ومنذ ذلك اليوم احببت الذئب وكرهت الكلـب » •

لففت سيكارة وفكرت : « هـذا كلام معقول •• الكلب يشبه الذئب حقا ، ولكن الذئب يهاجم الغنم والكلب يحميها ، فكيف يفهم عبعوب المسائل بالعكس ؟ •• ماذا يدور في رأس ابن امه هذا ؟ » •

قال عبعـوب : « لاتكن عجولا •• انا اروي لك حكايـة سمعتهـا ، تقول انـه كان في قـديم الزمـان احـد الامراء العظام ، وكان له قصر كبير ، مثل المملكة ، فيه خدم وحشـم وحراس وناس ومواش وطيور وكل مايلزم •• ونزل الثلج في شتاء قاس حتى غطى الارض ، فامر الامير باغلاق ابـواب القصر ، وجعل ، من فوق الاسوار ،يتسلى برؤية الذئاب وهي

تزحف وتتعارك وتحاول اقتحام الابواب ثم ترتد عنها خائبة ، فاذا يئست انصرفت ، ثم اقبلت باعداد اكثر او اقل ، ولكنها ، على كل حال ، كانت تضرب حصارا على القصر ، وتعوي في الليالي العاصفة ، حتى يملأعواؤها الفضاء رعبا ، فتقلق الاميرة ويجفوها النوم ، وعندئذ يعمد الحرس الى تهدئة الذئاب بالقاء دابة مريضة ، او حيوان هرم ، فتفتك به ، وتسكن ثائرتها وقتا يتاح خلاله للاميرة ان تغفو . ولما تطاول الشتاء والثلج ، ولم تنفع النبال في تفريق الذئاب وطـردها ، اقترح احد الاعـوان على الامير ان يلقي اليها بالمذنبين من خدمه وفلاحيه . وكانت هذه تسلية جديدة ، لكن عدد الخدم والفلاحين راح يتناقص، فوق ان النقمة بينهم تصاعدت الى درجة التمرد ، فتوقف الامير عن القاء البشر ، وصار يلقي الى الـذئاب الجيف وفضـلات الطعام ، وكانت الجيف قليلة ومكروهة ، والفضلات لاتحوي الا العظام ، وهكذا ، يوما بعد يوم ، خف ورود الذئاب ، وقل زحامها وعواؤها ، ولم يبق منها الا عدد قليل ، رضي ان يعيش على الجيف والفضلات ، واعتاد ذلك ، ونقد قوته وجرأته ، ولم يعد قادرا على العيش في الغابة ، ولا على منازلة وحوشها فاستكـان الى كسله ، وقنع بضعفـه . راح ينتظر الفضـلات ويعيش عليها . صار يحرس القصر فيعوي على الوحوش ،

ويتنبه الحراس اليها • فلما جاء الصيف ، وذاب الثلج ، اقامت هذه الذئاب المدجنة حول القصر نهائيا ، وصارت كلاب حراسة له • • »

قلت لعبعوب : « فهمت الحكاية ولم افهم سبب نقمتك على الكلاب » فنهض وتمطى وقال : « انت لم تفهم الحكاية ولا سبب النقمة •• انت حمار يازكريا » وبعد ان ابتعد حتى أمن شري اضاف : « انت كلب يازكريا ولذلك تحب الكلاب •• وسيأتي يوم تعيش فيه على الفضلات مثلها ، وتتذكر كلامي وتفهمه » •

لم اطارد عبعوب ولم اضربه • ضحكت ورحت اغني • كلامه لم يغضبني لانه ماكان يعنيني • ماكان يخطر على بالي ان آكل الفضلات ، ان انتظرها مقعيا على عصعوصي • وقد رويت هذه الحكاية يوما في السجن ، وتباهيت بها ، فضربني الحراس وشتموني صارخين : « تعرض بنا ياابن الكلب ؟ » قلت لهم : « انا احكي حكاية سمعتها » فصاحوا : « اخرس ، لاتتباله علينا » وعادوا الى ضربي ، فقلت في نفسي : « الحكاية ملغومة اذن ، وقد فعلها معي عبعوب ، ورطني ابن الابرة • • » أضمرت ان استرد حقي منه ، ان اضربه على حكايته كما ضربوني ، فلما خرجت من السجن ورأيته سامحته ، نسيت حكايته ،

نسيت سوءاته ، ولو جاء الآن الى هذه الغابة،لغفرت له واركبته على كتفي ، وحملته معي ، وفي الليل ، وكيلا يهرب ، كنت اربط قدمه بقدمي ، حتى نموت معا او ننجو معا •

رجلاي في ماء الجدول تبتردان ، وانا اغني لنفسي غناء حزينا كما في المآتم • بقيت كذلك حتي صفا رأسي • تناولت عصاي وانصرفت • كان الانتظار حتى المساء مستحيلا ، والمتنزهون لن ينصرفوا قبله ، وفي الظلمة لن اجد طريقي الى الخيمة •

سرت في الوادي • كان اخضر ، ظليلا ، فيه سكينة وطراوة ، وزقزقة عصافير ، وخرير ماء على صخر ، وجذوع يابسة ، وعروق سنديان تنفر من الجرف ، فلما خرجت منه هتفت : « الآن الى البحر ، الى حبيبك يازكريا ، الصباح رباح، وغدا اما قاتل او مقتول » •

السمكة التي طمرتها كل ماتبقى • لاحيلة ولا خيار • اذا مات ابن اليونانية مت • لن ادعهم يقتلونني به • من الغد اخرج في طلب رزقي • هذا اليوم لن يتكرر ، لن ابقى جائعا ، ولن اصير سلطانا • عبد الحميد حر • كان نصفه الاسفل خاملا ، ولتنشيطه صار قوادا • وانت يازكريا ركعت على ركبتيك

وراء الدغل ، لا لتنشيط نصفك الاسفل ، بل لاسكات جوعك، لاختطاف تلك المحفظة من يـد الفتاة • حلو ! اعـداؤك لن يركعوا وراء الـدغل اذا عثـروا عليك مـع شكيبـة ، ولن ينتظروك حتى تنزل عنهـا لكي يمسكوا بك او يطلقوا النـار عليك • تدبر امرك • اطلق مادام اطلاقها صار قدرك •اطلقها وانت واقف • احصل على السلاح باي ثمن • اسرق اواقتل• اذا مات زخريادس لابـد ان تسرق او تقتل ، فالنفـق الذي دفعـوك اليه مسـدود من الطـرف الآخـر ، وعلى فوهتـه يقفون ، « ارفـع يديك » « لماذا ياالخواني ؟ » « لانـك قتلت زخريادس » « انا لم اقتله » « بلى قتلته » « الله يشهد انني لم اقتله » « اخرس » « ولكنني لم اقتله » « اخرس » « اقول لكم لم اقتله ؟ » « وكيـف مات اذن ؟ » « مات بالخطـأ » « وانت ستموت بالخطأ » « هذا لايجوز » « نحن نعرف مايجوز ومالا يجوز ، ارفـع يديـك » « لن ارفعهمـا » •• « خـذ » •• « خذوا» •• وبعد ذلك ، حين تنفد ذخريتي ، حـين ترديني رصاصة ، ليفعلوا بي ماشاؤوا ، ليربطوني بالحبال ، او يجروا جثتي ، لافرق ، المهم ان اقاوم ، ان ابقى زكريا المرسنلي !

صادفت مرة مجنونا على الشاطىء • كان يملأ الرمل في كيل معه ويفرغه ثم يملؤه من جـديد • طاسة رأسي كيـل وافكاري رمل • لم اكن قادرا على التوقف عن ملء الكيـل

وافراغه ، بل ما كنت احس انني املؤه وافرغه • الفكرة ذاتها تدخل وتخرج ، تدور حولي ، تمشي امامي ، تسير الى جانبي، تركض اذا ركضت ، تتمهل اذا تمهلت ، تتبعثر ، تتجمع ، تغير شكلها ، لونها ، وتبقى هي ذاتها ، في يقظتي ومنامي •

الحيوانات ، اذا لحقتها البراغيث ، تنزل في الماء ، تنط البراغيث من الاطراف المبللة الى الاطراف الجافة ، ترتفع من البطن الى الظهر • يغمر الماء الظهر فتتجمع على الرأس ،يعمد الحيوان الى غمس رأسه في الماء فتغرق البراغيث • انا براغيثي داخل رأسي ، ولن تغرق حتى اغرق • آه يازخريادس ،انت لو رأيتني لاشفقت علي • القتيل لو رأى عذاب قاتله لاشفق عليه ، انا مازلت آمل ان تكون حيا يازخريادس ، وغدا ساعرف اذا كنت حيا • ساذهب الى المدينة ليلا • اذا لم اغامر فلن استريح • السجن لايخيفني ولا الموت • هذا العذاب افظع من السجن والموت،وحين اعرف ماجرى لك اقرر ماينبغي لي•

افضى بي السير الى البحر • الانحدار ايسر من الصعود• ساعدني ذلك على الاسراع • شغلتني خواطري عن مواطىء قدمي • خبطت خبطا بين الادغال • لم آبه للاشواك والحشرات في طريقي • تلبستني لامبالاة بالانس والجن ، ورغبت في

العراك • ركبتني النقمة على كل شيء ، فاندفعت ، اتدحرج كحجر حتى استقررت على الرمل •

الخيمة في مكانها • وكري الذي سادخله واتكور فيه مكانه • ماالفرق بيني وبين الضبع ؟ جلدي الخشن لم يصبح مثل جلده بعد ، ولن انام على ظهري وارفع الاربع الى فوق• انا وحش بدماغ بشري • دماغي ايضا عدوي ، مثل زخريادس وزوج شكيبة • ظل بليـدا حتى حادث الخمارة ثـم نشط • طيب ياابن الكلب ، قلت وانا اضرب على رأسي ، انشط على كيفك ولكن ساعدني • قل لي : ماذا افعل لاخلص من هـذه الورطة ؟ •

خلعت قميصي • بقيت في السروال الداخلي • طـراوة الرمل المبلل انتزعتني من افكاري • انتعشت ماان لامست قدماي الماء • جاءت الريح من البحر فمسحت انفها بجسمي • تقدمت في الماء • غرفت منه بكفي ودلكت صدري • عدت الى الشاطىء لاشرع بتهيئة طعامي •

كان صوت يدوي في قفر • موال على الشاطىء ، ينبـع من الظلمة ويغور فيها • البحر يهدر مع المد ويتلوى هديره آتيا من بعيد ذاهبا الى بعيد وليس من يسمعه غيري • طغى المد

على اليابسة فنمر البقعة التي طمرت فيها سمكتي • اضطررت الى البحث عنها بيدي وسط الماء • رحت احفر الرمل باصابع واجفة ، وأسأل الله الا يكون الموج قد كشفها فعامت وانجرفت مع الزبد الى البحر ليلقي بها الموج ثانية في مكان ما على الشاطىء • انا واثق من البحر ، وماصدقت انه فعلها معي حتى حين يئست من العثور عليها •

فجأة تذكرت كلب شكيبة • اذا كانت قد جاءت وفتشت عني ، فلا بد ان كلبها اكتشف خيمتي وشم رائحة سمكتي فنبشها واكلها • انتقم لنفسه ، فعل ذلك في غفلة من شكيبة ، كما فعلت شكيبة ذلك الشيء في غفلة منه • لقد اردته صديقاً ، وهاهو يصبح عدوا ، فمن بقي لك يازكريا ؟ وحيد انت مثل البحر ، ومهجور مثله ، والبحر يثأر لنفسه ، وعليك ان تثأر لنفسك • الكلب ثأر لنفسه ، فهل انت اقل منه شأنا ؟ طيب ، الصباح رباح ، سأنام الليلة جائعا • بل انا لااحس بالجوع ، القهر ملأني ، اكلت منه وشبعت ، وهذا الكون ، من حولي ، لن ادعه طويلا يسخر مني •

ارتديت قميصي ومضيت مع الشاطىء • الى اين ؟ رجعت، توقفت ، قرفصت • ماذا افعل ؟ اصطاد ؟ والطعم ؟ انتصبت واقفا • مشيت • يممت المنارة • اطرق باب الحارس واطلب

طعاما ؟ اذا رفض اقتله والقيه في البحر • اقتنعت بالحل • مادمت سأقتل غداً فلماذا لا اقتل الليلة؟ اسرق شيئا على الاقل • حارس المنارة لديه سلاح ، فيا الهي الطيب ، كيف نسيت ان حارس المنارة لديه سلاح ؟ اطرق بابه بلطف ، اقول له ارتطم قاربي بالصخور • اخترع كذبة ما • ادخل المنارة متمسكنا ، اغافله وأنتزع البندقية • اذا قاوم اقتله ، واذا استسلم اطلب طعاما • آكل وادعه بحاله واذهب • اعتذر له • اشرح له وضعي ، انصحه ان يفهم وضعي ، الا يكون عدوي • اقول له لااريد معاداة احد • كل مافي الامر انني اريد ان اعيش ، ومايضر الناس اذا تركوني اعيش ؟

تحمست للفكرة وفركت يدا بيد كانني اشرع بالعمل • طفقت اتصور كل شيء قبل وقوعه • تخيلت ، بعناية ، كل التفاصيل المقبلة :درج المنارة،ثم المنارة فالباب ، ووجه الحارس يطل علي ويسأل من انا • سيكون لديه مصباح كهربائي ، وقبل ان يفتح الباب يسلطه على وجهي • ترى يعرفني ؟ لقد سرقت صنارته • اطعمني وسرقت صنارته • انا ، في نظره ، سارق او قاطع طريق ، واذا بلغته الاخبار عرفني كقاتل ، وقبل ان يفتح ، ربما صوب بندقيته الى صدري ، فقتلني او اسرني • هو ايضا ، بدون سبب يصبح عدوي ، حتى ولو نجوت ،بحركة

ما ، فانني ارشده الى وجودي في المنطقة ، ومن الغد ، اذا لم يكن الليلة ، يبلغ عني ، ويأتي الدرك ورائي ، يصطادونني على « المبق » بغير ان يطلقوا رصاصة واحدة . اما اذا لم يعرفني، ففتح الباب وذهب لاحضار الطعام،او اذا ناولني ماعنده وجلس بقربي والبندقية الى جانبه ؟ في هذه الحال اثب عليه ، اخنقه بيدي ، اضربه بعصا على يافوخه .. لايجوز اطلاق النار في الليل ، ولا يجوز اطفاء المنارة . انا لن اطفىء المنارة ولن اعطلها . افهم واجبي واحترمه مادمت ، بعد كل شيء ، صيادا وابن بحر . لن اتسبب في اذية الصيادين او السفن . اتدبر فقط امر حارس المنارة . ساغدر به على اية حال ، وسيكون غدري بشعا ، انما لاحيلة فيه . فكرت في ذلك واسفت عليه سلفا . قلت لنفسي : ماذا نعل هذا الانسان المسكين ليذهب ضحية ظروفي التي لاشأن له بتعقيدها الى هذا الحد ؟ ثم حين يستيقظ اولاده في الصباح ، كيف سيستقبلون جثته ؟ سيكون .. وعلى خدودهم تتساقط دموعهم ولن يتوصلوا الى فهم ماحدث . سيلمسون باصابعهم ، وهم يشدون والدهم لينهض ، الموت الذي كانوا يسمعون به في الحكايات . الافضل ان ادعه حيا . اكتفي باخذ بندقيته . في هذه الحال يسوقونه الى التحقيق ، ويجلدونه ليعترف . سيقسم لهم ان رجلا صفته كذا وكذا جاء

ليلا واغتصب سلاحـه • لن يصدقوه طبعا • الصدق عملـة باطلة• سيتهمونه ببيع سلاحه ويعذبونه •• وحتى لواقتنعوا ان السلاح اغتصب منه ، سيحكمونه بالسجن لتهاونه في الوظيفة• وفي الليل ، حين يشرع هدير البحر بالغناء،في موال طويل نائح على الشاطىء ، ستجلس الأم واطفالها يلفهم الصمت والخوف، منتظرين عودة الغائب • وبعد أيام يأتي حارس آخر ، وعائلة اخرى ، ويلقي بالأطفال وامهم خارج المنارة •

الصورة احزنتني • تصورتها وحزنت لها • كان في صدري قلب ، ومنظر الاولاد الذي تخيلته ادمى قلبي فتراجعت عـن عزمي • صرفت النظر عن قتل الحارس او اغتصاب سلاحه • عدت الى الخيمة كئيبا ، وفي منتصف الطريق سمعت نباح كلب يأتي من الاتجاه المعاكس • اقترب النباح مني حتى بات واضحا انه يقصدني • قلت في نفسي وقد ركبني الذعر : « جاؤوا اليك يازكريا » ولعلع في مكـان ما ، طلق ناري ، وخيـل الي ان خيـولا تتراكض ، وانـي وقعت في الفـخ ، ومن الصعب ان اختبيء مادامت الكلاب في اثري •

كنت اعلم ان الماء يضيع الاثر • وماداموا قريبين مني ، فان خداع الكلاب غير ممكن الا بالقاء نفسي في البحر • هناك اختفي•وحتى لو اكتشفوني فماذا في وسع الدرك ان يفعلوا معي في

البحر ؟ يطلقون علي النار ؟ الرؤية مستحيلة في هذا الليل •
وانا قادر على الابتعاد عن مرمى البنادق مهما تكن قوية •

لم اخلع ثيابي • لاوقت لـدي لطمرها في الارض ، واذا أبقيتهـا على الشاطىء تشممتهـا الكـلاب ففضحت سـري ، ومن الغد يخرج زورق مسلـح لمطـاردتي • يصطادونني في البحر ، او يوعزون الى مخاتير القرى بالابلاغ عن المنطقة التي ألجأ اليها عند خروجي من الماء • ماذا افعل يارب ؟ شعـرت بالعداء وبالقسوة التي لارحمة فيها • وكما يحدث في النوم ، اثر كابوس يتمنى النائم ان يكون كابوسا حتى قبل ان يفيق منه ، تمنيت ، وانا اعـدو على الشاطىء ، ان يكون ماانا فيـه كابوسا افيق منه بعد قليل •

للاسـف ، ماكان كابوسا • النبـاح كان نـذيرا : مات زخريادس ! والطلقة النارية كانت نذيرا : ستموت انت كمـا مات زخريادس ! والليل سرداب مظلم • ركضت في السرداب المظلم • الظلمة تكاثفت • صارت حواجز ، صارت عناكب ، لفت خيوطها السود على عنقي ،على صدري ،على قدمي•تعثرت قدمي • التوى الكاحل•تعفر وجهي• تبلل صدري،خارت قواي، وامتلأ فمي مرارة• نهضت •سقطت •نهضت من جديد،وبرجل واحدة دخلت البحر ، وانطرحت على صدره ، وغصت تحته

باقصى مااستطيع من قوة • عندما خرجت الى السطح ، تنفست مسرعا ، لاهثا ، وغطست ثانية لابتعد عن الشاطىء ، واطمئن الى ان الرصاص الذي توقعت انهماره علي لايطولني •

ظللت اسبح نحو الاعماق • وتخلصت ، لاادري كيف ، من ثيابي • مزقتهـا ؟ انسلخت عني كجلد الافعى ؟ خلعتهـا بنفسي ؟ قد يكون هذا كله حدث • لااعرف سوى انني بت عاريا ، ولم اعد اشعر بالالم في قـدمي ، ووجدتني في المـــاء ورأسي نوقه ، بين طبقتين من ظلمة وماء ، وانا بينهما مدلى ، لااهبط ولا اصعد ، وعلي ، ابدا ، ان احرك ساقي وذراعي ، واراوح مكاني •

هل اخجل مما فعلت ؟ حتى هذه اللحظة ، والى ان اموت، ساظل اخجل • لم اقل هذا لاحد ، حتى ولا لعبعوب •بقيت زمنا لا اقف امام المـرآة ، كان شكلي ، وانا بحجـم الثور ، سبب خجلي • ومرة تندى جسمي بالعرق في عز الشتاء اثـر حادث عابر • كنت اجتاز الطريق ، بين عنابر الميناء والبحر • وكان حمالون يطاردون جرذا ليقتلوه ، والجرذ يهرب منهـم مذعورا ، فلما حاصروه دخل الماء ، وتسلل الى احد المجارير • تذكرت ، فورا ، انني مثله هربت ، ومثله دببت على اربع فوق الشاطىء • لقد احالنـي الخوف الى جرذ • كيف يستحيـل

الثور الى جرذ ؟ تفو ! بصقت على صورتي في المرآة ، خجلي انني بحجم الثور ، وهربت ، تلك الليلة ، مثل الجرذ ، وبقيت في الماء معلقا بين السطح والقاع ، مثل قنديل البحر ، عاريا ، جائعا ، تعبا ، ملاحقا •

لو مرت سفينة والتقطتني ! كم حدث والتقطت المراكب اناسا في البحر على وشك الغرق ؟ من يبعث بتلك المراكب ؟ الله ؟ الشيطان ؟ المصادفة ؟ لماذا تخلىٰ عني الله والشيطان والمصادفة ؟ انا لااخشى الغرق •• استطيع ان اسبح طويلا، وقد بلغت مكانا لايصله الرصاص ولا نباح الكلاب ، ولكن ماذا افعل بعد ذلك ؟ « انتظر يازكريا ! ــ قلت في نفسي ــ انت الآن مثل « الشمندورة » [1] ولابد ان تراك غدا سفينة ما ، او يمر بك مركب او قارب صيد، وقد يحط عليك الرخ [2] فتتعلق برجليه ليحملك الى جزيرة بعيدة ، فيها اشجار واثمار كما في الحكايات •• انتظر ولا تستسلم ، لاتبادل روحك رخيصة بروح زخزيادس • العالم واسع ، واذا التقطتك سفينة تذهب

(١) الشمندورة : تعبير بحري يقصد به الفواشة النحاسية التي تربط بسلك حديدي الى القاع وتظل طافية على وجه البحر كعلامة تحذير للسفن من وجود صخر او مانع يحول بينها وبين الاقتراب من المنطقة •

(٢) الرخ : طير خرافي ورد ذكره في « الف ليلة وليلة » وخاصة في حكايات السندباد •

معها . ستكون نافعاً لها ، وسيحبك القبطان ، فانت بمفردك قادر على تدوير البكرة لرفع الباطر مهما يكن ثقيلا ، وقادر على القيام بعمل اثنين من الرجال ، ومقابل كل ذلك لاتطلب غير الكسوة والطعام ، وربما واتتك الفرصة فعهد اليك القبطان بالصيد لتموين السفينة بالسمك .. عندئذ تظهر شطارتك . واذا طلبك لعمل جسماني شاق ، كأن تحمل برميلا وحدك فسيكتشف انك تغني عن رافعة .. انت ثور كما قال عبعوب، ولكنك الليلة انقلبت الى جرذ .. وزيادة في التكريم صرت شمندورة » .

جعلت انام على ظهري لاسترد بعض قواي ، فاذا استرحت عدت الى وضع الشمندورة التي حسدتها تلك اليلة . انها ، على الاقل ، مسدودة من كل الجهات ، وانا مثقوب من تحت ومن فوق ، انا برميل عائم ولكنه مثقوب ، اذا توقفت رجلاي ويداي عن الحركة غطست ، ثم عمت ، فلا الاعماق تبتلعني ولا السماء تسحبني .

طالت سباحتي على هذا الوضع حتى تمنيت الغرق .. فكرت بيونان الذي ابتلعه الحوت فرجوت ان يأتي الحوت ويبتلعني ، ان يأكلني وحش من وحوش البحر ، ان تصدمني

سفينة وتقتلني ، ان يتلطف عزرائيل بقبض اماتني •• ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، الله والشيطان والحوت وعزرائيل عادوني ، والبحر ، حبيبي ، لم يسعفني ، لم يلهمني الى طريق الخلاص ، ولم يبق الا ان انادي الموت واسترحمه ••صرخت: ياموت ! ياعرص ، ياشريك زخريادس ، انا هنا ، تعال ، اذا كنت جبارا تعال ، اذا كنت قادرا ، اذا كنت ملكا ، اقتلني ، خلصني ، ارحمني • •

شتمته ، حقرته ، فلم يرد علي • هو ايضا وقف ضدي • شارك اللعين زخريادس في عدائي • لو كنت في البر ماناديته• لماذا لايأتي الموت حين نناديه ؟ عزرائيل لايشتغل الا على كيفه• له طبع عبعوب • وانا لي طبع زكريا ، ولكن زكريا الآن شمندورة عائمة ، برميل ، مثقوب ، ومع ذلك لايغرق ، حتى لو غطس تحت الماء لايغرق !

استلقيت على ظهري • استمدت هدوئي • كان وجهي الى اعلى • السماء كثيرة النجوم • السماء ليست عالية ، فلماذالم يخترعوا سلما للصعود اليها ؟ يقولون ان الصالحين يذهبون الى السماء فكيف يصعدون بدون سلم ؟ صالحة ستذهب الى السماء • المسكينة فشلت في الصلاة لاجلي • ذنوبي لايغفرها حتى غفار الذنوب ، وعزرائيل لايريد قبض روحي الابشكل

لائق • انه يختبىء في حبل المشنقة • طيب ، لينتظرني هناك ، سآتيه بنفسي ، وساغني تحتها : « المشنقة مرجوحة الابطال » ثم ارفس الطاولة واتدلى •• انا لااخاف المشنقة ولا اخاف الموت ، ولكني لن اموت بزخريادس وحده ، هذا قراري ولن اتراجع عنه •

دارت « الشمندورة » • عيناي حدقتا في الجهات الاربع • لم اجد ضوءا ولا وجدت دليلا على مرور سفينة او مركب • علي ان انتظر • انتظرت • عدت الى الاستلقاء • نمت على سرير من الماء • راقبت النجوم •• هل الذين فوق يرون الذين تحت ؟ انا لم افعل شيئا للذين فوق ، فلماذا لايرأفون بحالي ويفعلون شيئا لأجلي ؟ كدت اصرخ بهم ثم عدلت • تمنيت لو اني على لوح عريض من خشب،استلقي عليه وأدعه يذهب حيث يشاء •

تغيرت الريح ، صارت غربية • قوي الموج • شعرت بتصب في خاصرتي • لابد من قرار : الى الداخل ام الى الخارج؟ انا لااستطيع اجتياز البحر ، وعلى البر ينتظرونني ، فماذا افعل ياربي ؟ ماذا افعل ياناس ؟ ياامي ! ياامي لماذا ولدتني ؟ ويادنيا ، ياعاهرة ، ياعاهرة العاهرات انت ، ماذا فعلت لك حتى تبلوني هذه البلوى ؟

نبض صدغاي بالم شديد • جف حلقي ودب الارتخاء في جسدي • سبحت قليلا لاستعيد نشاطي فتخدر دماغي وتعذر علي التفكير • صرت اشتهي اليابسة • صار بلوغ اليابسة امنيتي • هان الموت ، وصارت كل اشكاله سواء • لم تعد مغامرة النجاة تستأهل التعب • قلت في نفسي : « مادام الموت لايأتي الي فلأذهب اليه • ساقتل بيدي • اقاوم بدون سلاح ، وهكذا يضطرون الى اطلاق النار علي ، وتقتلني رصاصة فاستريح » •

يممت الشاطىء ، وحين لامست قدماي الارض احسست بالراحة • وقفت في الماء وتنصت • أثرت ضوضاء لاستلفت الانتباه واعرف ماذا كانت الكلاب ترصدني •

لم يكن على الشاطىء احد • لادرك ولا كلاب • لم يكن هناك سواي • كنت وحيدا وجبانا • كان منظري مخجلا • كان شاهدا على جبني وهربي ، وقد لازمتني ذكراه طويلا • سكرت وبكيت ، ثم سكرت وبكيت ، ولم اقل لاحد لماذا اسكر وابكي ، فذلك المشهد في حياتي بقعة حبر على قماش ابيض ، وددت لو لم تكن • تمنيت لو امسحها ، كما يتمنى ربابنة السفن ان يمسحوا من حياتهم لحظة كانوا فيها جبناء •

استأنفت التقدم باتجاه البر فانكشفت عورتي • الماء لايغطي الا الركبتين وانا عار ، كل الناس في البحر عراة ، وعلى البر يلبسون ثيابهم • رأيتهم يضعون أكفهم على عوراتهم ريثما يصلون الى ثيابهم ، وقد فعلت مثلهم عندما كانت لي ثياب • الآن سأضع كفي على عورتي حتى احصل على ثياب • صارت قطعة الثياب عزيزة علي مثل رغيف الخبز • من يقطع واحدا من اصابعي ويعطيني رغيفا ؟ من يقطع اصبعين ويعطيني سروالا ؟

يابحر ! وسمعت خرير الموج • لاشماتة ولا مبالاة • ماكان البحر خسيسا • أنا الذي خلعت ثيابي ، والبحر اخذها • البحر لايترك قذرا فيه • يغيبه فتطمره الرمال في الاعماق ، او يحمله الموج فيقذفه على الشاطىء • كل مابقي ان يفعل هذا معي ، يطويني في جوفه او يلقيني على مزبلته • البحر لايفعل ، لايريد ان يكون خسيسا ، هو يستضيفني ، يسترني يعطيني ، يحفظ سري فلا يبوح به لاحد • البحر لايبوح بسر احد لأحد •

انحنيت فقبلته • فعلت ذلك امتنانا واحتراما • جلست حيث اقف فغمرني الماء الى رقبتي • تفرست في الابعاد فلم ار ضوءا • الصيادون يجهلون هذه المنطقة ، وقد لايجدون فيها رزقهم • لن تمر سفينة ولا مركب ، والظلمة تسترني حتى

الصبح،وفي الصبح اضع كفي على عورتي واتوارى بين الادغال •

غادرت الماء وسرت على الشاطيء • من حسن حظي ان القمر كان غائباً • هذا الفضاح كان غائبا ، وفي وسعه ان يغيب الى الابد ، فليس لي به شأن • لست عاشقا على كل حال ، وفي ايام العشق لم اتعامل معه ، لم أتعامل مع الطبيعة • عشت ولا ادري كيف عشت • الحياة كانت امرأة ، وكان همي نقطة في جسدها ، وقد خانتني ، بصقت علي بعد ان جامعتني ، والقت ثيابي من النافذة وغادرتني ، صارت رجلا حين صرت امرأة •

التجأت الى دغل ونمت • عاريا نمت • هدأت روحي واستكان جسمي وغلبني النعاس • اشرقت الشمس وانا نائم ، فلما صحوت وجدت كلبا بقربي ، يقعي على خلفيته ، خيل الي انه يترصدني •

بغتتني المفاجأة • شلت قدرتي على التميز • سيطرت علي فكرة واحدة : « هذا كلب الدرك ! » وبحركة استعداد للعراك ، انتفضت وجلست ، فاجفل الكلب وولى هاربا وهو ينبح • دخل دغلا مجاورا وتابع نباحه بتقطع ، فيما انا ألتفت ، متوقعا في كل لحظة ، تصويب البنادق الي •

نسيت انني عار • وحين انتبهت ارعبني ان يقبضوا علي على هذا النحو • كان افظع ماتوقعته ، وقلت في نفسي :

« محال ! » قفزت الى قلب الدغل ، غير عابىء بالاشواك التي مزقت جلدي •

اشتد نباح الكلب ، تخافت ، تقطع ، توقف ، ورأيته يدور حولي ،يوصوص بعينيه ويهز ذنبه، ويرسل نبحات كالهمهمة ، كما يفعل كلب الصيد ، حين يسبق صاحبه ويحاصر الفريسة في دغل ، بانتظار اطلاق النار عليها •

الهرب صار مستحيلا ، والدغل ليس متراسا • اذا اطلقوا اصابوني مباشرة • قلت مستقتلا : هيا ، ليفعلوا ! يستطيعون ذلك فليفعلوه ، وليخرجوني جثة هامدة ، أما حيا فلا • الوحش نفسه ، عندما يحاصر ، يلتجىء الى دغل فلا يخرج منه الا قتيلا • يعرف انه حوصر ، وان صياديه يترصدونه • يدرك الموقف بغريزته ، يتحصن حيث لاحصن ، يحاول الاختباء ، يلعق جرحه اذا كان جريحا ، وينتظر •• ومطاردوه ، من خارج الدغل ، ينتظرون • يبحثون عن مقتل طريدتهم ، يتحينون الفرصة ، والدم يتسارع في العروق ، والعيون تلتهب بنار الرغبة ونار الحقد • وفجأة يحسم الموقف : الرصاص ، والوثبة في الفضاء ، ثم الهمود •• انتهت المطاردة !

انتفى الجرذ من تصوري • استعدت ارادتي في المقاومة حتى يحسم الموقف وتنتهي المطاردة • لم ألعق جراحي كما

يفعل الوحش • ولكني مثله كنت محاصـرا ، كنت محكموما بالمـوت ، وقادرا على الوثوب ، في لحظة الاطـلاق ، قبل ان اسقط واهمد • صرت ارتجف ، لامن الخوف ، بل من الترقب والحقد ، وفي تلك اللحظات ، لو القوا الي ، لو اهدوني ، بدل الرصاصة ، واحداً منهم لمزقته ومصصت دمه •

يالرجفة التي تملكتني • احس بها ، الان ، ألماً بغير لذة• وقتها كانت ألماً ولذة • وصـل الموت الي ، لحس وجهـي ، تشممني ، ثم عانقني • بقيت ، طوال لحظات الترقب ، امامـه وجها لوجه • لم اجده مخيفا • مات الخوف ؟ لا ، استعدته ، بعد ذلك ، باشكال مختلفة • في تلك الحالة فارقني ، صرت قادرا ، وقد فارقني الخوف ، أن اخيف بدوري • خاف الموت• تلاقينا وافترقنا ، وفي لحظة انتشيت كمـا في حالة اللذة مـع امرأة • في العراك يموت الانسان دون ان يفكر بالموت •لا يعود شبحا يضربه فلا يستطيع رد الضربة اليه • يتعارك معه ، كما رجل لرجل • كذلك يحدث في المعركة • هذا هو السر في ان المقاتلين يصرخون عند الالتحام بالسلاح الابيض • يفارقهم، عندها ، خوفهم وعقلهم ، ينقلبون الى وحوش •

سـلاحي كان اظافري ، وسلاح المـوت اظافره • كنت متوفزا ، مستنفرا ، محموما ، وجسمي كله في حالة توتر حتى

الانقصاف • كنت اترقب ، بانفعال مجنون ، وصول ذلك الشيء الي ، ذلك المعدن البارد الحار الذي يصل مع التماعة النار فيثقب ويفجر • كنت اريده سريعا داويا ، قاتلا • كنت اتوسل، باختلاجات رهيبة ، ان يحدث ، كما البرق ، لينطفىء كل شيء كما البرق ايضا •

في تلك الحالة التي لاأنساها ، جاءني الموت مواجهة • جاءني على اربع ، وبعيون مفتوحة ولسان مدلوق ، ولهاث كالشخير ، ودخل علي الدغل ، ليخرجني منه ، ويسلمني الى اعدائي •

اغمضت عيني رعبا • كان ذلك سريعا ومروعا ، فلما فتحتهما كنت امسك برأس لاادري كيف انقضضت عليه • فقدت شعوري ربما • كان الجسم يتخبط بين ذراعي، وبوزير في حشرجة ، ومخالب تشرط صدري • كان يحاول التملص، فلما عجز دفع رأسه نحوي في حركة مباغتة فانكفأت على ظهري وانا مقرفص • صار فوقي وسط الدغل والاغصان والشوك ، وراح يضرب بقادمتيه وخلفيتيه ، وينكت جسدي بمخالبه • كان رأسه بين كلابتين من اصابعي ، في وضع لااقوى فيه على التدحرج لاجمله تحتي ، ولا على رفسه بقدمي لانه

على صدري ، وكل نقلة لاي من الكفين المطبقتين على الرأس تعطيه الفرصة للافلات والنهش والتمزيق .

ضغطت جمجمة الكلب باقصى طاقتي . ضغطتها حتى تشنجت الاصابع عليها ، فزاد تلويه ورفسه ، زاد ثقله وعنفه وهريره ، والجمجمة صامدة لاتتقوض لم اسمع طقطقة العظام . رأيت العينين الحمراوين ، الجاحظتين ، المحدقتين بتكالب في وجهي . راح رأسه يضغط للوصول الى عنقي ، ورحت مسندا كوعي على اضلاعه ، اقاوم ضغطه ، واكشر بدوري عن انيابي في اعتصار ماتبقى من عزم .

خطيئتي انني لم اقبض على عنقه . كان كبيرا ، ضخما ، فتيا ، كانت نيوبه بيضاء ، مسنونة ، وهريره زمجرة مخيفة .. بقينا لحظات في وضع شبه ثابت ، وكل منا يحدق في الآخر . انا من تحت وهو من فوق ، ولعابه يسيل ممطوطاً متقاطرا من اللسان الاحمر المتدلي من الفكين العاجزين عن الحركة .

انغرزت مخالبه الخلفية في حقوي ، فاحسست بألم لايطاق ، رفعت يدي اليمنى بخفة ، كورتها ، انهلت بها ضربا على جبهته المتطاولة الباقية في يدي اليسرى . كانت قبضتي مطرقة ، ولم تكن جبهته حديدا .. كانت عظما وكانت قبضتي مطرقة ،

وباذني سمعت تهشم العظم • وفي نفس اللحظة انبعث عواء مقلوب ، وانقذف جسد ساحبا مع اظافره مزقا من لحمي •

اطلقت صرخة كالعواء • هذا ماأذكره جيدا • كان مشهد نيوبه فوق وجهي ، فوق عيني وعنقي ، مرعبا الى حد فقدان العقل • رأيت يوما رجلا عضه كلب مريض • صار مريضا هو الآخر • ربطوه بالحبال • عض الحبال • كاد يقطعها باسنانه والدم يسيل من شفتيه • كانت عيناه جمرتين وصوته عواء مثل صوتي •

انجردت لاجهز عليه مستعملا يدي وقدمي واسناني • حاول هو ان يفعل مثلي • وثب مشرئبا بقادمتيه وانغرزت مخالبه محدثة خدوشا دامية في صدري • فتح شدقيه باستماتة لينهش بطني • كان قادرا ، لو طالني فقط ، ان يخرج امعائي، لكنني ، بمثل استماتته ضربت رأسه بقبضتي الاثنتين ، وبرجلي الحافيتين رفسته في بطنه ، ثم ترنحت ، بفعل رفسة طائشة ، وسقطت فوقه في الدغل • عضضت جسمه بوحشية ، فيما كانت اصابعي تضغط على عنقه ، وظللت كذلك حتى احسست به يتلوى ويتراخى ، ثم يتوثب ، في انتفاضات يائسة ، ويهمد امامي وقد اندلق لسانه ، وخرج الدم من فكيه وعينيه وكل جبهته المشوهة •

لم يطلقوا النار علي • الصيادون لايطلقون على الطريدة اذا كانت في عراك مع كلابهم • انتهى العراك • مات الكلب ولم يطلق احـد • كلب من هذا اذن ؟ واين الـدرك الذين يطاردونني ؟

قرفصت قربه اتفحصـه فتذكرت شدقيه وعينيـه فوقي • تولاني خوف غريب منه وهو ميت • ترى ،لومت انا ، وتذكر هو عيني وسحنتي ، في تلك اللحظة ، اما كان خاف مني ؟

قطفت اوراقا من الدغل وغطيت فكيه وعينيه • ماكنت قادرا ان ارى عينيه • لقد قتلته عامداً قتلته • ووجودي معه كوجود القاتل مع قتيله •ادرت له ظهري لانساه ، ثم تحولت اليه وقد خيل الي انـه يتحرك ليثب علي بجمجمتـه المحطمة وفكيـه المدميين • بعث هذا التخيل رعدة في اوصالي ، فلما عاينته راقدا بغير حراك ، ضحكت على اوهامي •

وبمضي الوقت اخذت الجـروح والخموش تلتهـب في جسمي ، والـدم ينـز ، والتعب يحل • وشعـرت بالجـوع والعري من جديد ، وضاق صدري فصحت مقهورا : « ماذا افعل ياالله !؟ » •

من بين اوراق الدغل نظرت حولي بحذر• سكون • وليس

في الجهات الاربــع احد . لادرك ولا ناس . صــرت ، الآن، أتحاشى الناس كما اتحاشى الدرك . ياالهي، ياربي الرحيم، يارب صالحــة زوجتي ، كيف صيرتني بهذه الحال ، بسبب غلطــة صغيرة ، غلطة ملعونة ، غلطتي عندما ضحك علي زخريادس واخذ الذهب الذي في جوف الحوت ، وعنــدما تصورت ان الذهب في كرشه فبعجته لاخرجه ، لاسترد حقي ثمرة تعبي طوال الليل ؟

ترددت قبل الخروج من الدغل ، ثم ضقت بحالي فقلت في نفسي : « يكفي يازكريا ! » سترت عورتي وخرجت . قدرت ان هيئتي وحدها كافية لادانتي بالقتل ، فالجروح والدماء شاهد احمله على جسمي ، ولن يصدق احد ، حتى ولو اقسمت ، انني قتلت كلبا . مجرم او مجنون ، والاصح مجنون ، مــن اولئك الذين يفقدون عقولهم ، فيتعرون ويتمرغون في التراب، او يعيشون في الكهوف ، باظافرهم الطويلة، وشعورهم المنفوشة .

كان الوقت ضحى ، وانا كالتمثال العاري مزروع بــين الادغال ، ومن فوقي سماء ممسوحة ولامعة . لمبة كبيرة مثل لمبــة العساكر ، موجهــة الي كأنهم يهمــون بتصويري . لو وضعوني عاريا في غرفة واشعلوا الضوء لهشمت اللمبة بقبضتي . ماا عتدت ان يراني احد عاريا حتى ولا صالحة . كانت تقول

لي : « انده لي يازكريا لافرك لك ظهرك » فلا ارد عليها • انا لااخلع ثيابي في الضوء • عيب ، ربنا امر بالسترة • وهاهو يأمر بالفضيحة ، ونكاية بي مسح الغيوم عن السماء،وجعل الشمس عالية بحيث لاتطولها قبضتي •

ظللت عيني ونظرت حولي • الجهات الاربع مسدودة الا من ناحية البحر ، ومن بعيد ، عند الافق ، رايت اطراف المدينة ، مدينتي العاهرة ، ناكرة الجميل • طيب ، قلت في نفسي ، اذا جاءت الحيتان •• ستأتي من غير شك • الحوت الذي ربطته ليس وحيدا • الشيطان الازرق جاء به وراء سفينة ، وسيأتي بأمثاله ، وعندئذ تتذكر مدينتي ان رجال البحر الذين تلحق بهم الاذى والعار هم الذين يحمونها ، وهم ، لااصحاب المراكب والخمارات ، كانوا يستحقون اكرامها لو لم تكن عاهرة •

من الاعماق نار غضبي على المدينة • آه لو كانت تسمع • ماالنفع اذا كنت اشتمها ولا تسمع ؟ وضعت كفي على عورتي • ظلت اليتي عارية • وضعت كفا من امام وكفا من وراء فصارت مشيتي كالاخمع • اخطو متعثرا واسير بتعرج كالخربوش[1] •

---

(١) الخربوش : السرطان •

كان حياتي سخيفا ، غبيـا • كنت غبياً ومشلولا عن التصرف كرجل • مكثت كذلك وقتا ، ثـم غضبت على نفسي فصحت « الى الشيطان بكل حياء الدنيا ! » ورفعت يدي ، ثم ركضت، باقصى سرعتي ، الى البحر ، وارتميت بين احضانه سابحا الى الداخل ، وانا اعض على شفتي من ألم الكي الذي احدثه الملح في الجروح •

تخلصت من الـدماء ولـم اتخلص من الجروح • ظلت آثارها على جسمـي • ماكان في وسعي ازالتهـا ، وماكان في وسعي تجاهل معناها ، ولكنني كنت مضطرا الى مواجهة الواقع • خرجت من الماء وسرت على الشاطيء عساني احظى بخرقـة قذفها الموج استتر بها • فكرت بضفر اغصان مورقة ، اربطها الى وسطي ، ثم تذكرت ان في خيمتي صـرة للخبز حملتهـا شكيبة الي • فرحت بذلك ، لكنني شككت فيه • ماكنت قادرا على حصر افكاري للتأكد • هاجمني صداع عنيف،واحسست بهبوط في قواي وتعاسة ويأس • غامرت بالرجوع الى الخيمة ، عدت ادراجي ، على محاذاة البحر ، متظاهراً بالسباحة لاخدع من يراني •

في الخيمة كانت مفاجأة تنتظرني•وجدت صرة خبزوبصل وتبغ على جانب المدخل • تأثرت بغير حد ، وفرحت كضائع

عثر على اقـدام على الرمل • قلت في نفسي « شكيبـة جاءت اذن ! » هذا واضح من الصرة التي لم تكن عشية امس • ترى كانت ولم ارها ؟ اختلطت علي الأمور كأن البارحة بعيدة مثل الطفولة • الاحداث التي مرت علي شوشت ذهني • في رأسي طنين ، وفي ذاكرتي ضباب ، والجوع الذي كان يمزق احشائي سكت • حل محله غثيان ، وفترت همتي وتفتتت اعصـابي • تكسر جسمي كله ، واخذتني قشعريرة برد ، فحملت الصرة الى الشمس وجربت ان آكل،ان احرك شهيتي لعل الطعام يعيد الي نشاطي ، وبصعوبة بلعت لقمة الخبز الاولى ، وفي الثانيـة تباطأ المضغ ، ولم يسعفني الريق لتبليل اللقمة الثالثة التي فقدت طعمها وتحولت الى شوك في فمي •

افرغت الصرة امامي على العشب،ونفضت قماشتها وألقيتها على كتفي • جلست القرفصاء عاريا ، متكورا • وجـدتني ، بفعل القشعريرة ، الصق صدري بركبتي ، ثم اسند رأسي على ذراعي المتصالبتين فوق الركبتين ، ملتمساً الدفء برغـم وقدة الشمس •

ماذا بقي من مصائب لم ينزلها الله على رأسي ؟ ومالفارق بيني وبين ايوب المبتلـي ؟ والـدي كان يتشبـه بايوب ، وفي

الليالي ، امام المصائب التي كانت تنزل بنا ، كان يحكي ، كالغريق الذي يتعلق بقشة ، حكاية ايوب الذي تعلق بحبل الصبر • يسرد القصة بايمان وورع ، ويعدد البلاوي التي نزلت بايوبه ، وينتهي الى التجربة الاخيرة التي انزلها الرب بعبده الصابر ، وهي تقرح جسمه وتفقيس الدود في القروح• كان ايوب ، اذا سقطت دودة من مكانها ، اعادها الى موضعها قائلا : « كلي يامباركة ! » ومرة كفر جارنا ، بسبب مصيبة حلت به ، فوجد والدي في ذلك فرصة ، وروى حكايته المفضلة ، فصاح الجار : « فلقتنا بايوبك ياابو زكريا ، والله نحن صبرنا اكثر من ايوب نفسه ، ايوب صبر سنة سنتين ، نحن صابرون منذ ولدنا » فانتهره الوالد ، ولكن الحضور كانوا مع جارنا ، وكانت والدتي معه ايضا •

المهم ان والدي الذي لايقصر في الكفر ، كان يستغفر ربه على كفره ، ويخيط قصة ايوب ويفتقها ، ويعتبر مسألةالدود الذي يرعى في قروح الجسم اهم نقطة في القصة • وكنت لااصدق ان رجلا يواجه مصيبة كهذه ويصبر • وفيما انامتكور على بعضي ، عاريا ، مريضا ، عاجزا ، وجدت نفسي صابرا مثل ايوب ، ومثله لاقوة لي على الكفر ، وحتى لو تقيحت جروحي وفقس الدود فلا طاقة لي على نزعه عن القروح ،

ولا طاقة لي ، اذا سقطت دودة ، ان اعيدها الى مكانها • كنت في حال من الاستسلام فقدت معها الاهتمام بعريي وبالناس• وحتى زخريادس غـاب عن بالي ، فـاذا خطر كان سيان موتـه او حياته • ماعدت ابالي بمن في المدينة•الماء وحده صار مطلبي ، وهذا كان بعيدا كالنجم ، عزيزا كالروح ، وصار الاستلقـاء على الارض ، والالتصاق بها كل مايهمني •

نهضت مقوس الظهر ، مهدود الحيل ، وبحثت عن تجويفة في دغل قريب زحفت اليها • وضعت محتويات الصرة قـرب رأسي ، وبقماشها سترت وسطي ، واغمضت عيني كاتما انيني في صدري • لتنزف الجـراح او تكف عن النزف ، وليـأت الدرك او يذهبوا ، ولتهاجمني الوحوش من البر ، او تخرج علي من البحر ، لافرق • اما الجوع والقهر وحرقة الجروح فقد امتصها الالم ، وهذا امتصته الحمى • كان جسمي قـدرا يغلي على نار الفحم • وشيئا فشيئا همدت اعضائي وزايلتني قشعريرة البرد • راح الموقد الذي في داخلي ينتشر في كـل اطرافي ويتركز في الرأس ، ودخلت في غيبوبة معـذبة من النوم واليقظة • افتح عيني فاذكر اين انا ، وفي اللحظة التي استعيد فيها وعيي افقده • تتداخل الصور ، تتفرع ، تمحي وتتوجد • انا في السجن ، وفجأة في الخمارة • زخريادس ،

صالحة ، حارس المنارة ، شكيبة ، رأس صالحة •• انا مع عجوب في البحر • نوء • سفينة تحملني • اين السفينة ؟محفظة الفتاة معي • افتحها واخرج اكواما من النقود•احتار اين اخفي النقود • اعطيها لشكيبة • اواه هذه ليست شكيبة • كلاب • قطيع من الكلاب • اركض • اختفي في دغل • حبال على فراشي • تنقلب الحبال الى افاع • رجل بثياب سود • تخرج أسنانه ، تتحول الى أسماك • دم دم دم •• البنادق تطلق علي• اركض الى البحر • ليس هناك بحر • جدار •• عرس وانا ارقص • صالحة هي العروس وعلى رأسها قبعة كبيرة من القش ، تصير القبعة شوحة ، وترتفع الشوحة وفي فمها افعى، وتتدلى الافعى فوق رأسي وانا اركض تحتها ••

كم دام هذا العذاب ؟ حين فتحت عيني كان ظلام وطين ومخارز • كان جفاف في حلقي ، وجسمي العاري المكور في الدغل تشويه الحمى • كنت كحيوان يموت ، وقد انسحب الى دغل واستسلم للمرض الذي ينهشه من الداخل •

بذلت جهدا لارفع رأسي واستعيد وعيي • تشبثت بلحظات الصحو لافعل شيئا • لامست يدي رغيف الخبز فتناولته وقضمت كسرة صغيرة وانا اتكىء على يدي في وضع جانبي •

كان الفجر المبكر عزائي • قريبا يطلع الضوء • ليأت النهار فقط ، ولتشرق الشمس وتغمرني هذه الحبيبة الدافئة المشعة• منّيت نفسي باشعال النار ، وباصطياد سمكة أشويها ، وعاودني الامل وعزّت علي الحياة وصارت غالية وجميلة•صارت العافية رجائي ، والبحر هواي حتى ليمكنني العيش عمري كله على شاطئه • تراءت لي الغابة كصديقة أليفة • كانت خضراء ، ظليلة ، وكان بيدر الجمر والسمك الفضي وشكيبة هناك ، والنجوم والازهار البرية ، وذلك الوادي الذي يترقرق الماء صافيا في قاعه وتهب النسمات رهوة منعشة على كتفه • فكرت بالعاشقين الصغيرين نحسدتهما • خليان ، لاهموم ولا مطاردة• اخذت الفتاة رأسه بيديها وسألته : « تحبني ؟ » انا لم يأخذ احد رأسي بين يديه ويسألني هذا السؤال • اضعت حياتي سدى، بغير حب ، بغير كلمات كالتي سمعتها • صالحة فعلت كل مايوسعها لاصلاحي • قالت لي : « يازكريا لاتشرب في الخمارات ، تعال الى البيت لنسهر ونتحدث » نبحت في وجهها: « نتحدث عن المجدرة[1] والغسيل؟ » انا اتحدث مع امرأة ؟

ومرة لم نذهب لنتنزه • لم استأجر حنطورا نأتي فيه الى الغابة فتركض صالحة والحقها مثل الفتى والفتاة • كان الحنطور ضروريا فقط لينقلني الى البيت ، حين كنت اسكر

---

(١) المجدرة وجبة تتالف من العدس والبرغل •

وارتمي في باب الخمارة او على الطريق • كانوا يرفعونني مثل كيس الشوندر ، ويلقونني في العربة ويطلبون من السائق ان يوصلني • وكانت صالحة تفتح الباب ولا تقول شيئا • تساعدني على الوصول الى الفراش وتتركني • قالت وكررت القول • بكت ، شكت ، فلم اسمع • كنت قاسيا عليها ، وربما كانت الحياة قاسية علينا ، وتصرفت بكل هذا الاستهتار لكي لاافكر بها مثل الآخرين •

ترى فات الاوان؟ بعد الاربعين لانستطيع ان نبدأ من جديد، كما في الشباب ؟ اعود الى صالحة ، واركع امامها لتلعب بجمتي ، وآتيها بحنطور اجلسها في صدره ، واركب انا بجانب السائق ، ونذهب الى الغابة ، على الرابية فوق الوادي ، وأجمع الحطب بيدرا ، ونشوي السمك ونأكل ، ونتراكض بين الاشجار ؟ لو صار ذلك مرة لقلت لها : « ياصالحة هنا اختبأت ، وهنا رأيت الفتى والفتاة والمحفظة ، وهناك قبعت كالكلب بانتظار الفضلات ، وفي الوادي بكيت على نفسي ، وفي الخيمة بحثت عن خرقة استر بها جسمي •• »

لا ! لن اتحدث عن عريي ، سأدعه سرا ، لن اقول انني دببت كجرذ على اربع ، وان الخوف جعلني اتخلى عن ثيابي واظل معلقا مثل « الشمندورة » بين السطح والقاع ، ثم اخرج من البحر عاريا استر عورتي بكفي • هذه من الاسرار • ومن الاسرار لقاء شكيبة وفعل ذلك الشيء معها على الارض • بطني

تتسع لخصوصياتي ،ومهما جرى فلن اقول ذلك لهاولعبوب.
الصيادون والبحارة ينسون ساعات الشدة والضعف ، واذا ذكروها يبلعونها بصمت . الرجال هكذا يفعلون ، والمرأة لا تتحدث عن عشاقها . البطن بئر عميقة ، والزير قال « يا باطنة كوني وسيعة ! » .

أكلت نصف الرغيف بشهية تتناقص مع كل لقمة . استعدت ذكرياتي وما مر معي بشهية مماثلة . ثم بدأت افقد حلاوات الاشياء ، وتبهت رغبتي فيها . احسست بالبرد . كان ذلك طبيعيا مع الصباح ، وفكرت ان اذهب الى الخيمة ، ولكن الذي منعني ، منذ البدء ، خطر لي فورا . غريزة الوحش المريض كانت غريزتي . لطيت في الدغل ، مستعجلا شروق الشمس . نزعت قماشة الصرة عن وسطي وألقيتها على كتفي، وعندما تحركت ، آلمتني ركبتي التي استعصت على الثني . كانت متورمة ومحمرة من الجروح التي احدثتها مخالب الكلب . حاولت تذكر ما اذا كنت قد سقطت على ساقي فانكسرت ، وجعلت اجسها واتفحصها ، ورأيت ما يشبه البياض تحت الورم الاحمر ، فاستغربت ان تكون الساق ، في ليلة واحدة ، قد تقيحت بهذا الشكل ، وادركت ان الحمى التي اصابتني كانت بسببها ، وقررت ان افقأها بشوكة ، واغسلها بماء البحر حتى ينظف الجرح .

اشرقت الشمس ، ولكن شروقها لم يخفف رعشة البرد في جسدي • تكورت على بعضي ونفخت في صدري • عبث ! اصطكت اسناني ، تفتتت اعصابي وعاودتني الحمى • تمددت مثل القتيل ، وتقلب الرأس يمنة ويسرة ، وبرجلي ويدي خبطت الهواء ، وآخر ما وعيته كان العطش • استشعرت ظمأ شديدا في صدري • كان في صدري قدر يغلي وقد جف • صرخت طالبا الماء • صرخت لان الذين حولي ماكانوا يردون علي • انا اعرفهم • هذا عبعوب ، وهذه صالحة ، وهؤلاء جيراننا وهم ينظرون الي ويبتسمون • اعطاني احدهم تفاحة • تناولتها وقضمت • كانت قرعة لا تفاحة ، ورأيت الدود في داخلها • كانت تعج بالدود •• ولم انجح في تفريغها منه •• ظللت ارى صورا غريبة ، واهذي بكلمات متقطعة • وعلى فترات كنت اصحوواذكر مارأيت،ثماعود الى الغيبوبة والهذيان، وادخل في متاهات واتلفظ بتكلمات لاالبث ان اكررها او انساها- وكان زخريادس والدرك والكلب والمطاردة وصيحات الرعب وأنات الالم تشكل خليطا دائما وشريطا من الصور يكر ولا ينتهي •

في البكور ، ليلة بعد اخرى ، كنت افيق • وكانت الخيمة القريبة مني اول ماافكر فيه ، ولقد هممت بالزحف اليها ولم

افعل • كان تشبثي بالحيـاة يدفعني الى التشبث بالنجـاة • في الخيمة قد يقبضـون علي ، اما وجودي في الدغل فلن يثـير الانتباه ، واذا كان البحر قد لفظ ثيابي على الشاطىء ورأوها فلا بد ان يحسبوني من الغرقى او الفارين في سفينة او مركب • وهكذا يدعونني وشأني • يحفظـون قضيتي وينتهي الامر • اكون متّ في نظرهم • اموت في المدينة واحيا في الغابة • ابدل اسمي واعيش ، واذا لم يعد زوج شكيبة اتزوجها • افر معها وابدأ حياة جديدة ، وكـذلك اعيش حياتين ، وفي الختـام ، اكون قد متّ مرتين •

كـم بقيت على تلك الحال ؟لاساعة معي ولا روزنامـة • ماعرفه انني قضمت ، لقمة بعد اخرى ، كسرات الخبز التي كانت في الصرة ، وكنت ابلل شفتي بالندى الذي على العشب، وظنّي ان فترات الصحو كانت قليلة ، وفي الغيبوبة كنت اطلب الماء فلا يسمعني احد حتى كاد يجف بدني ويصبح قديدا [1]، اما شفتاي فقد تورمتا وتشققتا ، ووهنت قواي فصـرت عاجزا عن الحركة • صار الموت جالسا فوق رأسي ، انفي انشمر [2]، بلغت حد اليأس وعز علي ان اموت غريبا ، مقطوعا ، ملقى في

(١) القديد : اللحم المقدد •

(٢) انشمار الانف ، علامة احتضار المريض في راي عامة الناس •

البرية كالجحش النافق ، تنهش الوحوش والغربان جسمه حتى لايبقى منه سوى قفص العظام •

لكن في اللحظات التي يئست فيها من الشفاء ، وأحسست بالموت يدب في اوصالي ، دب فيها ايضا عزم على التمسك بالحياة والسعي لاجلها بمجهود اخير •

كان ذلك حوالي الظهر ، وكانت الحمى تشويني فرحت اصرخ بكل قواي ، تحاملت على نفسي ، جلست ، تابعت صراخي • كان قويا ، متواصلا ، ثم متقطعا ، خافتا ، وكانت الادغال تدور من حولي ، وتقترب الاشجار وتبتعد ، وتزوغ عيناي ويفتل رأسي ويتلوى ، فاسقط في مكاني ، واتمدد ، والهث فوق العشب اليابس منصتا لكل حركة ، راجيا ان يمر بي احد ، ان تأتي شكيبة وتبحث عني ، ان يهتدي رجال الدرك الي ، ان تشم رائحتي الكلاب وتكتشف مكاني ، ان يخرج صياد من البحر ويعثر علي •

وكان الوهم ، احيانا ، يصور لي اصواتا ، وضجيجا ، وحركة ما ، تتراءى بين الصحو والاغماء وجوه لعيني ، تبتسم او تكشر ، فامد لها يدي ، وانده لها واستجير بها،ولكن واحداً منها لايلتفت،واذ يخيل الي انها تنحني فوقي لتحملني،

تدعني حيث انا وتبتعد ، ثم تغيب كما ظهرت ، او تأخذ وجوها واشكالا غير التي كانت في نفس اللحظة التي تبدت فيها •

ايقنت تلك الظهيرة بالهلاك • وبكل البقية الباقية من ارادة فتحت عيني ورفضت اغماضهما • تماسكت نفسي بمجهـود خارق • حاولت الوقوف ، بل وقفت وخطوت بضع خطوات مترنحا ، ثم قفزت ، على قدم واحدة ، وراحت القدم الاخرى ، التي لاتنثني ، تنجر ورائي والالم سيـخ محمئ ينغرز في الركبـة ويتصاعد منها الى الاحشاء والقلب • فقدت توازني وسقطت ، بقيت منطرحـا ، لاصقـا بالارض حتـى استعـدت وعيـي ، ورحت ازحف الى الماء الذي اعرف انه في طرف الغابة ، قريبا من المكان الذي ترعى فيه شكيبة ابقارها •

زحفت عاريا ومستميتا ، لاابالي بالحجارة ولا الاشواك ، وعندما تعترضني جذوع الشجر ، كنت اتمسك بها ، اعض عليها باسناني ، واسحب جسمي برجلـه المتورمة ، وبهيكلـه الضخم الذي برزت عظامه ، واتوقف قليلا لالتقاط انفاسي ، ثم اتابع ، مصعدا ومنحدرا ، زاحفا ، ممزقا يدي وجسمي •

صار بلوغ الماء كل ماتبقى • ان اضع شفتي عليه واعب حتى ارتوي ، ثم اغمض جفني وادع نفسي للموت • لم اعـد

اصرخ او اشكو • وحين انقلبت على ظهري بدت السماء ضيقة كأنني ارى اليها من قاع بئر • حدقت فيها بعينين فارغتين• صارت السماء عدوتي • بل صارت عداوتها ورحمتها سواء • كانت كالمرأة الغادرة • هذه تقتل او تزدري • وانا لااستطيع قتل السماء ولا ارغب في ازدرائها • من فتحتين في رأسي حدقت فيها صامتا ، ومن فتحة واحدة ، حدقت هي صامتة ، وظل ثأر الجمل المهان عجزا في نظراتي ، ولم يلبث الماء ان تراءى لي كالسراب ، فعضضت على شفتي واستأنفت زحفي كذئب جريح في فلاة •

الاتجاه الذي زحفت فيه كان خطأ ، وفي مثل وضعي كان من الصعب معرفة الاماكن وتحديد موقعها ، وبدلا من الذهاب شرقا مضيت شمالا ، وبقيت ازحف الى « العين » التي صارت عن يميني • كان يجب ان افكر في ذلك واعدل وجهتي ،لولا ان الوهم كان يحمل الي خرير الماء فاظن انني بلغته ، وان اجتياز امتار اخرى سيوصلني اليه ، فاذا اجتزت هذه الامتار ولم اجد الماء ، اغراني الوهم بوجوده على مسافة اخرى ، فأنبطح على صدري ، مفتوح الذراعين ، مكبوب الوجه،لاهثا، مكدودا ، مستسلما لحالة الراحة في المرض او الموت • غير ان الظمأ ، في هذه الحال ، كان يشتد ،والماء يصبح عزيزا

وشهيا ، وكنت كمن ينازع [1] ويجاهد كيلا يفارق الروح قبل رؤية من يحب • صار الماء حبيبي • صار اخي واختي وزوجتي وحياتي • « هذا هو اخوك » قالوا لجارنا الذي طال احتضاره اياما •• فتح عينيه وسمع اخاه يسأل : «كيف حالك يااخي؟» اطبق جفنيه ولم يجب • يكفي ! لفظ الروح بهدوء • رأى الذي كان ينتظر • من يحمل الي طاسة ماء وانا احتضر ؟اموت اذن بلا ماء ؟ هكذا تكون النهاية ؟ أهذا عقابي ؟ •

افزعتني فكرة الموت على هذه الصورة البشعة • خيل الي ان الشوحات تتعقبني في الجـو • والوحوش تقتفي اثري في الغابة ، وانها ستنقض علي في اللحظة التي افارق فيها الحياة ، بل قد تفعل ذلك قبل مفارقتي الحياة ، وبدا لي ان الكون كله تخلى عني ، واني اواجهـه بمفردي ، وان السمـاء والارض لادخل لهما فيما يجري ، فاذا صرعني المرض شهـدتا ، واذا صرعت المرض شهدتا ، وان بلوغ الماء او عدم بلوغه هو الذي سيفصل هذا الصراع الذي وصـل بين الدنيا وبيني الى قمـة التحـــدي •

جسست ذراعي فوجدتها حارة جدا • كنت محموما ولكن

---

(١) يحتضر •

وعيي أصبح تاما • كان صفاء عجيب في نظري الى كل ماحولي، وارادة تتملكني في مواصلة الزحف ، لا لأجل الماء وحده ، بل لملاقاة انسان ما حوله • وحين هممت بذلك ، لاحظت ان ركبتي قد تشققت في موضع الورم ، وان صديدا ينز منهـا ، فواتتني فكرة كنت قد نسيتها : ان افقأ الورم واستخرج القيح! ولما لم يكن معي دبوس ولا مدية، وكانت الشوكة التي استعملتها لاتأتي بفائدة تذكر ، عمدت الى الاغصان اكسرها وابريهـا بأسناني كحربة احاول ان اشرط بها الجلد متحملا في سبيل ذلك ألما حبحب العرق على جبيني • وقد نجحت احدى الحراب في شرط الجلد ، فنفر القيح الممزوج بالدم من الركبة ولوث يدي وصدري • كان ينفر وانا اضغط حوافي الورم ، وكـان الضغط يؤلمني ويلذني ، كنت كمن يحك قرحة في جسده ، وقد اشرق شعور في نفسي بانني نجوت ، وان علي ان انظف الجرح بماء البحر ، واربطه بقماشة حتى احجب عنه الشمس•

ولشدة مرضي وهزالي والجهد الذي بذلته في شق الجلد، والالم الذي تحملته في استخراج القيح ، استشعرت حاجـة ماسة الى الراحة ، الى اغماض العينين وانا جالس في مكـاني ، ورفت هناءة على وجهي لأول مرة منذ ايام ، فاتكأت بظهري على جذع قريب ، ورحت في اغفاءة طويلة لم افق منها الا بعد هبوط الليل •

في صباح اليوم التالي عثرت على الماء • تطلب العثور عليه ساعة واكثر • كلفني جهدا والما ، ولكن مجرد عثوري عليه كان لقية ثمينة • وبخلاف ماكنت اظن ، لم اشرب الا قليلا • انكببت بوجهي على النبع ، ووضعت شفتي على المجرى الصافي، وسرعان ماارتويت منه وعفته • كان طعمه كالخبز الذي بلا ملح • حسبت ان علي ان اتمضمض قبل الشرب ، وقد فعلت ذلك حين غسلت وجهي ، ثم رفعت حفنة من الماء الى فمي ، فلم اجد له نكهة ولا مذاقا ، واسفت لانني لم اجمع كسرات الخبز الباقية في الصرة واربطها الى وسطي او اعلقها في رقبتي•

انسحبت عن النبع وتواريت خلف الادغال • لم اعد ازحف • توكأت على الجذوع القريبة ، وحصلت على عصا من غصن يابس ، وفي بسطة بين الادغال جلست استعيد مامر علي منذ قتلت الكلب وبلغت الخيمة ، حتى عثوري على الصرة والتجائي الى الدغل • كم يوم انقضى على ذلك ؟ ومافعل الله بشكيبة ؟ لماذا لم تعد الي وتبحث عني ؟ ومن يأتيني بالطعام كيلا اموت من الجوع ؟ وكيف احصل على لباس لجسدي العاري ؟ •

الشمس في الضحى • وطراوة الغابة زادها ندى الليل طراوة • عبير الصنوبر المعتاد لاينتشر مع الريح ، فالاكواز

والصمغ والزهور البرية والعصافير تنتظر الدفء • انا ايضا انتظر الدفء • انا عصفور مكسور الجناحين • في صغري كنت اصادف عصفورا يدرج على الارض مكسور الجناح ، فاذا امسكته ملطت رقبته ووضعته في جيبي لاشويه في المساء • وكانت امي تلومني قائلة : « لاتملط رقاب العصافير يازكريا•• للعصفور روح مثل الانسان ، ولا يجوز تعذيبه بهذه الطريقة• اذبحه بشكين اذا كنت تريد اكله • هنا يخفف الله عندطلوع الروح ، والافضل ان تتركه اذا كان صغيرا • دعه يعد الى امه » وكنت اجيبها : « وجدته على الارض مكسور الجناح، فما ذنبي ؟ انا لم اكسر جناحه ؟ » لم اكن ارحم العصافير •• لم اكن افهم لغتها ، واذا جاء الآن وحش او دركي فلن يفهم لغتي ايضا ، سيملط رقبتي هو الآخر ، ولن يكلف خاطره بمداواة جنحي المكسور على طريقة امي •

مع ارتفاع الشمس واشتداد حرارتها زايلني البرد • عادت اعصابي الى التفتت واوصالي الى الارتخاء • فارقتني بهجة الصباح وراجعتني الحمى ، لكنها لم تكن قوية ، واحتياطاً من العطش قمت الى العين فشربت قليلا،ولحسن الحظ وجدت قربها علبة تنك صدئة ، فملأتها وعدت باتجاه الخيمة ، وقد قررت ان انطرح فيها مستسلما للنوم •

لاح البحر اخيرا لناظري • البحر الكبير الحبيب الازرق• حسنا ياصاحبي ، قلت في سري ، انا لم امت ولن اموت • انت لم تقبلني ، لم تساعدني ، ولم تجد لي مخرجا ، وفوق ذلك اخذت ثيابي • اين ذهبت بها ؟ ولماذا لم تقذف بها قريبا ياصديق ؟ لابأس ! لاعتب ولا لوم • ومرة ، حين اشفى ، اعود اليك ولا افارقك •

خوضت في مائه على الرمل • الزبد الابيض خرم قدمي، وعلى المدى ، امامي ، زرقة اليفة ، وطيور بيض ، وسحب رقيقة ، وفلائك صيد بعيدة لو تراني للوّحت لها بيدي : «ايه! انتم ، يااصحابي ، يارفاق البحر ، كيف الصيد معكم اليوم ؟ اتمنى لكم حظا طيبا ، وشباكا ملأى بقطع الفضة الكبيرة • اعملوا بهمة لتربحوا مايكفيكم • وحين تسحبون شباككم ، وتجمعون الخير في سلالكم وتمضون الى مدينتنا سلموا لي عليها • قولوا لها انها عاهرة • وانني احبها ولو كانت عاهرة ، لانني لاستطيع غير ذلك • وفي المساء اذهبوا واشربوا قليلا • دخنوا ، واسكروا ، واركبوا اليونانية ام زخريادس • اذامات ابنها فلا بد ان تأخذ مكانه في الخمارة • يحلو الشرب عندئذ، ويحلو الحلال والحرام ، ولكن سكين (البسطرمة) اللعينة ستكون على الطاولة فلا تقربوها • واذا صادفتم عبعوب ، هذا

العرص الذي لم يسأل عني ، قولوا له ان يأتيني بثياب وبطانية «وبطحة» وطعام • قولوا له أن يأتي ياخواني كرامة لله، وكرامة لصداقة البحر والخبز والملح ، كرامة لزكريا الذي ربط لكم الحوت واخرجه من الماء وشقه وشوى لكم كبده ، ام تراكم نسيتم زكريا ودفنتموه وهو حي ياولاد الزانية ؟ »

بلغت الخيمة ودخلتها كمن يدخل بيتا هجره طويلا • لم افتح النوافذ ولا مسحت الغبار ، وعلى السرير لم استلق او اذهب الى المطبخ لاعد فنجانا من القهوة • كانت خيمتي وكرا، وكنت كالحيوان المنسحب اعياء الى وكره ، وهو ينظر باتجاه الباب ، في توقع للخطر المتربص بالمدخل ••

وجدت راحة وعزاء • كانت الخيمة بيتي على كل حال• كانت صغيرة ، مستطيلة ، فارغة ، كئيبة ، ولكنها كانت بيتي • احسست بالالفة والطمأنينة كأني عائد من سفر بعيد ، وفكرت تواً بتقصيري • كان علي ان افرش ارض الخيمة بالعشب ، ان اضع على سقفها وجوانبها مزيدا من الاغصان المورقة، ومن اصداف البحر اشك قلائد اعلقها على الجدران ، وآتي من الغابة بقطعة جذع اجعلها كرسيا ، واضفر الاغصان طاولة صغيرة •• كان علي ان افعل هذا قبل اليوم ، ولكن الوقت لم يفت بعد •• حين اشفى سأعوض • ازين خيمتي ، بيتي •• ثم ، ذات يوم ، حين أحصل على منشار ومسامير وعدة ، أقطع ألواحاً من

الخشب واصنع فلوكة •• هكذا اعود الى البحر • امضي على صفحته في الصباح والمساء ، اعطيه نفسي واقول : « خذني اليك • اغسلني من خطاياي • تقبّل توبتي ، تقبلها !•• »

وسيتقبل البحر توبتي ويقبلني • هو يقبل الجميع ، الخطاة والصالحين • له شرط واحد : ان يكونوا شجعانا • وقد كنت شجاعا • تجرأت عليه ، انتزعت سمكته الكبيرة تلك ، واعطيت احشاءها لزخريادس • وقد عاقبني على فعلتي ، وتحملتها •• لم اشتمه عليها ، ربما عاتبته ، ولكنني لم اشتمه ، انا لااشتم حبيبي •

وحين تصير لدي فلوكة ، وشبكة وصنانير ، انتقل من الخيمة الى بيت حقيقي • ابنيه في قلب الغابة ، في فسحة كبيرة بين الاشجار • اجعله من الاخشاب ، وله حديقة ، ازرع فيها بعض الخضار وشجيرات التبغ • وسأبني موقدا كبيرا ، واجمع في الصيف الاحطاب للشتاء • ولكن لماذا اجمع الاحطاب ؟هي كثيرة في الغابة ، والغابة كريمة • الغابة مثل البحر تعطي من يطلب منها ، وانا سأطلب منها • سأقول لها : « ياغابتي ، يارفيقتي ، انت بيتي ، وفي الاخير قبري • لن اهجرك وارجع الى مدينتي العاهرة • صحيح انا كهل ، ولكني قوي • جدي ماتت زوجته في مثل سني ، فتزوج وبنى عائلة من زوجته

الجديدة • انجب اولادا ومنهم والدي • أحب زوجته الاخيرة ودللها • عرف قيمتها • انا سأعرف قيمتك ، مثل زوجة جدي الثانية سأعرف قيمتك •

ويوماً بعد يوم ، وعاما بعد عام ، ينسونني في المدينة • الى جهنم كلهم • لينسوني • هـذا ماأريده • انساهم انا ايضـا • ابدل اسمي • اصبح ؟ ماذا اصبح ؟ ساجد اسماً مناسبا ، وفي قرية ماادفع بعض المال للمختـار فيعطيني هوية • هو عندئـذ يختار اسمي • آخذ اسم رجل مات ، رجل هاجر او فقد ولم يشطب قيده • كل شيء يصير بالفلوس • افهم بهذه المسائل • ساجعل دماغي يشتغل بعد الآن ، وسأشتغل بكل قواي • ولن اسرق ولن اقتل •• سأصطاد •• سأجعل النجوم تنعس ولا انعس • اصطاد كميات من السمك وابيعها • اذهب الى القرى فابيعها • واذهب الى ذلك المكان في الغابة ، حيث يأتي الأوادم للنزهة ، فابيع سمكي • لن اساوم اول الامر • ادعهم يستغلون وضعي • اقدم لهم صيدي وارضى بما يدفعون • ابادله بثياب وتبغ وخبز في اول ضيعة اصلها •

بعد ذلك تتحسن اموري • اصطاد وابيع واقتصد •اشتري حاجياتي من ابعد القرى • لاادخل قريـة مرتين حتى لاالفت النظر ، وبعد سنوات لايسألني احـد من انت • أنا هو أنا •

انظروا الهوية • وداعا يازكريا •• مات زكريا • الافضل ان يموت • سادفنه بغير اسف ، ومعه ادفن كل علاقة بالمدينة ، ومثل جدي ، بعد زوجته الاولى ، أبـدأ من جديد بزوجـة جديدة • الغابة زوجتي ، ومعها اعيش • الغابة ليست لاحد ، وحتى لو كانت فماذا يضير صاحبها ان آخذ قطعة صغيرة منها؟ ان ابني بيتا وانشيء حديقـة وازرع فاكهـة واربي الارانب والدجاج ؟ ساقول له : « اسمع ياصاحبي ! لااحد يستطيـع ان يأخذ الدنيا معه • سنتركها جميعا ونموت ، وانا كهل ، والموت قريب من الكهول ، وعلى الشكل الذي تريد اكتب لك سندا اقول فيه ان كل ماأملك يخصك بعد موتي • ولا اثقـل عليك بدفني • قد لايعلم احد بموتي ، وقد لاادفن في الارض بل تأكلني الكلاب ، واذا صادف وعلمت بموتي قبل ان تأكلني، فاربط جثتي بحجر والقها في البحر » وسيشفق علي صاحـب الغابة ويقول : « نعم ياصاحبي لااحد يأخذ الدنيا معه • اقـم في هذه الارض ، واعمـرها جيـدا » ولكن قد يكون نـذلا ويعارض ! عندئذ أبقى بالقوة ، اغير لهجتي معه • لابـد من تغير اللهجة احيانا • أفعل مثل الراهب الذي كان يسوق دابة محملة الى الدير ، فخرج عليه قطاع الطريق يريدون تخليصه الحمل • كلمهم بالحسنى : « الحمـل للدير ، وانا مسـؤول عنه • الراهب قديس ولا يجوز الاعتداء على القديسين » فلم

يفهموا عليه . عندئذ قفز الى وراء صخرة ، وصاح وهو يضع غطاء رأسه على الارض : « اقعد ياقديس وانهض ياابليس !» وسحب مسدسه واطلق النار .. انا والحمد لله لم اكن قديسا يوما ، وليس على رأسي شيء لاضعه ، انا ساطلق النار بغير اذن من احد ، ساقتل صاحب الارض كما قتلت زخريادس . نعم سافعل هذا مضطرا ومرتاحا . لماذا اذن لايكون لي مكان في هذا العالم ؟ ولماذا لاأستطيع حتى في هذه الغابة ، ان يكون لي شبر من الارض ؟

توترت اعصابي وعاودني الغضب . كنت مستلقيا في الخيمة وقد انهكني المرض ، وبعد ان استسلمت الى الافكار الحلـوة هاجمتني الافكار السيئة .. شعرت باعتكار مزاجي فجأة .

زحفت خارج الخيمة ونظرت في البحر الرحيب يتمـوج عليه شعاع الشمس . كانت تتصاعد من لجته اغنية لايسمعهـا سواي ، ترقص عليها النوارس البيض فوق الامواج . ذبـت حنينا الى معاودة الصيد ورؤية شكيبة ومعرفة اخبار البلـد . اشتاقت نفسي الى السير في الغابة وشيّ السمك واشعال سيكارة مع فنجان قهوة . بل تجرأت فتمنيت لو اضاجع امرأة .. نعم تمنيت ذلك ..

ثقل رأسي شيئا فشيئا • لم تعاودني الحمى ولكن فتورا طرأ على همتي • كنت بحاجة الى شيء ساخن ولو كان ماء• حلمت بفراش ووسادة، وبانسان ابادله الحديث • وتراءت لي صالحة فتحسرت على ايامي معها • ماذا تفعل صالحة الآن؟ بماذا تفكر ؟ لماذا لم تبعث باحد للبحث عني ؟ لماذا لم تأت هي؟ وماذ تدبر من أجلي ؟ وماذا قال الآخرون ؟ وهل مات زخريادس ؟

الاسئلة ذاتها • تذهب وتجيء ، تتكرر وتتكرر ، تكبر وتصغر ورأسي قفير نحل •• مدينتي العاهرة لايأتي منها جواب • وهذا المرض ! عد يازكريا الى الخيمة • لسوف تشفى لانه يجب أن تشفى • ربك اخذك اسيرا ، والاسير لايقتل • اذا كان جريحا يداوى حتى يشفى ، ثم يعذب حتى يموت •• وانت ستشفى لانك ستعذب • ربك يحبك يازكريا، والدرك يحبونك ، ولا احد يرضى لك بميتة كلاب في برية، يريدونها ميتة اصوليةبطبل وزمر،وفي ساحة المدينة،وسيعقدون لك ربطة جميلة في عنقك • انت لم تضع ابدا ربطة في عنقك، والحبل سيكون ربطة جميلة • وستأتي اليونانية ام زخريادس لتفرج عليك ، ومن تشفيها ستفتح خمارتها وساقيها طوال الليل •• العاهرة ستفتح خمارتها وساقيها طوال الليل !

عدت الى الخيمة • استلقيت وبكيت من القهر • يجب أن افعل شيئا ، وانا مريض وجائع وعار ولا قدرة لي على فعل شيء • الغيبوبة التي لازمتني ايام الحمى انقلبت الى يقظة مهلوسة فجفاني النوم • صار رأسي الفارغ يئز كالجرة التي تصفر فيها الريح ••

جربت الغناء • غنيت بصمت • تكلمت مع نفسي التي صرت اشفق عليها واحبها ، ثم جاء النوم كمسحة الزيت على الجبين ، ولم افق الا عصرا ، وكان العصر لطيفا ، واي شيء بعد ذلك المرض ، لم يكن لطيفا ؟ لن اموت اذن ؟ ومرة اخرى ، بعد يوم او ايام ، انهض على قدمي ؟ اعود زكريا المرسنلي الذي كان ؟ لا ، ليس هو تماما • لااريد ذلك ، ولو اردت فلن اكون • لكي اتقوى سآكل كثيرا • اقتلع المحار واسلقه • اقتلع « الباطلينز » [1] عن الصخور •

الشمس تنحدر نحو الافق ، والظلال تستطيل ، وليلة اخرى تأتي •• هي افضل من الليلة الفائتة ، لاني في خيمة لا في العراء ، ولأني اعيش ، اعي ماحولي ، ورأسي غير محموم ، والالم زايلني •• هذه نعمة كبيرة وانا اقدرها •

---

(١) الباطلينز حيوان بحري ذو صدفة مقعرة •

شعوري بهذه الحال اراحني ، ولكيلا افسدها اوقفت التفكير بالماضي • حصرته بما ينفعني قليلا ، بالتفكير في طريقة احصل فيها على طعام ••

البحر تحت الصخرة مكان نافع للصيد • لو حصلت على قليل من الخبـز للعلف وطعوم للصنارة لكـان في وسعي ان اتحامل على نفسي واجرب الصيد • كان البحر يعطيني ولو سمكات صغيرة لاسكات جوعي • انا جائع يارب ، ولا بد ان اسعى الى مايسند قلبي قبل هبوط الليل ، لابد ان امضغ شيئـا ولو كان عشبا او جذورا • لقد نجوت من المرض ولا يعقل ان اموت من الجوع •• من المستحيل انتظار ليلة اخرى كاملة ، وربما نهار آخر كامل ، فقد تنهار قواي ولا أقوى على الزحف خارج الخيمة •

ماذا تنفع الحسرة ؟ كان الماء كل شيء ولاجله زحفت • لاجله اضعت كسرات الخبز التي لم اربطها الى عنقي • كانت كنزي واضعته ، وكدت اجن بسببه • فكرت فيه كأنه صندوق مليء بالذهب ، كأنه كنز حقيقي فقدته ونفدت معه قدرتي على الصبر حتى اعثر عليه ، وكان العثور على تلك البقايا من الخبز ، يكلفني جهدا وألماً لاطاقة لي على احتمالهما • ولكن الجـوع كافر ، مميت ، ولا طاقة لي على احتماله ايضا • جوعي وحش

يأكلني • كان نائما واستيقظ ليأكلني • الدود في بطني افاع تلسع ، ولها اظافر كالتماسيح تمزق ، والالم سكاكين •• ويارب اموت كالكلب من الجوع بعد ان نجوت من الموت مثله ؟ ترضى انت لعبدك ، لمخلوقك ، لانسان تحت الشدة ، ان تقتله الشدة ، ولا تمد له يد العون ؟ لاترسل له طعاما ،ولا انسانا ، ولا تغيثه ، وتقطعه ، وانت كما قال والدي ، لاتقطع دودة على صخر ؟

«أنا كنت دودةعلى صخر • كنت مقطوعاوجائعاً• لماكن مثلك يابني • انت في السجن ، يقدمون لك الطعام • تناول طعامك وانس انك في السجن • وحتى لو شنقوك سيطعمونك قبل الشنق • لن تموت جائعا ، ولا مريضا ، ولا عاريا ولا منبوذافي الفلاة مثلي » •

هان عذاب الحمى عند عذاب الجوع • كنت غائبا عن الوعي ، أهذي ، اصرخ ، اتقلب ، ولا احس بذلك ، ولا اتألم منه ، ولو أني ، الساعة ، الليلة ، عدت الى الغيبوبة ، لاسترحت من الاحساس بالجوع الذي يفري امعائي •ولو عاودتني الحمى ، واخذتني ، لأراحتني من عذاب طال ، وصار ، الان ، ظلمة في عيني ، برغم الشمس المحرقة ، الذاهبة لتنام في البحر •

اضطررت الى الزحف خارج الخيمة • جرجرت نفسي

بحثا عن كسرات الخبز التي اضعتها • فعلت ذلـك بوعي او بدونه ، لاادري •• صرت خارج الخيمة ، بين الادغال ، وفي سباق مع الليل •

لكن الدغل الذي نمت فيه ضاع • رأيتــه في الحلم ؟ في غيبوبة الحمى ؟ كان وهما ؟ كسرات الخبز كانت وهما ايضا ؟ أكلتها الكلاب ؟ الطيور ؟ من يدري •• اذا دار الرأس دارت الـدنيا ، اختلطت وغامت ، دار رأسي ، والدنيـا من حولي ، وبصعوبــة ، بصعوبة كبــيرة ، زحفت ثانيــة باتجاه الخيمــة ، مستسلما الى مصيري السيء •

ولكن ماان صرت قبالة البحر ، وشممت رائحته الحريفة المثيرة ، حتى تشهت عروقي واستيقظت حواسي • راجعني أمل في العثور ولو على سمكة ميتة مقذوفة على الشاطيء •

عـارياً كنت ، وعاريا جلست على الرمل المبلـل ، وعاريا دبت على اربــع فوقه ، الى الشمــال والجنوب ، ولـم اعثر على شيء •

فكرت : « اعود الى الادغال وارعى العشب ؟ انزل البحر واسبح كحوت ، فاتحا فمي في الماء ، لعل سمكة تدخل فيه ؟ ابحث عن عوه اسننه وافقأ به ورم ركبتي التي عاد القيح الى

التجمع فيها واصبح ينخرها كمخرز ؟ •• ، فكرت كثيرا والشمس تنحدر ، والليل قريب ، وانا عار ، جائع ، مريض، ووصلت في التفكير الى حد مرعب ، دنيء ، حيواني ، مقرف وبشع ، لايصدقه احد لو قلته يوما • محال ان اكون انا في تلك الحال ، قد صرت على ذلك الوضع من دناءة النفس •

« اتدرين ياصالحة بماذا فكرت ؟ بذلك الكلب الذي قتلته في الدغل • ليس بالكلب بل بجثته ، بجيفته ، وقلت امضي وانهش منها مايسكت جوعي ويبقي حياتي الى الغد •• ثم تصورت تلك الجيفة وقد علتها الديدان ، وتفسخت واندلقت احشاؤها ونتنت ، وبرغم هذا التصور قررت ان امضي اليها وآكل منها ، اذا كان قد بقي فيها شيء » •

ماأفظع ذلك! حتى البهيم لايفكر في ذلك وانا فكرت فيه، لكي لااموت فكرت فيه ، لاجل الحياة ، هذه الحبيبة ، هذه النذلة ، مذلة الرجال ، فكرت ، ولكني لم اكمل •• خفت من الجيفة ، من عينيها لامن نتنها •• كانت نظرة الكلب الميت التي رأيتها مخيفة اكثر من الخوف ، وخيل الي انه مازال حيا ، ولم يمت كما تصورت ، وانه جريح في الدغل ، ينتظرني لينتقم مني ، ليثأر من غدري •• لقد غدرت به ، كما غدرت بالسمكة وزخريادس •• ولكن زخريادس هو الذي غدر بي ، ضحك

علي ، واخذ الذهب الذي كان في جوف الحوت ، وحتى لو لم يأخذه فقد قتلته لاجله ، اما الكلب فقد قتلتـه دون ان يسيء الي .. خوفي هو الذي اساء الي .

خارت قواي فتوقفت . عجزت ، خفت ، قرفت . الشمس تغرب وانا اعود الى البحر ، الى خيمتي ، والحمى تعاودني ، وقريبا يغمى علي ، وفقط لو أصل الخيمة قبل ان يغمى علي .

جلست على العشب لاعاين ركبتي التي اشتد ألمها .. كانت متورمة ، حمراء داكنة ، وقد تحدب الجلد ، في مخرج القيح الذي انسد ولم يعد ينز . اخذت الركبة بين راحتي ، وبابهامي ضغطت على حدبة الورم وانا اصر على اسناني من الألم . نز ماء اصفر ودم . اعدت المحاولة ثانية وثالثة بغير جدوى . وبدلا من ان يثنيني الالم استثارني . حككت الجلد باظافري الطويلة فاحدث ذلك رعشة في بدني . كان تحت الجلد شيء يريد ان يخرج ، ولكنه عميق ، يحتاج الى سكين لتفتح له مجرى .

لاحيلة في الامر ، فالسكين التي يستعملونها في حينا لهذه الامور تكون حادة ، مثل موسى الحلاق ، وانا لااطمع في طبابة من هذا النوع . تكفيني شفرة او قطعة تنك في الوقت الحاضر . اريد ان اشرط الجلد ، ابعجه بغير رحمة ، أشطبه كما يفعلون

بالوجوه في بلاد السنغال ، لعل ذلك يساعد على خروج القيح والدم والماء الاصفر الذي تحته •

لماذا الانتظار واستجداء السماء اكثر مما فعلت ؟ اصبح الالم لايطاق • الزحف على الركبة اوجعها ، واذا لم اسكت الجوع فلأسكت الألم على الاقل ، والقصبة تقوم مقام السكين• أبريها بأسناني ، وابعج بها ركبتي حتى يخرج القيح او تخرج الروح •

لم اضع الوقت • قريبا من الصخرة كانت شجيرات قصب، وكان نقيق الضفادع فيها يؤنسني ، ومن هذه الشجيرات اخذت مرة قصبة للصيد ، وآخذ هذه المرة سكيناً ، ومن يدري ، لعلي آخذ قلما للكتابة حين اتعلمها في المستقبل ! •

سخرت من نفسي ووضعي • المهزلة التي كنت فيها صيّرتني من فرط الوهن والمرارة ساخرا ، مكابرا ، عنيدا • هيجتني الى درجة حز رقبتي بسكين القصب اذا لم استطع ان اشرط بها جلدي •

كنت قد رأيت كيف تبرى اقلام القصب ، وكيف توضع مع الدواة في زنار الكاتب • ولو كان لي قلم منها ، او صنعت واحدا منها لشرطت جلد الركبة بسهولة •

لم اتوفق الى مثل هذا القلم • أتلفت عدة قصبات • ادميت شفتي ولثتي ولم احصــل الا على قطع من القصب المكســور لاتساوي شيئا ولا تصلح لشرط الجلد او حز الرقبة •

مع ذلك شرطت بها جلدي • مزقته • عاديته كأنه ليس جلدي • جلد البغل يعامل بغير هذه المعاملة • شاهدت جارنا يعالج بغله مرة • انا لااعالج بغلا • لست صاحب بغـل • انا لست صاحبك يازكريا ، يابغلا تعيسا اكثر من كل البغال •

عيناي جحظتا من الالم الذي هيّجني وانا اغرز القصبة في الجلد ، واحفر بها ثقبا في الركبة،وسعته وعصرته حتى خرج الدم اكثر من القيح • ظللت اعصر بغير رحمة ، بشراســة ، حتى ازيل الورم ، واقوى على السير •• ثم انبطحت وانا اعض العشب ، واضرب برجلي السليمة الارض •

وحين ارتد عقلي الى رأسي ، قفزت برجل واحــدة الى البحر فسقطت بعــد ثلاث او اربــع قفزات •• نهضت ثانيــة وقفزت • بلغت الماء فغمست ركبتي لاكويها بالملح ، وبعد ذلك نظفتهــا • غسلت وجهي من العــرق ، وتراجعت الى الرمــل فجلست التقط انفاسي ، واستمتع بالراحة مغمض العينين •

تذكرت « الباطلينز » الذي يعلق على الصخور • كانت

الصخرة قريبــة ، وهنــاك صخور اخرى متفرقــة ، وقلت في نفسي اذا وجدت منه شيئا آكله نيئا•الباطلينز افضل من الجيفة على كــل حال • لقــد احتقرتــه وانا اصياد • احببتــه لكنني احتقرتــه •• لم اجمعــه الا وانا فتى ، كنت اسلقه واتبلــه واسكر عليه •

تطلعت صوب الصخور بأمل الخائف الملهوف • اذا لــم اجد عليها « الباطلينز » فلن اجد طعاما • يخيب الرجاء عندئذ وانسحب الى الخيمة لادفن فيها نفسي وجوعي الى الصباح • آه ياربي ، اجعــل الباطلينز دودا على صخر ، ورزقا لهــذا الطير المريض على الصخر • ليكن الباطلينز كبيرا او صغيرا ، بحجم حبــة الحمص او البرغوث •• يكفي ان اضــع شيئا في فمي يسكت الآلام التي في معدتي •

مضيت الى الصخور تسبقني نظرات طير في الجو يبحث عن الزواحف في الارض • انا اعرف كيف يكون الباطلينز ، هذه الاصداف الداكنة ، المبرقشة اللاصقة بالصخور • الحيوانات الصغيرة الخائفــة ، التي تنغرز اذا مست فلا تقلــع الا برأس سكين او مفك براغي • اعرفها عن بعد ، ولن اتعب في العثور عليها اذا كانت موجودة •

اطللت من فوق الصخر فلم اجد شيئا منها • كان المد قد بدأ وغمر الماء جـذور الصخور • وكان الموج ، حـين يأتي ، يزيد في غمرها • هو ايضا لعب لعبته بي ، وربما لم يفطن الى وجودي وحالتي • لكنني ، عند انحساره ، رأيت بعضا منها • كانت مدورة ، كبيرة،مجوفة كفلقة الجوزة • ولفرط سروري تدليت من الصخر فارتطمت الركبة على نتوئه وانفجر الالم • عضضت على شفتي،وانتظرت حتى انحسرت الموجة فانقضضت باظافري على اقرب باطلينزة وانتزعتها • ألقيتها في فمي ، ثم انتزعت ثانيـة وثالثة حتى امتلأ الفم بالاصـداف وانا ارتجف لشدة الانفعال •

كورت حفنتي وبصقت الباطلينزات فيها • كانت حيواناتها قد انكمشت في جوفهـا فاستخرجتهـا باسناني والتهمتهـا نتفا صغيرة لم اتوصل الى مضغها باضراسي لانزلاقها في الحلق • كان هذا يكلفني وقتا ، فصرت القي الباطلينزات على الرمل ، وارسل اظافري الطويلة على الصخر لاقلع غيرها ، وقد سال الدم من رؤوس اصابعي ، وانسلخ الجلد حول الاظافر ، لكن شيئا ماكان قادرا على ايقافي ، وعندما استعصى علي اقتـلاع بعض الباطلينزات نهشتها باسناني ، وجاء الموج فغمر رأسي ، لكنني لم ادع صيدي • كنت قادرا ان اقتلع الحبة منها مـع

الحجر والحشائش التي تحتها ، ولم افكر بالخروج من الماء للبحث عن قطعة حديد او تنك لاستخدامها بدل اظافري واسناني • لم اكترث للدم ، ولا للجروح في اصابعي ولثتي وشفتي • الليل يقترب ، والمد يزداد ، وعلي ان اسرع ، ان اجمع اكبر كمية ممكنة ، ولو كان بامكاني أن اخرج الصخر الى اليابسة لفعلت ، وعندئذ كنت اتمهل واختار ، ولكن ذلك مستحيل • رحت اقلع الباطلينز باظافري واسناني ، وسط الموج والزبد • عملت باقصى السرعة والطاقة ، كذئب ينهش مااستطاع من خروف افترسه،قبل ان يدركه الذين يطاردونه•

وفي فورة هيجاني نسيت ركبتي والورم الذي فيها • لم اعد اشعر بالالم ، ولعله اكتوى او زال • وكان الملح يحرق عيني ، وتعفر شعري بحشائش الصخر ، واضناني العراك معه، فوهنت قواي وترنحت امام عصف الموج وكدت ارتطم بالصخر، فدببت على اربع وخرجت من الماء ، واستلقيت على الرمل ، قرب حبات الباطلينز التي رحت اجمعها مهووسا من الخوف ان يجرفها الموج ويعيدها الى البحر •

اكلتها كلها حية • الحيوانات البحرية الصغيرة التي كانت فيها مزقتها نتفا باسناني وبلعتها • لم احس باني اكلت شيئا • كانت قليلة لو وضعتها في راحة يدي لما ملأتها • ومع ذلك

شعرت بغثيان ، فقعدت على الرمل لينشف جلدي • خطر لي ان اتمرغ في الرمل اليابس كما يفعل المستحمون ، ولم افعل لئلا يدخل الرمل في جلد الركبة الممزق • كانت نسمات مسائية لطيفة تهب ، ولكن ضعفي جعلني اتململ بردا فقمت الى الخيمة ، وطمرت بعض انحاء جسمي بالقش الموجود فيها ، واخرجت رأسي ورحت اراقب الشمس وهي تغطس في البحر ، قرصا كبيرا ، قانيا ، من حوله غيوم بلون الورد الجوري •

كان يطيب لعبوب ان يراقب قرص الشمس وهو يغطس في البحر • يشير الي ان اسكت ولا آتي بحركة حتى لاتنقز الشمس وتغطس بسرعة • ضحكت على عقله ولم اصدق • قلت له : « كيف ترانا او تسمعنا ؟ » ياربي كم كان يبدو غريبا ابن الملعونة في بعض الاحيان ؟ يتصرف كمجذوب ، كمن اخذ شفطة حشيش وانسطل • أكون بحاجة الى الحديث معه وينسطل ، لايتكلم ولا يريدني ان اتكلم • لماذا ؟ الشيطان وحده يعرف • يقول انه يتأمل ويفكر • يقول ان الشمس امرأة ، وانها تتعرى وقت المغيب ، قبل ان تغطس في البحر ، وانه يراقبها ،فاذا شعرت به خجلت من عريها وغطست بسرعة ، تركته وذهبت قبل أن يشبع منها •

طيب ! لماذا لااستطيع ، انا ايضا ، ان اتخيل الشمس

امرأة ؟ ربما لاشهية لي بسبب المرض • ثم هذه الشمس ليست امرأة • خيالي لايساعدني على تصورها امرأة • قرص احمر يغطس في الماء •• غطس نصفه ، ثلاثة ارباعه ، كله ، غاب •• تركني وغاب • الافق ورد جوري ، ونجوم ، والليل يهبط ، ونقيق الضفادع يبدأ ، وستعوي الوحوش بعد قليل ، وتنبح الكلاب •

حل الغثيان محل الجوع • انقلبت امعائي • جسست رأسي فكان باردا • حاولت ان اقيء فلم افلح • جلست في الخيمة واسندت ظهري الى جدارها • كففت عن الحركة دقائق لعل معدتي تركز قليلا • خرجت فاشعلت نارا صغيرة وراء الصخر وسخنت الماء في علبة التنك التي حملتها معي من النبع•

ماطيب النار ! غدا اشعل اكواما من حطب الغابة • اذا لم تصرعني الحمى واستطعت النهوض ساشعل اكواما من حطب الغابة • ناري صغيرة الليلة ، مخبأة وراء صخرة • في قصة الزير سالم ان جساس فرض على قوم الزير الا يشعلوا نارا ولا يستقبلوا زوارا • صاروا يشعلونها في الخفاء ، تحت الاغطية • اليمامة نفسها اشعلتها تحت غطاء • كان عمها الزير جريحا ومشردا • كان عند الملك حكمون ، يسوس الخيل

ويركب الحيطان ويدق عليها برجليه فيدمي كعبيه. كان مثلي، مريضا ، وغريبا ، ولكنهم ، بعد ذلك ، افتقدوه • عند الشدة افتقدوه ، وانا سيفتقدونني يوما •

لم ادع الماء يغلي في العلبة الصدئة لئلا ينقشر الصدأ ويهرّ فيه • شربته ساخنا ، وكان هذا اول شيء ساخن اذوقه منذ ايام ، وربما منذ اسابيع • الزمن ضاع مني • لاأعرف في اي يوم انا ، ولا في اي اسبوع او شهر، ولن اتعب نفسي في معرفة ذلك • الافضل ان انسى ، واعيش كالمتوحشين في الغابات ، توقيتهم شروق الشمس وغروبها ، يوم يمضي ويوم يأتي ، ثم الشتاء اذا كان المطر والبرد ، والصيف اذا كان الجفاف والحر •

تجمرت النار فكففت عن وضع الحطب فيها لئلا يفضحني دخانها • اقتربت منها اكثر • احتضنتها كما تفعل العجوز بالموقد الذي لم يبق فيه غير الرماد الحار • شربت جرعات صغيرة متقطعة من الماء الساخن • استلقيت قرب النار على جنبي ليصل الوهج الى بطني • اتكأت على ذراعي اليمنى وسكنت ، شاعرا بالراحة والدفء • هضمت معدتي الباطلينزات ولا شك ، وتلهت امعائي بها فخف الجوع • الطاحونة اشتغلت قليلا • كيف ياالهي تكون طاحونة المعدة ؟ سمعت ذلك من والدي •

كان ينصح الذين يشكون من معدتهم أن يأكلوا حتى لاتدور طاحونة المعدة فارغـة • والدي كان طبيبا كمـا يظهر • كان حكيما • وفي حارتنا كان الطعام هو الدواء • المرض هو الجوع، والدواء هو الاكل ، وكانت الحارة ، نصفها على الاقل ، تظل مريضة ، ونصائح والدي تضيع ، والطواحين تدور فارغة •

حميت كفي ووضعتهـا على بطني ، شاعرا بمـزيد من الدفء ، وبتكرار ذلك مع الفرك ، لانت الامعاء وزال الغثيان • جلست وسخنت ماتبقى من الماء على الجمر ، وحملت العلبة وذهبت الى الخيمة •

استلقيت كالمريض الناقه الذي اكل مرقا دسما • مرقي كان ماء ، ولكن سخونته نفعتني ، والطعام القليل الذي انهضم افاد اسكات جوعي ، رحت اغزل مشاريع لايامي المقبـلات • ترنمت بغناء بدد قليلا وحشتي • كان غناء خافتا ، لايكاد يصل اذني ، وكان حزينا يستثير ذكرياتي وشجوني ، وقد احببته لانه استثار ذكرياتي وشجوني ، ثـم اغضبني فتوقفت عنـه • جلست في الخيمة ، الظلام من حولي ، وهدير البحر يأتي من الخارج • الضفـادع نامت • النجوم مثلي وحيدة وساهرة ، والمغزل يدور ، وصوفه افكاري •غزلت امتارا بطول الساحل•

كنت اهتاج وأهدأ ، واهتاج وأهدأ • وضعت تلك الليلـة ، خططا كثيرة • بنيت جدرانا ، صنعت سقوفا ، انشأت حدائق ، اشعلت نيرانا ، انزلت قوآرب ، اصطدت سمكا ، لبست ثيابا ، وتقلدت سلاحا • سهرت حول الموقد ، فيما الريح والثلج في الخارج ، ونمت في ضوء القمر فيما الحر في الداخل،وعصرت العنب في الخريف ، واكلت البطيـخ في الصيـف ، وجففت الفاكهة للشتاء ، وجمعت الزهور في الربيع • عشت الفصول الاربعة ، في بيتي وغابتـي ، وانتشيت لفرط ماتفجر صـدري بالأمل بعد ضيق المرض وعذاب التشرد •

صرت اتبع خيالاتي • زكريا المرسنلي القاعد في الخيمة يرى زكريا المرسنلي الساعي في الغابة • يشاهده كأنه رجـل آخر ، رجل المستقبل ، ويتبعـه ، يشجعه ويتبعه : « هكـذا يازكريا ! احسنت • عافاك الله • اضرب بالفأس • اقطع هذه الشجرة ، وتلك •• انشر خشبها ، اصنع قاربا للصيد ، افتح حفرة لعمود البيت • افتح نافذة على البحر ، الموقدفيالزاوية، والمطبخ وراء البيت ، من الجهـة الأخرى • تدخل اليـه من باب الغرفة • الحديقه أمامه ، حوله ، وفيها زهور ، وعرائش من الخضرة ، ومساكب للعرائش ، وممـاش بينها • وفيالشتاء ثلج • فراش ابيض من الثلج ، ومن سقفـ البيت تبرز مدخنة،

من القرميد الاحمر تظهر مدخنة • نار في الموقد ، ودخان في الجو ، وفي صندوق المؤونة لحم مقدد ، خمر ، وتبغ ، وخضر مجففة ، وعلى المصطبة شباك ومجاذيف ، وعلى الساحل ،قرب الصخرة ، قارب صغير ، آتيه في الصباح ، افكه ، اقبله ، اقول له : « كيف قضيت ليلتك ؟ اما اشتقت ؟ هيا الى البحر » ساسحب المركب الى البحر ، ادفعه في الماء ، اضع فيه طعامي وشباكي وصنانيري ، واذهب بعيدا فاصطاد كفايتي واعود • ماحاجتي الى الزيادة ؟ السمك ليس عجلا ولا خروفا • لن افقد السمك وان كنت تعلمت ذلك من زخريادس عليه رحمة الله حيا او ميتا • الرحمة تجوز على الحي والميت • سأفترض بعد الآن انه مات • بل سأقنع انه فعلها • بهذه القناعة انهي مشكلتي ولا اعود الى المدينة • اقطع حبالي بها واصلها بالغابة•

ولكن لو جاء يوما نبأ من هناك ، من المدينة،ان زخريادس لايزال حيا ، فاية فرحة تكون ؟ ارجع عن طريق البر أم البحر ؟ وبيتي في الغابة ؟ وحديقتي ؟ سأقص على صالحة حكايتي • اقصها على اليونانية ايضا ، على ام زخريادس ! اناديها بالكنية عند ذاك ، أقول لها « ياام زخريادس ! زكريا المرسلي الوحش ، الذي كان وحشا ، صار بني آدم • تأدب • علمته الأيام • صار عجوزا ، نذر نفسه لصالحة ، فلا تخافي

منه • افتحي بابك ونامي • صالحة تشفعت له عند ربها ، وقبل شفاعتها فلم يمت زخريادس ، ومعنى هذا ان وفاء النذر ضروري • تعالي معي ومع زخريادس وعبعوب الى الغابة •لدي هناك خمر وقديد وسمك وحطب وبيت كامل • نذهب في الثلج ، وحول الموقد اشوي لكم السمك كما شويته لشكيبة • ونذهب في الصيف ، نسهر في ضوء القمر ، واقطف لكم الزهور بيدي • وبينما عبعوب معك وراء الدغل ، اصلي انا وفاء بالنذر •• ولكن عبعوب لاينام معك•هو قال انه لاينام مع العجائز • حسنا ! سأضربه حتى يفعل•لاجلك اضربه ،ولاجل زخريادس اضربه • واذا ظهر حوت ربطته وبعجته ، وجميع مافيه له ، لابنك الذي بقي حيا ، • اما اذا مات زخريادس فلن اعود الى المدينة • ارخي لحيتي وشعري ، اعيش متوحدا ، مقطوعا ، لااسمع اخبار الدنيا ولا اعرف مايجري فيها• اصطاد صباحا وفي الظهر اعود الى الغابة ، وبعده اشتغل في الحديقة ، وفي الليل اسكر واغني ••

فكرت هكذا حتى نمت •• جاءني النوم مثلما وانا صغير، بعد يوم من الشقاوة ، وانا مستلق على الحصير ، افكر بالذين ضربتهم ، والذين ضربوني ، ثم أفتح عيني فلا حصير ولا

معارك ، اكون في الفراش ، وقد انقضى الليل وطلع النهار وانا نائم .

عندما افقت تمطيت . زدت في التمطي وتحريك جسدي غير مصدق ان في وسعي ان انهض .. كان رأسي يطن من اثر الضعف ، وركبتي تؤلمني اذا حركتها،ولكنها كانت تتحرك. هذه بوادر الشفاء . شكرا لله . يمكنني ان اجرها وأنا أتوكأ على عصا ، اصبحت قادرا على الصيد وتأمين طعامي . هذا يكفي في الوقت الحاضر . ان آكل واتقوى ، ثم اشرع في البحث عما يسترني ، وبعد ذلك الى الغابة حسبما فكرت .

الصنارة التي سرقتها من حارس المنارة مخبأة في الخيمة. خبأتها بيدي كما يفعل البخيل مع فلوسه . اخرجتها وفحصت خيطها . قبلته فرحا . ناجيتها الا تفارقني ، الا تكون غادرة تذهب مع اول سمكة . وخرجت من الخيمة سعيدا . صباح الخير يادنيا ! حسنا ! زكريا المرسنلي لم يمت . سعد السعود يادنيا ، والماء يجري في العود يادنيا . والحياة تجري في عودي يادنيا ، ولن آكل الباطلينز نيئا . معاذ الله .

زيادة في الاحتياط غسلت ركبتي بالبحر ونشفتها باوراق جافة . لم امس الجرح . كان الاحمرار لايزال حول

حوافيه • قديتقيح من جديد ،ومن جديد أفقؤه • حدةالالتهاب راحت ، والالم خف ، واذا لم يشمس الجرح شفي • علي أن الفه بشيء لاحجب عنه الشمس ، وهذا ماأفعله ظهرا، حين تشتد حرارتها •

حفرت الارض قرب غيضة القصب واستخرجت بعض الديدان • سمكة واحدة ياالله ، سمكة تكفيني وجبة واحدة • ماكان اشد خوفي على الصنارة ! ان تقطعها سمكة لعينة ، وتضطرني الى اكل الباطلينز نيئا من جديد •

انتقيت دودة حسنة • شككتها بالصنارة حية • اذا لعبت الدودة في الصنارة تهزهزها • تلفت السمك اليها وتجعلها مرغوبة اكثر • قلت في نفسي : « الصيد على الاصول اليوم يازكريا • براحة وهدوء ، بلطف شديد ، وبغير نتر ، ولا مهارشة • احصل اليوم على قوتك واحمد ربك ثلاثا » •

البحر ، حبيبي ، ماخيّب رجائي ، اعطاني سمكة صغيرة ، ثم أخرى كبيرة ، وسمكات مختلفات الحجم بعدها • كفى ! الطمع ضر وما نفع • لملمت صيدي وقبلت يدي بطناً وظهراً• كفاها ربك يازكريا • قم الآن الى النار • اضرمت النار في

الغابة حتى لايظهر دخان • غسلت السمكات على النبع وشويتها • تريثت حتى نضجت فوقعت عليها • ابقيت بعضها للعشاء • سأصطاد مرة أخرى ، ومع ذلك احتطت للعشاء • الحاجة علمتني الإحتياط • وبعد ان أكلت شربت من النبع ، ورحت اطوف بين الادغال بحثا عن قماشة الصرة التي بقيت في الدغل •

تيسرت اموري • بأن الفرج مثل عين الشمس • وجدت الصرة وصنعت منها خرقة كورقة التوت ، ربطتها بخصري بقشرة عود من الدفلة • حجبت عورتي وفرحت مثلما حدث لي بعد الشبع • تحركت نفسي للغناء • رحت ازت عتابا وميجانا ، وأويت الى الخيمة لأتقي الشمس واستريح ، فجفاني النوم • لم يكدرني جفاؤه ، لكن الشيطان لعب في صدري • خطرت لي شكيبة ، وعقلي الفلهوي اقنعني بالباقي • دماغي اشتغل عند هذه النقطة بنشاط • صور لي ضرورة البحث عنها لتدبير الثياب والصنابير والتبغ والخبز ،مادمت لااستطيع الذهاب عاريا الى القرى ، ولا الظهور على الطريق العام •

مضى اسبوع وانا مربوط برسن ، في وتد مشكول بالخيمة• ادور حولها ، وأقعد فيها • أذهب الى الغابة القريبة وأعود ، اصطاد واشوي وآكل • اسبح ، اعد نفسي للحياة المقبلة ،

اعاين المناطق المجاورة لانتقي المكان الذي سأقيم فيـه بيتي .
الخطوة الاولى وحدها كانت تقلقني : ان احصل على ثياب .
ذهبت على طول الشاطىء ءاملا في العثور على قطعة من ثيابي .
عاتبت البحر : « لماذا اذن ياصاحبي عملتها معي ؟ » كفرت .
اخطأت واستغفرت ربي . تمنيت لو اعثر على غريق لفظه الموج
على الشط ، انزع ثيابه والبسهـا .. ورغم مافي هذه الفكرة
من عار ، ظلت املا في جملة الآمال ، وقد هونت المسألة بقولي:
« هيه ، يازكريا ، يامره بين الرجال . ترعبك فكرة كهذه .
انت لن تغرقه على كل حال ، واذا وجدته ميتا فما حاجة الميت
الى ثياب ؟ تخاف عليه ان يبرد ؟ ان يخجل من لقاء ربه عريانا؟
وانت لن تأخذ ثيابه بلا مقابل . تحفر له وتطمره . هوبحاجة
الى حفرة يواري فيها لا الى ثياب يأكلها البلى . تأخذ ثيـابه
الفانية وتعطيه ثيابا باقية : التراب . تكون في هذه الحال ، قد
اخذت تعبك . حفار القبور ايضا يأخذ تعبه ، فما بالك تخاف
من التفكير في الموضوع ؟ انت لاتريد الغرق لاحد ، ولكن لو
غرق انسان ما فهل يضره ان تأخذ ثيابه وتستر نفسك ؟

الخلاصة لم يغرق احد . لم يتلطف واحد ويعملها لأجل
زكريا . الفصل لم يكن فصـل العواصف . لو كان الشتـاء

لتحطم مركب أو قارب صيد ، ولكن ،في هذه الحال ، سأدعو الله أن يحمي البحارة والصيادين ، واذا هبت عاصفة سأصلي لاجلهم • عريانا ابقى واصلي لاجلهم •

وذات يوم ، وكنت قد شفيت ، رأيت ابقارا ترعى على خاصرة الجبل ، بعيدة صغيرة ، لايمكن تمييزها • اثارتني رؤيتها • فماذا لو كانت ابقار شكيبتي ؟ ولكن اذا لم تكن ابقارها ؟ لوكنت مكتسيا لتظاهرت بعبور طريق قريب منها ، وربما سألت الراعي وحصلت منه على شيء،ولكن أية فضيحة وأنا عار ، والراعي أحمق ، ابن كلب ؟ يخبر الضيعة كلها ، والمختار ينزل من الصباح الى المدينة ليبلغ الدرك •

أعملت فكري • قلبت الموقف على كل وجوهه ، ووجدت حلا وسطا • اذهب الى الابقار متواريا • اتستر بالاشجار والادغال ، فاذا كانت شكيبة ظهرت لها ، والا اختبأت الى الليل فعدت • ومن المفيد أن أبدو كصياد • احمل قصبة بغير صنارة، وبضعة افراخ من السمك ، وازعم ، اذا انكشفت ، انني ضيعت الطريق • هي مجازفة ، ومن غير المعقول ان اخرج من هذه الورطة دونها •

عمدت الى صيداتي فشككتها في حبل من الدفلة ، ثم

اصلحت وضع الخرقة على عورتي ، وحملت قصبة وسرت بين الاشجار ، محاذرا الاقتراب اكثر مما ينبغي لتمييز الرجل من المرأة ، او لتمييز شكيبة من غيرها .

راع هو أم راعية ؟ قدرت انها راعية من قلة الأبقار التي ترعاها ، وتساءلت : « اذا كانت شكيبة فاين الكلب ؟ » لوكانت هي لشم كلبها رائحتي ، او رائحة السمك الذي معي ، ومن المستحيل ان يكون نسيني ، فالكلب لاينسى بهذه السهولة شخصا كان لطيفا معه واطعمه سمكا مشويا . واذا لم تكن شكيبة فاين الراعية ؟ هل عادت الى الضيعة ؟ يحدث هذا ، تدع الابقار وتعود لقضاء حاجة ، لجلب ماء او طعام . البقرة ليست ابرة تضيع ، وفي المراعي القريبة من القرى لاتخشى السرقة ، فالقرويون يعرف بعضهم بعضا .

لطيت في دغل ورحت انتظر واراقب . الريح جففت سمكاتي . الشمس كادت تنتنها ، فدفعتها الى قلب الدغل ، التماسا للفيء والطراوة ، واعطيت نفسي مهلة ، فاذا لم يظهر احد عدت الى الخيمة .

انقضت المهلة فجددتها . ثلاث مرات جددتها ولم يبن احد . نهضت وسرت ، منحدرا بتكاسل الى البحر . وبعد عشرين خطوة أو يزيد ، سمعت حركة ورائي . التفت فلم

ار احدا • مع ذلك تلفت جيدا ، وتريثت ، ثم عاودت السير ، وللحال سمعت الحركة ثانية •

من الذي يعبث بي ؟ كدت اصرخ : « من هناك ؟ » لكنني تذكرت وضعي ، فقررت تجاهل الحركة ، والابتعاد باقصى سرعة ، وعندئذ رأيت رأسا بين الادغال ، في الجهة الاخرى من الابقار ، ماان ابصرته حتى اختفى فلم اميزه كفاية •

أمضي أم أرجع ؟ في المضي معنى الهرب،فاذا كان صاحب الرأس رجلا ، وكان يراقبني ففي وسعه متابعتي من مكانه حتى الخيمة ، واذا اختبأت منه في الغابة فستقوى شكوكه ، ولا فائدة بعد ان رآني وعرف انني صياد • ثم ان الهرب نذالة •• والى متى اهرب ؟

رجعت وفي عيني نظرة غضب • خجلت من جبني الذي طال • في حالة المرض اصرع رجلا ، فكيف وقد تعافيت ؟ اذا ابدى عداوة فسنتعارك قليلا ، ومن يدري••اذا كان مسلحا قد يطلق علي • في هذه الحال ، واذا لم امت ، اقتله واستولي على ثيابه وسلاحه واهجر المنطقة الى غيرها • انتفض زكريا القديم في جلدي • خفقت روح الشر في صدري ، فتناولت حجرا وقذفت الدغل الذي اطل الرأس منه •

لم يأت جـواب • كان وحشا اذن ؟ مستحيـل • رأيت جانب الوجه • هززت القصبة في يدي فلم اجد فيهـا مايفي بحاجتي • القيتها ارضا وتقـدمت خطوة ، ثـم اخرى ، وفي الثالثة قذفت حجرا على الدغل فما سمعت سوى خشخشـة العشب • وفي هذه اللحظة اقشعر بدني لفكـرة طرأت : ان يكون الكلب الذي قتلته لم يمت ، وهو يتعقبني ليثأر مني •قد ينسل بين الادغال ، ثم يظهر من ورائي ليهاجمني • تجمدت رعبا • صار الكلب كالأفعى ، وتحولت الادغال من حولي الى جحور • الوهم صنع خشخشة وضحمها ، فنظرت الى قدمي، اتقاء للافاعي ، وتلمست ظهري ورقبتي اتقاء للكلب ، وفي غمرة هياجـي التقطت غصنـا ثخينا من صنـوبرة قربي ، فكسرتـه واتخذته عصا • سأضرب بها اي شيء يواجهني ، وسأشبق الاحراج من حولي ، انفـر الوحوش والافاعي ، واستثـيرها من مكامنها •

في مس من جنون تقدمت بين الادغال وانا اضرب واقفز • تناولت احجارا وقذفتها في كل اتجاه •• بدوت في عريي مخبلا الى درجة انني لم الحظ المرأة التي صارت في الجهة الاخرى من الابقار ، تنظر باتجاهي مرعوبة من حركاتي •

كانت المرأة شكيبة ! شكيبة بلحمها ودمها ! جائز انها لم

تعرفني ؟ تخاف مني ؟ تحسبني قد جننت ؟ ناديتها : « شكيبة ! ياشكيبة ! » فادارت ظهرها ومضت ، ثم التفتت لترى ماذا كنت اتبعها ، وواصلت سيرها صعودا في طريق القرية • تسمرت في مكاني للصدمة التي اعقبت المفاجأة • بهتت فرحتي بلقائها • انقلب اندهاشي الى كسوف • لساني لم ينطق ، وخجلت من مظهري العاري • خشيت ان تكون قد عرفت قصتي وانقلبت ضدي • ياللمرأة ماأسرع تقلبها ! طقس شباط ! ماذا افعل الآن ؟ اذا تركتها تفلت تضيع الفرصة الوحيدة ، واذا لحقتها فقد تظن بي السوء وتصرخ • ثم هي اسرع مني في المشي فالركبة لم تندمل تماما ، ومن الصعب ان اركض • ياالهي ! شكيبة صارت عدوتي ؟ انا لم اغتصبها ، وكنت لطيفا معها فلم اعضها في اي موضع ولم اتع بكل ثقلي عليها •داريتها جهدي، وسمعت شخيرها باذني • كانت في منتهى السعادة ، وقد رهزت وغمغمت ، وحسبت انني اعطيتها حتى رضيت ، بل هي رضيت تماما ، فماذا غيرها علي ؟ ندمت ؟ حبلت مني واصبحت عرضة للفضيحة بسببي ! عاد زوجها من الأناضول ؟

- لاتذهبي ياشكيبة ، صرخت ، قفي،لي معك كلمة •

توسلت اليها وانا اتقدم صوبها ، وبمقدار ماأتقدم كانت تبتعد ، فجربت الاسراع في خطوي وعندئذ ركضت ، وانقطع الامل في الوصول اليها •

عبثاً ! اذا لم تكن المرأة راضية فلا سبيل اليها • هذه آخر من بقي • شكيبة ايضا صفّت مع الاعداء • الحبة الاخيرة في العنقود فرطت • طال ندب الحظ ، حظي الاسود مثل الفحم • آلمني موقفها ، انا الذي بيدي شويت السمك واطعمتها ، ولاطفتها ، واستأنست بها ، وتعزيت بمجرد ذكرها ، بمجرد التفكير ان يوما سيأتي واعثر عليها •

الابقار ترعى غير مبالية بقصتي • والطيور السود تفرد اجنحتها محومة • لعل جيفة قريبة تحرضها ، او لعلها تحسبني تلك الجيفة • هي تراني عاريا ، وقد تحط علي وتنقرني ، كما نقرت الخبز عن رأس المحكوم بالموت في الحلم الذي فسره يوسف الحسن • كانت الريح تحرك رؤوس الادغال فقط ، والغابة ساكنة كالبيت المهجور ، وانا مزروع في البرية تشلني حيرة اسيفة •

على حجر قرب الابقار جلست حزينا • انهار البناء الذي شيدته طوال ايام • كانت شكيبة أساسا في البناء • كنت أبني بيتا في الغابة ، واقول سأعيش فيه وحيدا ، واضمر ان شكيبة ستكون معي • قد لاتعيش معي ، ولكنها تأتي لتزورني، لنتحدث، لأراها ولو دون أن نتحدث• لم أسأل اذا كانت صالحة ستأتي• هي لاتعرف أين انا ، ولو عرفت ولم تأت فليس مهما • يمكن

ان أعيش دونها • عجوزتي تلك اشتاق اليها ، احبها • انهـا زوجتي ، وقد قضينا العمر معا ، وربما كان حديثها يلذ لي ، ولكن وجود شكيبة شيء آخر ، أهم • الآن احس انه أهـم، ولا غنى لي عنه ، ولاجله افعل مالا يفعل •

الابقار ترعى•تهزذيولها وترعى. •بينهاثيران•ربماثور واحد للركب ، لكي تلقح منه • والباقية يذبحونها او يأخذونها الى الفلاحة • الثور يفتقد بقرته مثلي ؟ والبقرة تفتقد ثورها ام تدير ظهرها مثل شكيبة ؟ والدي كان خالصا من هذه البلية • لعن جنس الانثى وخوّنه فاستراح • انا مافكرت باخلاصه او خيانته • مافكرت بشيء •• والآن ، لتكتمل المصيبة ، صرت افكر بكل الاشياء • دماغي ساب • كان محبوسا وافلت • لابد من لجمه اذن ، وشكيبة هذه ؟ اجعلها تلتحق بزخريادس ؟ ادير ظهري لها وامضي ؟

كاذب • ضاحك على حاله • باق على الحجر وعينه على الطريق • اين ذهبت شكيبة ؟ تخبر عني ؟ تنتظر انصرافي لتعود فتجمع بقراتها وتذهب ؟ لن انصرف اذن • سأبقى حتى لو راحت لتشي بي • لتأتي بالمختار او الدرك • عندئذ سيكون في وسعي ، وهـم يقيدونـني ، ان انظر في وجههـا • النظرة

ستشفي غليلي ، ستحمل كل محبتي ونقمتي ، وبعدها اقــول للسجن : مرحبا .

محال ! رأيتها واريدتها . زكريا العتريس طوّع اليونانية. تلك ضربها ، وهذه احبها . مقابل مرة واحدة تنام معي على العشب ، كما فعلت في المرة السابقة ، اقطع لها اصبعا من كفي. انا احبها واشتهيها . وماكنت اتصور انني بهذا المقدار احبهـا واشتهيها . صرت عاشقا بغير علمي . في الاربعـين عشقت . جهلة الاربعين هذه ، فكيف الخلاص ياربي ؟

راجعت نفسي على مهل . كلمتها كأنني غريب عنهـا . انا في وضع لااعرف فيه مصيري . ثم انا كهل ، شاب شعري واكتهلت . لم يبق للحب مجال في حياتي . اصلا لم اعـرف الحب . تأتي المرأة وتذهب مثل اليونانية ام زخريادس . قد تبقى منقوعة في البيت مثل صالحة . هذه ربطتني بالزواج . حتى الزواج لم يربطني مثـل الآخرين . ربطت العفـاريت والحيتان ولم يربطني أحد ، وها أنا ، بعد هـذه السنوات ، تربطني شكيبة !

قلت لنفسي : لو كنت مكانها يازكريا ؟ لو كنت امـرأة فهل تقبل برجل عار مشرد وقاتل ؟ ولنفرض انهـا لاتعرف

انني قاتل ، ألم تتساءل : مايفعل هنا ؟ واين كان ؟ واين ثيابه؟ ثم ماالذي يجعلها تحبني ؟ امرأة هي ، وفي الضيعة كثير من الرجال لو ارادت ، ومتزوجة هي ، وربما عاد زوجها من الاناضول • ليست ملومة اذن • لو راحت ولم ترجع ماكانت ملومة • ولو اكتفت بالتهرب مني ليست ملومة • وعلي ، بالمقابل ، الا اضايقها • كنت لطيفا معها في المرة الماضية ، واللطف وحده وربما الحرمان أيضا ، جعلها تستسلم لي ، والآن غيرت رأيها ، نامت مع غيري فشبعت ، وقد يكون عاد زوجها فارتوت ، ولم تعد بحاجة الي •

هذا الكلام هدأني • عقلي كبر وصار مثل عقول الناس • اقتنعت ان الأمور لاتمشي كما أريدها • لوكنت في غير هذا الوضع لفرضت عليها ان تمشي كالبغلة ، ولركبتها ايضا ، ولكن للظروف احكام ، وظرفي حكم علي ان اعقل فعقلت • قررت ان اترك شكيبة بحالها ، وادع لها السمكات بين الابقار واذهب • في هذه الحال تفهم انني لااريد بها شرا ، واذا لم تكن راضية بالحديث معي فلن اجبرها على ذلك • اعطيها الحرية لتختار الفراق أو اللقاء •

احضرت السمكات فعلقتها برأس القصبة ، وشككت القصبة في مكان تراه ، ورجعت الى الغابة ، بعيدا عن الابقار ،

وحرصت على السير بصورة مكشوفة ، لكي تراني وتعـود مطمئنة الى ابقارها •

ماكنت احمل عداء لهـا • صارت كالبحر ، مخلوقـة في القلب • وماكنت ، في ابتعادي عنها حزينا ولا ساخطا • الحالة التي وجدت نفسي عليها عند وفاة امي كانت حالتي • فراق عزيزة لاتعوض • همدت كاليتيم العائد من المقبرة • الشمس شاحبة • البرية قفر ، الخضرة داكنة ، الغربان نذير شؤم • وشيء كالحبل البارد ، كالافعى ، يلف على الصدر ، وشعور بالفراغ ، بالوحدة التامة يملأصدري •ران علي همود فتهاويت على جذع صنوبرة ، كسيفا ، كئيباً ، راغبا عن كل ماحولي •

بلى ! كنت من حين لحين التفت ناظرا باتجـاه البقرات، فأرى القصبة في موضعها ، تهزهزها الريـح ، وعلى طريـق القرية الجبلي لااثر لانسان،فيزداد يأسي من عودةشكيبة،ويغور ماتبقى من امل كماء المطر في ارض رملية •

طال الانتظار في الغابة حتى مللت • كنت لاأفتأ انظر الى القصبة والسمكات • اذا اخذتها تكون قد رضيت • وفي الغد احمل كمية اكبر ، ومثل اليوم اضعها لها وابتعد • اعبر بذلك عن شكري لما اسدته الي من معروف ، واقيم على هذا النحو ،

علاقة مع انسان في هذا الوجود •• واذا لم تأخذها ادعها وامضي ، اختفي فلا اظهر ثانية حيث ترعى ابقارها ، او حيث يضايقها وجودي •

مااسخف صيد الدب على دبق • بقصبة وسمكتين اريد اصطياد امرأة • لا الدب علق ولا المرأة أكلت الطعم • الغريق يحسب القشة جذعا • كنت غريقا وكانت قشتي في مهب الريح، وقد تعبت من السباحة وراءها ، فاستسلمت للتيار ، وتركته يجرفني ويبتلعني • غرقت في الاسى فابتلعتني الكآبة • ماكنت قادرا على البكاء كطفل لأنام ، غير ان الكآبة كانت دموعا فاغرقتني ونمت •• لم افق الا عصرا ، واول مافعلته هو التطلع نحو الابقار • كانت الابقار قد اختفت ، والقصبة وحدها تبدو ، وعليها السمكات تتلاعب بها الريح •

رفضتها اذن !؟ رفضتها باحتقار وتركتها للكلاب ؟ ولكن الكلاب غير موجودة ايضا • تركتها لي ، انا الكلب الوحيد الذي ليس له صاحب في هذا الخلاء ؟ لماذا لم تخبر عني ؟ لو فعلتها لما زادت في الاساءة اكثر مما فعلت برفضها الكلام معي• آه يازكريا ! الذئب مخيف • لذلك فهو محترم • لااحد يهر عليه بحجر او عصا ، ولا احد يركله بقدمه • عليك ان تكون ذئبا ، ان تصنع لك انيابا ، ان تهاجم انسانا او حيوانا ، وعندئذ

يعــود لك اعتبــارك ، ترتفــع عن منزلة الكــلاب او تموت ميتة الذئاب .

قررت الا آخذ القصبــة ولا السمكات . أرفضها كمــا رفضتها . ابقيها للوحش او الطير ، فاذا لم تكن من قسمتها ، وظلت الى الغــد ، فستأتي وتراها . بودي ان تأتي فتراها ، لتعلم انها هبة وليست طعما ، وان زكريا يمنح الصيد ولايجعل منه طعما .

نهضت لاسير . احكمت وضع الخرقة التي تستر عورتي عندما بدرت مني التفاتة نحو القصبة. كان قربها، على الارض شيء يشبه الصرة . بل كانت صرة .. تأكدت من ذلك وانا احدق فيها غير مصدق . من الذي وضعها هناك ؟ شكيبة بدت غاضبة مني ولم ترض ان تكلمني ، وحين لحقت بها هربت في درب القرية ، فكيف عادت حاملــة الصرة ؟ لماذا لــم توقظني وتعطني اياها ؟ فعلت ذلك احتقارا ؟ اشفقت علي واحتقرتني ؟ فكرت : اشفاقها يحمل هذا المعنى ، واخذي الصرة يؤكــده ، ولن ارضى ان اكون محتقرا . انا لم اكن كذلك ، ولن اكونه في يوم من الايام . اتجهت الى الخيمة مصمما على عدم العودة الى شكيبة . اذا كانت تحتقرني فالويل لها . لقد احترمتها انا،

ذكرتها ، انتظرتها ، فهل هذا جزائي ؟ كان عليهـا ان تبحث عني ، ومع ذلك بحثت انا عنهـا ، ثم ماذا ؟ تـدير لي ظهرها وتهرب ؟ تسيء معاملتي ؟ حتى شكيبة تسيء معاملتي ؟

غضبت كما لم اغضب • وكيفما حاولت تفسير تصرفها ، لااجد فيه غير الاحتقار • كنت اشعر بالخزي وابالغ فيه ، وكان سلوكها هذا يضاعف خزيي ، ويمـلأ صدري ضغينـة على صاحبـــه •

غير ان غضبي لم يلبث ان هدأت فورته وانا في منتصـف الطريـق •• قلت في نفسي ان قراري بالمقاطعة معناه فقـدان شكيبة التي لاتعرف اين اقيم •• ثم تذكرت انها تعرف ، وفي غيابي حملت الصرة الى الخيمة ، تساءلت : ترى هي التـي حملت الصـرة الى الخيمـة ؟ ولمـاذا فعلت ذلك ثـم ادارت لي ظهرها ؟

توالت الاسئلة على دماغي كحبات البرد • ومثلها كانت تذوب ، ولكن المياه التي تتركها كانت تغسل الكدر كما يغسل الصابون الدهن عن الصحن • اخذ صدري ينقى وينفرج • عاودني نزوع لايقاوم الى المصالحة ، الى ترضية شكيبة ولو بالركوع امامها • ربما كانت في زعلها على حق ، فأنا جلف،

وقد اكون تصرفت معها بشكل مهين • وهاهي ، مع زعلها ، لم تتركني عاريا ولا جائعا • الصرة تلك احضرتها لي • ذهبت الى القرية لتحضرها ، ولما عادت لم تجدني • كنت نائما كانسان الغابة ، مخيفا بشعري الطويل، وجسمي العاري ،وكان الوقت متأخرا ، فهي ، قبل كل شيء ، راعية ، وعليها ان ترجع الابقار الى اصحابها •

ابيضت الدنيا في عيني • عقلي بدوزن مخي • قلت في نفسي : ظلمت المرأة بوساوسك الشيطانية يازكريا ! اتهمتها زورا • ثم مامعنى ترك الصرة في الفلاة ؟ قد يمر بها إنسان ويأخذها ، وحتى لو بقيت فان رفضك اللعين ، وانت بحاجة اليها ، يحرمك منها،ويجعل القطيعة نهائية بينك وبين شكيبة»•

عدت فورا لاخذ الصرة ، وفورا ترددت • دماغي انقلب على عقلي • اختل دوزانه من جديد • تساءلت : « لماذا ، بالمقابل ، لم تأخذ الهمكات ؟ » ان يكون رفضي لصرتها نذالة، افلا يكون رفضها لسمكاتي نذالة من نفس النوع ؟ السؤال وجيه ، وفي موضعه تماما • كان بامكانها ان تأخذها مسايرة ، ان تلقي بها في الطريق ، او تطعمها لقطتها ، ولكنها تعمدت ان تمن علي « ويازكريا ـ قلت في نفسي ـ صارت المرأة تمن

عليك ، وصرت تتقبل منة المرأة ! خطوة اخرى على طريق الذل • كل خطاك صارت ذليلة • تلك السمكة التي ارمحتك وراءها ، وذاك الكلب الذي اخافك ، وهذه المرأة التي تأبى كرمك وتتكرم هي عليك ! وعودتك صاغرا لتتقبل كرمها ، لتأخذ اللقمة التي وضعتها لك على العتبة كالشحاذ ثم اغلقت الباب ! » •

اخذت الصرة اخيرا • اخذتها صاغرا • وجدت فيها شروالا عتيقا ممزقا ، وقميصا ، ورغيفين ، وملحاً وبصلة ، وتبغا غير مفروم ، وورق سكاير ، ومقدار حفنة من التين اليابس ، وعلبة كبريت فارغة الا من عيدان قليلة •

جلست ارضا ونشرت بضاعتي من حولي • رحت أتأملها بعيون غبشها التأثر • امرأتي تصلي وحبيبتي تحول الصلاة الى خبز وتبغ وشروال • صالحة تبكي ، وشكيبة تقطع الطريق الى الجبل لتجلب لي ماينفعني اكثر من البكاء • هذه هي المرأة ! هذا هو الكنز ! ليس في اصبعي خاتم سليمان ، ومع ذلك وجدت الكنز الذي لايجلب مثله خاتم سليمان • شكيبة هي خاتم سليمان • غدا سأركع امامها ، واذا وافقت سأحملها على كتفي ، واذا رضيت فسأدب على اربع واركبها على ظهري•

عدت اجمع الاشياء في الصرة كما كانت • التبغ وحده تذوقته وانا في ارضي • فركت ورقة منه في كفي حتى تفتتت، شممت الرائحة ولففت سيكارة • كانت أصابعي ترتعش وأنا ألف السيكارة • جعلتها ثخينة جدا ، وحرصت على الورقة كيلا تنبعج • اشعلتها وشفطت • لم اخرج الدخان من فمي، حبسته في صدري ليتخمر ، واخرجته بتلذذ ، من انفي واذني•

مااستعجلت المسير بعد ذلك • كنت إمج مجة من السيكارة وانظر اليها ، مثلما يقبل الرجل المرأة وينظر اليها •• ماالفرق؟ لكل شيء وقته • السيكارة في وقتها امرأة ، والمرأة في وقتها سيكارة • عبعوب قال ان الجلاد يسأل المشنوق قبل وضع الحبل في رقبته : «ماذا تطلب؟»وتسعون بالمئة يطلبون سيكارة• لايطلبون امرأة بل سيكارة • تأمل يازكريا ! انت ماذا تطلب اذا شنقوك ؟ السؤال ارعشني • الى وقتها فرج ورحمة • كنت مسلطنا ولا اريد نزع مراقي [1]•اكملت السيكارة على مهل، ولم الق بالعقب حتى وصلت النار الى اصابعي • اطفأته وخبأته• حملت الصرة ومشيت ، كأنني احمل ثروة قارون على ظهري•

الشمس تعرّت على البحر • جمرة كبيرة مستديرة ستسقط قريبا في الماء • الذين بقربها يسمعون نشيشها ؟

---

(١) المزاج الطيب •

فكرت بذلك مدهوشا • تساءلت : الشمس نار ، والنار في الماء تنطفىء ، الفحمة المشتعلة تنطفىء في الماء ايضا ، وتحتاج لمن يشعلها من جديد ، فمن الذي يشعل فحمة الشمس في اليوم التالي ؟ •

وجدت السؤال مشربكا • بل وجدته كفرا وتدخلا في مالا يجوز • هذه شغلة الله ، وانا الذي اطلب رضاه في وقعتي السوداء احشر نفسي في اشغاله • اعوذ بالله ! استغفرته بقلب صادق • اكتفيت بتأمل الشمس وهي تغيب • اذهبي يامباركة قلت لها ، وغداً اشرقي باكرا ، أدفئي البحر والبر ، أدفئي اجسام الذين ليس عندهم ثياب ، او الذين اضاعوا ثيابهم مثلي ، وضوّي جيدا ، حتى ارى شكيبة وتراني •

من داخلي ضوا فانوس صغير ، ليس فقط لان شكيبة انزلت متاعبي عن ظهري ببساطة ، بل لان الذي انزل هذه المتاعب هي شكيبة بالذات • معنى هذا انها ستأتي •• قد تكون غاضبة ولكنها ستأتي • اعرف هذا الجنس • وقعة عبعوب معي ستكون سوداء اذا التقينا يوما • آراؤه لم تكن في محلها • سروال شكيبة لاينزل بالفجل ولا بالسمك•رفضت السمكات• اخطأت في التعامل معها على اساس السمك والفجل • هو الذي قال لي ضع شيئا هناك يازكريا • انا لم اضع السمكات

في سروالها في الماضي • اطعمتها السمك لوجه الله • المسألة لاعلاقة لها بالسمك • ولكن هي فسرتها على هذا الاساس • هذه الجبلية ذكية وتفهم • اهنتها بتكرار الموضوع بنفس الصورة : « كلي السمك وتعالي نامي على ظهرك » لا ، لايصير • هي ليست من هذا النوع « خذ انت الثياب والطعام ونم على ظهرك » هذا جوابها •• انا اخذت الثياب والطعام ، وعلي ، غدا ، ان انام على ظهري •• شكيبة هي التي وضعت هذه المرة شيئا في شروالي ، بل هي التي اعطتني الشروال كله •• المرأة ايضا تضع شيئا في شروال الرجل • سمعت عن نساء فعلن هذا ، وعن رجال قبلوا الفعل ، وهاانا واحد منهم•• حلو يازكريا ! ومتى ؟ في آخر عمرك ؟ أُجِّرت نفسك ياابن الكلب ! انت لم تؤجرها ، الدنيا اجرتك ، والمسألة ، في الحالتين ، واحدة • الاجرة صارت مدفوعة ، وانت تحملها على ظهرك •

حرنت كالحمار القبرصي • دماغي اشتغل في غير وقته • كنت مرتاحا قبل ان يشتغل ، كنت مبسوطا لأن دماغي كان عاطلا ، ولا ادري لماذا ، في هذا الوقت ، تحرك في رأسي كالشيطان ، وراح يتك كالساعة •

ضربت بقبضتي على رأسي • في أي جهة من الرأس يكون

الدماغ ؟ الساعة يوقفونها من عقربها ، فكيف يوقف عقرب الدماغ ؟ اكتشفت ان دماغي سبب كل مشاكلي • الدماغ عدو الانسان الاكبر • هذا ماكنت اجهله ، الآن لكي اعود زكريا الذي كنت ، زكريا الذي بدون دماغ ، علي ان اوقف دماغي •

بعد قليل لعب علي عقلي ثانية • مثلما كدرني سرني ، وجد لي مخرجا الى قبول الصرة التي على ظهري • قال : « لماذا تحمل الامور فوق ماتحمل ؟ انت تحب شكيبة ، فهل تستطيع منعها من حبك ؟ واذا كانت تحبك ، فهل عطاء الحبيب منة ؟ لو كانت هي في مثل وضعك ، وكنت انت في مثل وضعها ، افما كنت تفعل كما فعلت ؟ »

راقت لي الفكرة • بعض الافكار تكون رائقة حقا ، تستأهل سيكارة • لففت سيكارة واشعلتها • كانت الشمس قد تعرّت تماما • الحرمة ستأخذ حمامها الآن • تغرب في البحر • كنت أتأخر في الصيد حتى أشهد غروبها في البحر • الظلال الطويلة ، الرقيقة مثل الحرير الهندي المهفهف ، والنسمات اللطاف ، وكل شيء من حولك ينث طراوة بعد قيظ النهار ، وعلى البحر حريق عند الافق ، نار موجوجة بلا دخان ، والصنارة في البركة الزرقاء ، يتلاعب بخيطها الموج الكسول ، والبطحة الى جانبك ، تمزمز ، وتغني ، وتختم نهارك بالمسك •

باحتفال مهيب ارتديت الشروال والقميص•اغتسلت اولا• تفركت بالرمل جيدا • تنشفت بالخرقة التي كانت على وسطي ، ثم اخذت الشروال على مهل ، وادخلت قدمي في ساقيه ، ولبست القميص ، وعقدت التكة ، وذهبت على الشاطىء وجئت ، وعلى الرمل الناشف فتحت الصرة • أكلت خبزا طيبا مع بصلة هرستها بقبضتي ، وتحليت بالتين اليابس • وفي الختام دخنت سيكارة • ياعبدالحميد! ياسلطان زمانك،ياقواد زمانك• انا عبد الحميد الآن • انا سلطان الزمان ، لكنني لااستعين بالخصيان ، ولا انظر الى الناس يتراكبون من طاقة مخفية في الحيط لكي يتحرك نصفي الاسفل • انا لااريده الليلة ان يتحرك • سيعذبني مثل دماغي اذا تحرك • الصباح رباح ، وفي الصباح شغلي ، الصيد شغلي ، وفي الظهر ، اذا رضيت شكيبة ، يكون شغله • بودي ان اكون لطيفاً معها • لطيفاً كأنني اعاملها بروحي • ليست روحي ايام زمان ، بل روحي الآن ، وذلك الشيء سأفعله لاجلها ، ياربي ساعدني ان افعله جيدا لأجلها ، لتكون مسرورة شكيبتي •

تمددت في الخيمة ورأسي خارجها • مااعظم الفرق بين أمس واليوم ! كانت سعادتي غامرة ، ليس لانني تسترت بعد عري ، وشبعت بعد جوع ، بل لانني عثرت على شكيبة اخيرا•

كانت شكيبة وحدها سبب فرحي وكانت سبب خوفي. وعشرات المرات راح هذا السؤال وجاء : تأتي ام لا تأتي ؟

الذين في البراري يسهرون على بيادرهم ايام الصيف . يفكرون بالمواسم المقبلة ، لكن خوفهم يظل على البيدر الذي امامهم . وفي ليلة صيف ، والسماء صافية ، والنجوم عناقيد عنب ، سهرت انا على بيدري . كانت شكيبة هي بيدري وارضي وزرعي وشمسي ومطري . لقد ارتبطت بها ، وربما لو عشنا معا ، فلن افارقها . حتى لو لم يمت ابن اليونانية فلن أفارقها . حتى لو لم نعش معا فسأبقى على هذا الشاطىء وفي هذه الغابة على امل ان تأتي وان نعيش معا .

غنيت لهـــا :

عيونك سود والكحلا بلاشي

وانا بحبك لوجه الله بلاشي

اطربني صوتي . كان خشنا عريضا مثل نهيق الحمار ، ومـع ذلك اطربني . تحمست . هديت على الزير سالـم . حماستي لم تكن مع الزير . غيرت النغمة . تغيرت من ذاتها . وجدتني اغني :

عالبنيـــة عالبنيـــة ياحليـــوة سكريـــه

والله مافـوت هـواك لو حكـم حاكم عليـه

كررت الاغنية • شددت على مقطـع « لو حكم حاكـم علي » • تغنترت • كنت اغني لها ، واي شيء لاافعله لاجلها؟ تخيلتهم حكموا علي بسببها • قبلت الحكـم • هذا حكـم ، لاجل شكيبة لا لاجل ابن اليونانيـة يكون الحكم • لاجلهـا اقاتل ، اقتل ، ادخل السجن ، اهاجم الضيعة • صارت شكيبة لي • لي انا لا لزوجها • انا احبها اكثر من زوجها ، اتزوجها مثل زوجها • اصارعه ومن يغلب ياخـذها ، وحتى لو غلبني فلن ادعه يأخذها • سأقول له : « انت ياصاحبي تستطيع ان تأخذ غيرها ، ان تحب وتتزوج ، اما انا فلا ، انا مقطوع كما ترى ، وانا بحاجة اليها • انا احبها ، هل تفهم مايعني ذلك ؟ انا لم احب في حياتي • هذه هي المرة الوحيدة التي احببت فيها • اعطتني السماء حبيبة كما اعطاني ذلك الحوت ذهبا ، فلا تكن مثل زخريادس ، تسلبني حبيبتي كما سلبني ذهبي • انت لم تسمع بالحادث ، ولكن حذار • لاارضى ان يضحك علي احد • صدقني لاارضى ان يضحك علي احد •

اشعلت سيكارة لاهدأ وأتفاهم مع زوجها بهدوء • زوجها افسد علي فرحتي بلقائها • ربما عاد من الاناضول • لابـد

انه عاد ، وهذا هو السبب في انها رجعت بسرعة . ولكن اين هو ياترى ؟ في الضيعة ام المدينة ؟ لوكان في الضيعة لما حملت الصرة الي . هذا شرواله ، وهذا قميصه ، وهـذا زاده . انا اكتسيت وشبعت بفضلـه ، فكيـف اتنكر للمعروف وآخـذ زوجته ؟ لم اطلب الشروال ولا القميص ، ولكني البسهما . وخبزه في بطني أكلته . صار بيننا خبز وملح فكيف اخون الخبز والملح ؟

واحد من اثنين : اخون الحب او اخون الخبز والملـح ؟ اخون شكيبة ام اخون زوجها ؟ انا لااعرف زوجها ولا يعرفني ، ولكن لو عرفته وعرفني ، لو صادقته وصادقني ، تبقى النتيجة واحدة : احب شكيبة ولا غنى لي عنها . ولكن لو كان هوايضا يحبها ولا غنى له عنها ؟

سيكارة ثانية . سيكارة ثالثة . حاصرني السؤال . ضايقني . نفخت من قلب مهمـوم . خرجت من الخيمة وسـرت على الشاطىء ، انا وافكاري وعذابي . حسبت هواء البحر يعيـد الي صفائي . كان هواء البحر دائما يعيد الي صفائي . هذه المرة عجز . تكلبت الافكار بمخي . استعنت عليها بافكار اخـرى ، حاولت تذكر مشكلتي ، استحضرت زخريادس الى دماغي ، هولت على نفسي بالمصيبـة التي انا فيها . لـم ينفعني شيء .

شكيبة كل شيء او لاشيء • ياالهي ! هذا مايسمونه العشق؟ صرت عاشقا ولا فكاك ؟ اهرب ؟ اسلم نفسي وادخل السجن؟ ستهرب شكيبة في رأسي وتدخله معي •• انتحر ؟لاأعودأرى شكيبة ابدا ؟ بعد الموت لايرى النـاس بعضهم بعضـا ؟ الموت يحرمني منها اذن ، مثل زوجها يحرمني منها ، وانا لااستطيع قبول هذا الحرمان ، لا من زوجها ولا من الموت • اريـدها هي ، جويجتي ، ملفوفتي البيضاء ، زهرتي البرية الحلوة ، المرأة التي نمت معها على العشب كأني على تخت من ريش النعام ، والتي سمعتها تتأوه تحتي ، تتأوه والرأس ملوي ،كأنها تلفظ الروح بغير ألـم ، بلذة ماعرفتها مـع صالحة ولا مـع اليونانية ولا مع اية امرأة في حياتي •

الافكار اللعينة مثل العرق ، مزتها السيكارة • بـل يمكن شرب العرق بدون مزة [1]،ولكن التفكير بغير سيكارة لايمكن• عدت الى الخيمة مسرعا • لففت سيكـارة وعبأت صـدري • لحقني زوجها • الشيطان لم يعد يفارقني • وماذا له عندي ؟ الشروال والقميص ؟ اشلحهما وابقى عاريا • هو يريد شكيبة وانا اريدها • يتوسل لاجلها وانا اتوسل لاجلها • يبكي وانا

(١) مايؤكل مع الكحول من موالح وتوابل •

ابكي ، يقاتل وانا اقاتل .. ولكن المصيبة انه خيال . اقاتل خيالا ؟ اقتربت من الجنون ولا شك .

قلت له وكأنني اراه واكلمه : « طيب ! لنترك المسألة الى غد » قال : « لا ، غدا يكون قد فات الاوان . الليلة ! » قلت : « لنتفاهم اذن بهدوء » ففارت عيناه بالغضب وصاح : « نتفاهم على ماذا ؟ شكيبة زوجتي وانت غريب ، فكيف يتفاهم الزوج على زوجته مع غريب ؟ اتركها وينتهي الامر،وفر على نفسك الندم ووفر علي الحسرة .

الاسود اسود والابيض ابيض . البحر بحر والغابة غابة . الكلام الواضح لايحتاج الى ايضاح . هي زوجته وهو زوجها، بينما انا غريب ، فكيف أدعوه الى التفاهم؟علىماذاوبأيحق ؟ اقول له احبها ؟ يجيبني : وانا احبها . اقول له : هي حبيبتي؟ فيقول : هي حبيبتي وزوجتي ! كفته راجحة وكفتي شايلة .

ياقاضي القضاة ! انت الذي خلقتنا من طين ، وخلقت شكيبة من طين ، ووضعت في صدر كل منا قلباً ، وجعلت هذا القلب يعشق ، تفضل وافصل قضيتنا ! .

كان رأسي خارج الخيمة . مددته خارج الخيمة ونظرت الى اعلى وقلت ماقلت فلم اسمع جوابا . توجهت الى البحر ،

الى الغابة ، الى الريح ، الى الضفادع ، الى العشب فلم اسمع جوابا • استغفرت ربي على حركتي هذه • هو قاضي القضاة ولكنه لايقضي في مسائل الحب • الحب خطيئة وهو منزه عن الخطأ،غيرانه هو الذي خلقه ، ومادام قد خلقه فليتفضل ويفصل بقضيته • كفرت ؟ اعوذ بالله ، استغفرت ربي ثانية ولففت سيكارة • بردت خلقي ودوزنت تفكيري ولعنت الشيطان • صممت على التضحية • قلت ادع شكيبة بحالها وابقى في حالي ، ويبقى بينها عامرا •

غير ان دماغي ، ابن الكلب دماغي ، لحقني بسؤال جاهز : « من ادراك ان بيت شكيبة عامر ؟ » وزاد فجاوب بنفسه : « لو كان عامرا ماكانت راعية » • ثم اضاف : « قد تكون اميرة وبيتها ملآن ، وقلبها فارغ ، فما نفع الامارة والغنى عندئذ ؟ انت كان عندك زوجة • كانت تطبخ لك وتغسل وتصلي • تركتها ولحقت اليونانية التي لاتطبخ لك ولاتغسل او تصلي • صالحة كانت زوجة ، واليونانية كانت مره »• قلت « انا كنت مجنونا » قال « ومن ادراك ان شكيبة عاقلة ؟ ثم من ادراك ان روجها ليس مجنونا مثلها ، او ليس مجنونا قبلها ؟ هناك ، في الاناضول ، ينام وحده ؟ » قلت « هو رجل ! » قال « وشكيبة مره ! هذا جسد وهذا جسد ، وانت جسد ، وانت تخاف على بيتها ولا تخاف على قلبها ، البيت يظل عامرا ، يعمر من جديد، ولكن القلب مثل الجرة ، اذا انكسر لايجبر ، صحيح ؟ »

لا اعرف • طلعت كما دخلت ، لم اهتد الى حل ، لا داخل الخيمة ولا خارجها ، ولا وجدت جوابا في البر او البحر • ظلت المسألة معلقة على شكيبة • اذا كانت تحب زوجها فلن تحبني انا وينتهي الامر • ولكن اذا لم تكن تحبه ، او كان هو لايحبها؟ ثم اذا كانت لاتستطيع الا ان تحبني كما احبها ، فماذا بيدنا ؟ كل الناس يحبون • انا الحمار الوحيد الذي لم يحب، لذلك يستهول المسألة • قد تكون نائمة وانا ساهر • لاتأخذ وتعطي كما آخذ واعطي • هي تشتغل،جسدها يتعب ،ودماغها يستريح • هي مثلي قبل ان يهبط الفهم علي ، قبل أن تتساقط احجار الافكار على رأسي • وغدا يتعب جسدي ويستريح دماغي • اذا قالت : « لااريـد » ادعها • اترك لها الخيـار • اساعدها على ان تتصرف بحرية ، وبعدها لكل حادث حديث •

همد دماغي كما فار • لفني النوم بقميصي وسروالي الى الصباح • وقبل شروق الشمس كنت على الصخرة ، افتت الخبز للسمك • لم تكن العلفة جيـدة ، غير انها افضـل من لاشيء وكان الطعم عنـدي ، فقرفصت على الصخـر وقلت « يامعطي ! هذا يوم شكيبة » ولما حميت الشمس خلعت القميص والسروال • اذا علقت الصنارة لا اجازف بها • انزل المـاء واسبح مع السمكة حتى اتعبها • الصنارة كل عدتي • مغزلي

الوحيد .. على ذنب كلب يمكن غزل الصوف [1] ، ولكن بذنب الكلب لايمكن صيد السمك ! .

اقبل المبارك سربا وراء سرب . لو معي ديناميت اخرجت قنطارا . الشيلان [2] كان سبائك فضة . يتفتل عند جذع الصخرة ويلوح بذنبه وينزلق وراءبعضه كقطيع يطلب المرعى. ماكنت بحاجه الى قطعان . بضع سمكات تكفي ، وقد تزيد اذا لم تأت شكيبة ، او اذا رفضت ان تأخذها وتأكل منها .

شرعت اصطاد ، ولما تأمن لي من السمك حاجتي ،سبحت لانتعش بعد ضنى القلق الرهيب . دخلت عميقا في البحر . نظرت من اللجة الى الغابة : اي شيء يكون مصيري اليوم ؟ تأتي أم لاتأتي ؟ نلتقي أم نفترق ؟ واذا التقينا وافترقنا ؟ واذا لم تأت ؟

أتت . مع الضحى كانت في المرعى . كنت قد استحممت، وفركت جسمي بالرمل ، وتنشفت ولبست الشروال والقميص، وذهبت الى لقائها بغير سمك ، بنصف همة ونصف امل . درت

---

(١) اشارة الى المثل الشعبي القائل « الغزال يغزل على ذنب كلب » كناية عن المهارة والتغلب على العقبات .
(٢) سمك البوري الكبير .

حول المرعى ، وقفت قبالتها في مكان تراني فيه ، ولم اشر اليها او انده • كنت مثلي يوم رأيتها اول مرة • كان التأثر يعصف بي ، وظني انني كنت مضحكا ، كالفتى الذي يشله الارتباك فيتجمد ، وينسى الكلمات التي اعدها لفتاته وهو في طريقه الى موعدها •

معقود الكفين المتدليين على البطن • الرأس منخفض ، وتوسل خائف ينضح من جسمي ، وحالة معيبة من الضراعة في وقفتي • كل ذلك صار • اذكره تماما • انا الكهل عدت صبيا غرا لايحسن الكلام ولا التصرف • يترك للآخر ، للفتاة التي امامه ، للمرأة التي بين يديها مصيره ، ان تقول كلمتها في هذا المصير ، ان تقربه او تبعده •

تجاهلتني شكيبة • رأتني وتجاهلتني • تظاهرت برد بقرة الى المرعى • ابتعدت واولتني ظهرها • خطر لي انها ذهبت ، وانها ستسلك طريق الضيعة من جديد وتتركني • اعتزمت الا اتحرك ولا انده • في هذه الحال لاتريدني•ربما تشفق علي، وربما تذكر ماكان ، ولاجله حملت الصرة ، حسنة او مكافأة • انا اشكرها على معروفها • لاحقد ولا ضغينة • لتذهب بسلام ، فقد ربح زوجها ، انتهت المحاورة التي عذبتني

ليلة امس حتى الفجر ، هي له والسلام ، وانا لااحد لي ، لم يبق احد لي ، وعلي بعد اليوم ، ان اعيش على هذا الاساس .

كالقصبة التي غرستها في هذا الموضع امس ، انغرست بغير حراك اليوم . لم اعد انظر اليها . مااردت ان ترى التوسل في عيني . قررت ترك الخيار لها . مؤلم ان تشعر ان المخلـوق الوحيد الباقي لك قد تركك ، ولكن الالم يضني الانسان ولا يهده . يظل مع الالم يعيش ، يحبسه في صدره ويسكت ، ثم يذهب بعيدا ، ويحاول ان ينسـى . وقلت ان علي ان اذهب بعيدا لانسى ، ولكن اقتلاع القدمين من الارض كان صعبا . كانت قدماي كحجرتين ثقيلتين لاقدرة لي على نقلهمـا ، ولا رغبة حقيقية ، ولعلي لم أيأس تماما ، وكنت في وقفتي اتوسل اليها . بعيني ويدي وجسمي كله اتوسل اليها .

هذا هو الحب ؟ يجعل الانسان رقيقا ، مجوفا مثل الشبابة ، ومثلها يصفر بدون ان ينفخ فيه احد ؟ لاادري .. انا كنت الوم المحبين . لا ألوم بل اضحـك . كنت اسخر . كانـوا يقولون : فلان عاشق ! ماهو العشق ؟ ليأخذ امرأة اخرى ، يخطب او يتزوج فتاة اخرى ، يذهب وينام مع واحدة غيرها . كنت اجهل ماهو العشق حتى وقعت فيه ، حتى ضاقت الدنيا في

وجهي لاجله • ضاقت الغابة والبحر ، ضاق الفضاء الواسع • اقترب البحر والغابة •

سرت متمهلا ، متشردا بين الادغال ، انظر ببلاهة كئيبة الى ماحولي ، غير مكترث لشيء • احفر ، اضرب الاغصان بعود ، اجذف بذراعي ، انحدر الى البحر واسمع نواح الذين ضاعوا وغرقوا فيـه • النواح الذي يشبه بكاء الريـح وتأوه الشبابة التي في صدري •

كان حزني غريبا ومضحكا • قد لايكون حزنا بل اسفا ، عيبا ، مثل الخوف والنذالة • في ذلك اليوم حزنت ، مثل النساء حزنت • صـرت مسكينا مثل الـدراويش ، وخجلت من كل حالتي ، ونـدمت على الايام التـي فاتت ، لا لانني كنت فيهـا مجنونا ووحشا ورجلي في الدنيا كلها ، بل لانني كنت مقصرا في كل ذلك ، وسمحت لنفسي ، بعد حادث زخريادس ، أن اصير رقيقا ورخوا مثل العجين • تبدلت يازكريا •• مفتاح الشر كلمة ومفتاح النذالة خطوة •• العنب يرى بعضه فيسـود • الهرب جلب الخوف ، والخوف جلب الحزن ، والحزن جـر الرخاوة ، وماذا بقي من زكريا القديم ؟ امرأة ؟ ياإله الكون، صيرتني امرأة ؟ •

قضمت فردة شاربي حنقاً • عاودتني النوبة التي أحسستها عندما هربت وقتلت الكلب وخرجت عريانا من البحر • لو كان معي سلاح لاطلقت النار على نفسي • كنت اطلق على القلب، على الدودة التي في القلب ، هـذه التي تنخر فيـه ، وترعى وتجرد مثل الماعز في الشجر • الدود يكون في البطن فمـن اين جاءت الدودة الى القلب ؟ اصارع الدب واقلع سنديانة ، ثم اعجز ان امحق او ازيل دودة من قلبي؟صخرة كنتفصرت اسفنجـة • الصخرة حين تنحـدر من الجبل تتفتت ، تصـير حجرا ، والحجر في موضعه قنطار ، فاذا جرفه السيل •• انا حجر جرفه السيل ، صخرة فتتها السقوط ، اسفنجة تعصرها اصابع امرأة •• يقولون ان درب النذالة خطوة ، وانا سـرت فيها خطوات ، الكلب كان ذئبا كما قال عبعوب • افهم يازكريا• صار الموت طيبا • ربما يقبلك الموت الآن وربما تقدر عليه ، اما غدا فقد يفوت الاوان ، يعافك حتى الموت ، وتظل ارنبا عجوزا مجفلا بين هذه الادغال •

ياربي كمصارت نفسي الجبانة بغيضة الي في تلك اللحظة! حقدت عليها لا على شكيبة • قهرتني شكيبة • هزمتني•هزمني زوجها ولكن هزمني قبله زخريادس ابن اليونانيـة ، والكلب الذي نبح في الليل ، هزمتني الدنيا قبل ان تهزمني شكيبة •

قضمت فردة شاربي الاخرى • الدودة ترعى في قلبي• علي ان اقتلها او اقتـل نفسي • علي ان افعل ذلك في هـذه اللحظة • اضحك يازكريا ! القلب لايضحك • اضحك اقول لك ، اقتل الدودة ، اقتل أي شيء ، عد زكريا الـذي كنت ، اضحك ! القلب لايضحك • الدودة ترعى والقلب لايضحك •

الاسنان انطبقت وصرّت • تشنج الفك على الفك• اضحك اقول لك • القلب لايضحك • الاسنان صرت ، كدت اسحقها من الصرير • ان اموت او اعود زكريا الذي كنت • اناضحك او اموت ، في هذه اللحظة بالذات •• يكفي •• يكفي ! دارت الدنيا بي • فقدت اعصابي • ضـربت رأسي بجـذع شجرة امامي •• نطحتها لاقلعها او احطـم رأسي عليها • لم يعـد لشكيبـة علاقـة • انا والدنيا • الـدنيا ليس لها علاقـة • أنا ونفسي • حقـدي كله على نفسي ، على زكريا النـذل ، على رأسي النذل •

خبطته • خبطته • خبطته • كنت انتحر • لم يكن معي سلاح ، ولا قربي صخرة ،انا والشجرة ،وعلى الشجرة كنت انتحر • مافكرت بذلك بل نفذته • اختصرت المسألة • ضربت رأسي بالجذع حتى سال الدم من انفي • ضربته والدم يسيل من أنفي • خفت ان اتوقف فاتراجع • صار الضرب أعنف ، أعنف ، أعنف •• ثـم انتهى كـل شيء •• برمت الارض ،

رقصت الأشجار ، السماء هبطت ، والدنيا غامت . صارت ضبابا ، دخلت في الضباب واغمضت عيني ونمت .. كما انام على وسادة نمت .. لم أعد أشعر بألم ولا تعب .. النوم فقط، لو متّ لكان موتي نوما ، ولكان النوم طويلا هذه المرة .

على قميصي دم وماء . كان وجهي مبللا بالماء وكذلك عنقي وصدري . لم أمت وا أسفاه ! اغمي علي وسقطت عند جذع الشجرة . جاءت شكيبة وأسعفتني . كانت قد رأتني في وقفتي المستجيرة وتجوالي بين الادغال. شاهدت ترددي وحزني وغضبي وانفجاري وضربي رأسي بالشجرة وسقوطي عند جذعها . اخافها كل ذلك وارضاها . اعطاها برهانا على حبي فحملت الماء وسكبته علي . هزتني ، صفعتني ، ابتسمت في وجهي تشجعني على الحياة . لم تسألني ، كعادة النساء ، عن السبب فيما فعلت ، ولا اين كنت ، ومن اين أجيء . صمتت. وماعدا الابتسامة ، كان وجهها ، كما عرفته ، حييا ، ساكنا ، مكلثما ، وهي مطرقة قربي ، تعبث بالحشيش اليابس العفن ، وابر الصنوبر الدقيقة المتقصفة بين اصابعها .

على قميصي دم . على قميصي ماء . انا وشكيبة ساكتان ، كأن واحدنا يرى الآخر للمرة الاولى ، ويهم ان يكلمه فيخاف

ويرتبك•لو كان مافعلته كذبا لكنت اخشى ان تكتشف كذبي• كنت صادقا • كان صحوي من الاغماء ، وهي بقربي ، مبعث سروري ولا مبالاتي ، ولو نهضت وذهبت ماحرصت على ابقائها ، اشكرها بكلمة،بنظرة ، واودعها بغير حسرة ، وافارقها راضيا ومحبوبا •

لقد حاولت الانتحار ، وهذا الدم شاهد • وهي لم تسأل• تعرف ولهذا لم تسأل • تحس بالسعادة والقوة ، بينما احس بالخجل والضعف • اداري ضعفي وخجلي بالصمت ، وبالنظر الى السماء من رقعة بين الاشجار ، ويرشح ، مع العرق من جسمي ، استعدادي لأن أفعل ماتريد ، وأن أتبعها ، بغير كلام ، الى حيث تريد ، مأمورا طائعا ليس من الحب وحده ، ولكن من عرفان الجميل ايضا •

ـ هيا اخلع قميصك لاغسله فينشف بسرعة •

خلعت القميص وناولتها اياه • لم نتكلم • لم نتعاتب • يقولون ان العتاب صابون القلوب ، ولكن قلبي لم ينغسل بهذا الصابون ابدا • ماكنت اعاتب لانني ماكنت اعتب • ماعشته من الحياة كان دائما على الشاطىء،وهناك كان قلبي نظيفا مثل الرمل الذي يغسله الموج •• الذي بيني وبين شكيبة انتهى بغير

عتاب •• نسيت ماحدث • انطلقت الى الشاطيء • اصطـدت بعض السمكات وعدت الى الغابة • اشعلت النار •انتظرتها كمن اعد « السفرة » وراح ينتظر ضيفا ، ومن فرط حرصه علـى مجيئه يخشى الا يجيء •

كانت شكيبة قد غسلت القميص ونشرته على دغل ، ثـم ذهبت لاادري الى اين • لم اجدها حول البقرات • لم اقلـق ولكن عيوني كانت تبحث برغمي في كل الانحاء • جعلت اقلب السمك على النار وفي صدري يتقلب الفرح والوسواس • كنت نشيطا وعصبيا ، اتحرك بغير توقف ، والف سيكارة وراءاخرى برغم خوفي من نفاد التبغ • لقد اهاجتني • اشتهيت ان تجلس قبالتي وانظر اليها • اقف مثل الصبي ، مثل الخادم ، امامها • افعل كل ماتريد • لااتكلـم • واذا ارادت فلا تتكلـم • لن امسها • اقلع صنوبرة من شروشهـا اذا رغبت ولا امسهـا • احارب • اصارع •اقطع الطريق • كل مايرضيهاافعله، وافعل الذي لايفعل •• اترك المنطقة كلها باشارة منها • اتركها هي اذا طلبت •• غسلت لي القميص ، ورشت الماء على وجهي • صارت تركمانيتي عزيزة علي ، حتى لو سمحت لقبلت يدها • انا لااخجل اذا قبلت يدها •

بدأ نشيش السمك على النار • انتشرت رائحته في الجو • كان هدوء من حولنا • كانت طرواة وادغال من الخضـرة • فكرت : « لو تبقى شكيبة معي ! آه لو تبقى معي ! كنت أنسى عذابي ومدينتي • كنت اراهـا كل يوم ، نتحدث ، نعمـل ، نسير في الغابة ، نبني البيت ، ننشىء الحديقة،ونصنع القارب • كنت آخذها فيه ، اجلسها على طرفه واجعلها ترخي قدميها في البحر فاضنلهما ، وفي الجبل احملها على كتفي ، وفي أمسيات الصيف نستلقي على عشب الغابـة ونعد النجوم ، ونتنـزه في ضوء القمر ، وفي الشتاء نجلس حول الموقد ونسامر • • »

السمك على النار • قلبته ، انضجته ، تلفت ، تهيجت • رحت وجئت • نفد صبري • انطفأ فرحي • لماذا لـم تأت ؟ تذكرت انني لـم أقل لها عودي فهـل عادت ولم تجـدني ؟ جائز •• غبي انا، ماأشد غبائي! اضعتها ثانية اذن ؟ •• وكيف اعثر عليها ؟ •

سرت في الغابة • بحثت في كل الاتجاهات، تركت السمك وركضت صوب البقرات • رجعت كسيفا • تلفت في رجوعي فلم اعثر لها على اثر • اعترتني خيبة • تمنيت لو تحطمرأسي على جذع الشجرة وانتهى الامر •

ازحت السمك عن النار وقعدت في الفيء • لعنت نفسي وندمت على طيشي • كان الندم لذيذا ولم اكن اعرفه من قبل• تذكرت ركضي في الغابة وبحثي عن شكيبة ، وضعفي امامها ، وهواني معها •• ماذا بقي من رجولتي ؟ العيب ليس في هـذا لانه صار ، بل لانه انتهى بالخيبة ، لأني صرت في يديها مثل الطابة ، تلعب بها على هواها ، ترفسها بقدمها او تضعها علـى صدرها • قبل قليل كنت على صدرها ، والآن ترفسني بقدمها، وستبقى هذه حالي مادمت طابة في يدها ، ومادامت تدير لي ظهرها فأركض وراءها •

راجعت كل حساباتي فخرجت مديونا • استعدت قول الزير سالم : « زمان الدين عام واحد وبعد العام قد حل الوفاء »قلت في نفسي : انا هو الدائن والمدين ، وهذا هو زمن الوفاء • اذا لم اشد الحبل لنفسي جرتني وراءها الى الهاوية •

انجردت الى النار •• وبعصا في يدي انهلت عليها ضـربا وتفريقا • لم اكن قادرا على سحقها بقدمي العاريتين ،فبعثرتها واطفأتها بعصـاي • رحت التقط افراخ السمك فاقـذفها الى الادغال ، الى الشيطان • قلت : « الى جهنم الحمراء كل ماكان، وسيكون •• سأعيش وحيدا ، واواجه الدنيا وحيدا • سأفعل

ماأريد ، وانزل الى المدينة حين اريد،سأنتزع لقمتي اذاعجزت عن الحصول عليهـا بعرق جبيني • اغتصب المال والسـلاح والمرأة ، بل سأذهب الى اليونانية ليلا ، فاكممها واحملها الى هنا ، واضاجعها ، واجبرها على اسقاط حقها عني • سأجعلها تعترف ان ابنها زخريادس اخذ الذهب الذي كان في الحـوت وحرمني منه ، وانني طالبته فرفض ان يعيده ، فقتلته بذنبه •

خرت مثل الثور ، ورغى الزبد على شدقي مثل الجمل • انطلقت في الغابة عائدا الى الخيمة ، وفي يدي قميصي الـذي كان منشورا على الدغل • لكن شكيبة ظهرت بين الادغال كما اختفت • كانت تراقبني وتعذبني وتستزيد من ركضي وراءها وتدللها علي • هذه الجبلية تعرف مخـارم الغابة ومساربهـا بحيث تضيع فيها ضياع الابرة في القش ، ولا تستطيع فرقة من الدرك ان تتعقبها او تعثر عليها • كانت تقف خلف دغل ولا تتكلم • كانت ساكتة،ضاحكة ،هازئة ، مثيرة،بغيضة •قام في ذهني عداء لها • رغبت في ان اقهرها واغتصبها ثم اقتلها • ترددت في المضي الى الأمام او العودة الى وراء • دب حنق عليها في صدري، فلم تعد شكيبتي ، ولا حبيبتي ، بل قاهرتي،والشاهدة الوحيدة على جبني وذلي وعريي وكل مايجعلني اخجل لو تذكرته ، وكل مايدفعني الى حذفه من حياتي كيلا اتذكره •

وثوقها بنفسها ضاعف من حقدي عليها • وضاعفه وقوفها ساكنة ، لا مبالية ، وشعورها باني عائد اليها مهما ابتعدت عنها ، وانها ، في الغابة ، هي السيدة ، وفي الحب هي القويـة ، وفي الصراع هي المنتصرة • لقد تبدلت من قروية حيية ، ساذجة ، خائفة ، الى جبلية عنيدة ، فاجرة ، متحدية ، كأن ألف رجل مر بها ، والف رجل تمرغ على قدميها • خدعتني ولا شك • هي ايضا خدعتني • ضحكت علي مثل زخريادس • تظاهرت انها لاتريد شيئا كما تظاهر بانه لايريد شيئا • هو سقاني نبيذا ولم يأخذ ثمنه ، ثم كان الثمن كبيرا : ذهبي وحياتي • وهي نامت معي ولم تطلب اجرا، وتريد الآن الأجر غالياً، وانا الابله صدقتها ، واي شيء لم أكن أصدقه قبل ان أقتل زخريادس وأتشرد ؟ •

بقيت فترة ألف بين الادغال • كان سؤال واحـد يهرش في رأسي : اعود أم أذهب ؟ كان السؤال من باب الاحتيال ، ولم أكن بارعا في التحايل • شكلي لايساعد عليه • لاأتصور محتالا بجسم ثور مثلي • المحتال قصير ، ناعم ، خبيث ، مثل الثعلب ، وانا الذب أصلح للفرجة لا للحيلة • وكانت شكيـة تتفرج علي وتضحك في سـرها • كانت امرأة ، وكنت أظـن المرأة بنصف عقل ، أو بدون عقل ، بل أقل من لاشيء ، مثل

البطيخة ، مثل المجدرة ، اذا جعت أكلت منها والسلام . كان دورها اشباعي اذا جعت ، ثم لاكيان لها ولا اهتمام بها اذا شبعت منها . وهاهي شكيبة تبدو شيئا آخر ، امرأة أخرى أحتاجها في الجوع والشبع . دخلت دماغي بنت أمها . وجدت نفسي أمام لغز اسمه شكيبة ، ووجدتها مخلوقا في رأسه عقل ، وهي ليست بطيخة ولا آكلة مجدرة .

حيلتي في اللف بين الادغال لم تنطل عليها . تركتني اتخبط واثقة من عودتي اليها . كان رسني بيدها ، وكان هذا الرسن لايحتاج الى شد . كنت قد قررت العودة ، وكل ماتبقى ان تنده باسمي ، أن تأتي باشارة تستر تخاذلي . غير ان شكيبة لم تنده ، وبأقل مما يعامل الحيوان عاملتني . اختفت بين الادغال زيادة في النكاية فلما تلفت باحثا عنها ظهرت ، وسمعت صوتها هازئا بي :

ـ عم تبحث ؟

اضافت :

ـ لماذا رجعت ؟

ـ ابحث عن الطريق ، قلت .

ـ الطريق أمامك . كيفما سرت تصل الى البحر .

ـ وأنت ؟ أين كنت ؟

ـ في الغابة طبعا ، لماذا ؟

ـ هكذا •• أريد أن أشكرك على غسيل القميص •

ـ لاداعي لذلك •

ـ وأريد أن أشكرك على مساعدتي أمس • كنت كريمة ••

ـ ماكان يصح أن تبقى عاريا ، أين أضعت ثيابك ؟ بعتها ؟

ـ لا أحد يبيع ثيابه ويبقى عاريا ••

ـ من يدري ؟ •• لست صغيرا حتى تضيع ثيابك ، ولا طفلا حتى تتجول عاريا ••

ـ أخفتك ؟

ـ لا ، أخجلتني •• لايليق بالكبير أن يظهر عاريا •

ـ صحيح •• ولكن الظروف ياشكيبة •• أنا لن أنسى معروفك •

ـ انسه •• أنت تنسى بسرعة •• تحسب أنك تشتريني بسمكتين •

ـ معاذ الله ••

ـ قلت في نفسك شكيبة جائعة ، اذا أطعمتها ملكتها • اذهب • لست بحاجة الى سمكك •• أنت قاتل ••

دوت الكلمة في أذني كقنبلة • اعتراني خوف هزني أكثر من كل مامر معي منذ قتلت زخريادس • ليست شتيمة هـذه بل اتهام • انها تعرف اذن ، فمن أخبرها أنني قاتل ؟ وصـل الخبر الى الضيعة ؟ أبلغه الدرك الى المختار ؟ لماذا لم تش بي ؟ وكيف أتصرف أمام المخلوق الوحيـد الذي يعرف قصتي ؟ أعترف لها وأأتمنها على سري أم **أقتلها** وأتخلص منها ؟

كانت تنظر الي بثبـات • بقوة وشجاعة وشماتـة • فات أوان الرد • اضطرابي فضحني • سكوتي وشى بجريمتي • الضراعة التي أظهرتها لها بـدافع الحب أمس تعنـي العجز اليوم ، تعني الخوف من أن تخبر عني ، والتوسل كي لاتفعل • كنت قادرا أن أركع أمامها كعاشـق ، ومحال أن أقدم عليـه بعد ، مادام الركوع صار تعبيرا عن خوف لا عن حب • الآن فسد كل شيء •• الحياة معها أصبحت مستحيلة • وحتى لو رضيت هي بـذلك ، وقبلت أنا فسـأكون تحت رحمتهـا • تستطيع في كل وقت أن تجبرني على الخضـوع ، على النوم تحتها ، تركبني بدل أن أركبها ، تتبغدد علي لأنها فاضلة وانا خاطيء ، لانها بريئة وانا قاتل •

قررت أن أتخلص منها . خطر لي البحر فجأة . أسايرها حتى تطمئن ، ثم أغرقهـا فيه ، فتبـدو ميتتها طبيعية ، قضـاء وقدرا ، ولا يفطن أحد الى جريمتـي ، وفي المستقبـل أدبر طريقة للعيش بعيدا عن هذه المنطقة .

قلت متظاهرا بالعتب :

– سأذهب ولن أعود .. وقد سامحتك على أقوالك ..

أضفت :

– الله يعلم أنني مافكرت باغرائك بالسمك ، ولا أردت منك شيئا ، وما نسيتك منذ عرفتك .

نبـــرت :

– أنت تكذب .. مثل كل الرجال .

– وبم كذبت عليك ؟

– وتسألني ؟ تظاهر بالبراءة أكثر ، ياخائن الخبز والملح .

قاتل ! وجبـان ! وخائن الخبز والملح ! ثـم ماذا يازكريا ؟ اسمع شتيمتـك واسكت . ابلـع السكـين . هذا زمن بلـع السكاكين . انحن وقبّل الارض . ابتسم لها . دعها تضربـك فوق ذلك . ضرب الحبيب زبيب كما يقولون.أنت لاحبيب ولا هواء . ومع ذلك تضربك شكيبة . عليك أن تقبل يدها بـدل

ان تمضها • ليس لك أسنان لتمضها • الآن ليس لك أسنان لتمضهـا ! »

اقتربت منها • ظننت انها ستبتعـد • خـاب ظني • بقيت ثابتة ، لامبالية • • « قد لاتعرف من أنت يازكريا • هذا الطول والعرض في جسمك لاقيمة لهما في نظرها • المهم القلب •ان تملك قلبا شجاعا فأنت شيء ، وأن لاتملك فأنت لاشيء • ربما كان عليك ان تفهمها من أنت ، ان تصفعها بكل الحقد الذي في نفسك على هذا الزمان العكروت ، ولكن أي فخر لك أن تصفع امرأة ؟ ثم اذا فعلت ضاعت فرصتك في أن تلعب لعبتك معها • فقط لو تكف عن احتقارها لك • أن تصفعك أو تمزق وجهك بأظافرها ، ان تخرج من هذا الوضع المتحدي • -

ـ ياشكيبة ، قلت ، ماخنت خبـزك وملحك • وانا أعلـم أن هذه الثيـاب على جسمي منك ، وسيأتي يوم أكافئك • لقـد أكرمتك ، واحترمتك ، وانتظرتك ولا حق لك ان تتهميني بالكذب،ولا بخيانة الخبز والملح •اقتليني ولاتشتميني ••لوكان معي سلاح لوضعته في يديك لتقتليني•اقتليني ولكن لاتتهميني•• لا أحرص على الحياة • لاأريدها • حظي السيء هو الـذي منع رأسي من التحطم على الشجرة ، فلماذا أنت غاضبة ؟ وما سبب خصامك لي ؟

كان الدغل وحده يفصل بيننا • عيناها السوداوان صارتا في عيني • هاتان العينان كانتا ضارعتين ، خجلتين ومستسلمتين تلك الظهيرة ، كانت شكيبة أخرى وهي تحتي ، فما الـذي غيّرها علي ؟ ماذا جنيت ؟ ولماذا ، هي ايضا ، انضمت الى هؤلاء الذين ، بدون ذنب ، يعادونني ؟

– بحثت عنك كثيرا ياشكيبة •

– اعرف ، حين احتجت الي بحثت عني ، اما قبـل ذلك ، في اليوم التالي للقائنا في الغابة ، رحت تهربُ مني •• انتظرتك حتى المساء فلم تأتِ ، ولمـا رأيتني ركضـت ، كان الكلب يركض وراءك وينبح ليدلك على وجودي ، وكنت تركض حتى بلغت الماء ، والقيت نفسك في البحر وابتعدت عني •• هربت كأنني شيطان يطاردك •

لم أفتح فمي بكلمة • دهشتي عقدت لساني • كانت هي اذن ؟ وكان ذاك كلبها ؟ وانا الذي هربت ؟ أقول لها هربـت من الدرك لامنها ؟ اي جبان أكون في نظرها ؟ لا •• الأفضل ان تظل تعتقد انني هربت منها •

عادت تسأل :

– لماذا سكت ؟ ماقلته صحيح ام لا ؟

– • • •

- واين كنت طوال هذه الايام ؟ مع امرأة ؟ ، أعطيتها سمكا ؟

- كنت مريضا •

- المريض ينام في الخيمة ••

- أنا نمت في الدغل ••

- مع امرأة طبعـــا ! ••

- لاتتجنـي علي •• قلت لك كنت مريضا •• لـم يكن لي حيل على النهوض •

- وكيف قتلت كلبي اذن ؟

عدت الى السكوت • كان كلبها ، كان صديقا ولا شك • أكل من يدي سمكا واستأنس بي • جاء يبحث عني • كـان رسولها الي ، ومن شدة ذعري حسبته كلب الدرك وقتلته ••

سرت في جسمي نسمة ارتيـاح • تتهمني بقتـل الكلب لابقتل زخريادسّ • هي لم تكتشف جريمتي اذن •التركمانية عزيزة النفس ، ثائرة لظنها انني أغويتها مرة وابتعدت عنها • معنى هذا ان في قلبها مكانا لي ، ويمكن ان تصفح لو علمـت بقصتي التي لاأستطيع ان أقولها لها • قد يصير هذا يوما ولكن ليس الآن • ليس الآن •

– قتلت الكلب ام لا ؟

– بلى • كان ذلك بالخطأ ، سامحيني •

قلتها صادقا ، لا لأني قتلت الكلب ، بل لانني فكرت بقتلها هي أيضا • الدابة اذا تضايقت داست فلوهاءهم وضعوني في هذا « الزابوق »[1] • سدوا علي الباب بحجر مثل الخشخاشة ، ومن حلاوة الروح يشد الغريق امه او ابنه الى القاع • انا قتلت الكلب ، ولن أنسى النظرة الشرسة التي تجمدت في عينيه وهو جثة في الدغل ، وأنا آسف على قتله أكثر من أسفي على قتل ابن اليونانية • الكلب كان صديقي• أراد ان يكون صديقي ، أما زخريادس فقد كان عدوي •

– لن أسامحك ، قالت ، تعمدت قتله •

– ولماذا أتعمد قتله ؟

– هكذا •• كيلا يدلني على مكانك !

– ياشكيبة ! – قلت ملاطفا – لماذا لاتصدقينني ! انا لم أتعمد قتله ، لم أعرف انه كلبك ، والله يعلم انني بحثت عنك ، وناديتك في مرضي ، وسألت عنك النجوم والاشجار والهواء والماء • ولا أقول هنا لاسترضيك•ماعدت راغبا في استرضاء

---

(١) الزقاق الضيق المسدود •

أحد ، حتى ولا الحياة نفسها • انا أكره هذه الحياة وأكره نفسي في الوقت الحاضر ، ولا أبالي ان تصدقي او لا ، ان تسمعي لما أقول أو تذهبي ولا تعودي ، والأفضل ان تذهبي ولا تعودي ، عندئذ لايبقى ما أخاف عليه ، ولا ماأحرص عليه ، ولا مايشدني الى هذا المكان ، او مايمنعني أن أفعل ماأريد •

جلست أرضا بشكل جانبي كيلا تتقابل عينانا • كنت مطرق الرأس ، أنكت بعود في العشب واتكلم • كنت منفعلا ، آسفا لتفكيري بقتلها ، آسفا لقتلي كلبها ، تعسا لان زكريا الذي كان فيجلدي خرج ودخل زكريا آخر ، جبان ، عاشق ، ولان دودة كالتي أضعها طعما في الصنارة تعيش في صدري ، وترعى العشب الاخضر فيه ، ولان شكيبة هي السبب ، فاذا لم انتهمنها فلن انتهي من هذه الدودة ، ولن ارجع زكريا الذي كنت •

فكرت : « اهذا هو العشق يا الهي ؟ هذه هي البلوىالتي خبأتها لي ؟ ان أصير عاشقا في الاربعين من عمريوأخضرّ مثل النعناع انا البلوطة اليابسة ؟ من دعا علي هذا الدعاء ؟ فعلتها ام زخريادس ؟ صلت الى الله كي يعاقبني فعاقبني؟انتقمت مني؟ قتلتني كما قتلت ابنها ؟ ولكن ابنها مات ، والكلب مات ، وانا

لأموت ، أتعذب ولا أموت،والخلاص من العذاب هو الخلاص من شكيبة • علي ، الآن ان أنتهي من شكيبة ! •

نهضت واقفا ، محتقنا ، مهتاجا ، وصحت بها :

ـ اذهبي ولا تعودي !

تحدتني فلم تتحرك •

ـ قلت لك اذهبي ••

لم تتحرك •

ـ ألم تسمعي ؟

لم تجب •

اجتزت الدغل اليها غير مبال بالاشواك • عيناها ظلتا ثابتتين في عيني • ليست نعجة لتخاف الذئب • ولم أكن في نظرها ذئبا • وهي الراعية ، اعتادت على قتال الذئاب « ارفع يدك ان استطعت » قالت عيناها • وترددت •• « ربما كان علي ان أشهد عينين جاحظتين لجثة أخرى في هذه الادغال ، ولو وقع هذا فلست مسؤولا عنه • سأجعلها تفهم انني ذئب ، لتضربني بالعصا كما تفعل مع الذئب • يجب ان تعود شكيبة التي كانت لاعود زكريا الذي كنت » •

قبضت عليهــا من ساعــديها بكــل قوتي ، ورفعتهــا من خاصرتيها ، وزعقت :

ــ تتكلمين او ألقيك في الدغل ؟

لم تتكلم • ألقيتها • سقطت أمامي على ظهرها • تأوهت ولم تئن • بان الخوف في عينيها لحظة ، ثم انقلب الى تكشيرة هرة تتحفز للوثوب ، لكنها لم تثب ، وعندما نهضت واجهتني بسؤال غير متوقع :

ــ من أنت ؟ وماذا تعمل في هذه الجهات ؟

ثم شدتني من قميصي وقالت :

ــ ارمني مرة أخرى في الــدغل • انا لاأضرب رجــلا • في ضيعتنا المرأة لاتضرب الرجل • تقتله ولكنها لاتضربه ، وانا لن أضربك ولن أقتلــك • قلت لك انني لاأعطــي نفسي بالسمك ، ولا بالقوة ، ولاأخافك ، وأحس بالشفقة عليك ، لان حــدسي يقول ان لك مشكلــة ، وانت قلق ، وتكــاد تجن •• ارجع الى الخيمــة ، او اذهب في الغابة • لقــد سامحتــك ••

قالت ذلك وأدارت ظهرها بازدراء • عندئذ أحسست انها ضربتني بأوجع من الضرب • المرأة الجبلية لاتضرب الرجل

بل تقتله • هي لم تقتلني ولم تضربني • أشفقت علي ! كنت جائعا فأطعمتنـــي ، وعريانا فكستني ، ووحشـا فخلعت ثوبي بتعاليها • « انا سامحتك ! » قالت الفاجرة • ابنة أمها سامحتني! لاتريد تلويث يديها بقتلي • لماذا ؟ حشرة انا ؟ بقة ؟ يجب ان تقتلني • سأدعها تفعل اذا كانت تستطيع • هذا وحده يغسـل اهانتها ، ويغسله دمها ، ولكن انا لن أقتلها • اذا عجزت عن قتلي فسأسامحها بدوري ، ومثلها أدير ظهري وأمشي بازدراء•

ركضت وراءها :

ـ شكيبة ! ياشكيبة !

التفتت الي بوجه من حجر •

ـ ماذا تريد ؟ لماذا تصرخ ؟

ـ اقتليني •

ـ انت مجنون ! ••

ـ ولهذا أريد ان تقتليني •

ـ انت مجنون !

ـ وانت ؟

واصلت سيرها مستخفة بي •

ـ قلت لك اقتليني !

ابت ان تلتفت • ابت ان تسرع • لحقت بها ، وكضت فوقف في طريقها :

ـ هيا اقتليني •

عرضت عليها نفسي متحديا ان تفعل • تكتفت وأحنيت رأسي أمامها كما أمام السياف لتضرب عنقي • لتسحق رأسي بحجر • لتمزق وجهي وتفقأ عيني بأظافرها • أقبل كل ماتفعله بي ، الا ان تعتبرني لاشيء • لارجل ولا حشرة •

حاولت ان تتجاوزني وتمضي • أمسكت بها بقوة وصدري يغلي بالغضب • ما الفرق بين المرأة والرجل ؟ ليس ذلك الشيء قطعا • القوة او الضعف ليس في ذلك الشيء• ليس في جثة الثور او النعجة • أحسست انني سأكون الضعيف لو قتلتها • لو ماتت تظل هي المنتصرة ، ومثل نظرة الشراسة في عيني كلبها تظل نظرة الاحتقار في عينيها • حتى لو قلعت عينيها فلن أقلع الاحتقار الذي فيهما • الحل الوحيد ان تقتلني هي ، ان ترى في عيني تلك النظرة التي تريد ان أراها في عينيها •

رفضت العاهرة • رفضت القديسة • ركبها العناد •

الجبلية عنيدة بطبعها . المرأة ليست أفعى فقط بل نمرة أيضا. تنمرت علي . ولاول مرة في حياتي أدركت ان المرأة يمكن ان تكون تقية مثل صالحة ، عاهرة مثل اليونانية ، عاقلة مثل شكيبة التي ركبتها ، وملعونة مثل شكيبة التي تريد ان تركبني .. اما انا البهيم فما كنت أعرف من الرجل الا ان له ذلك الشيء، ولا أعرف من المرأة الا ان لها ذلك الشيء ، ولهذا فالرجل هو الأقوى ، الذي يغلب ، الذي يأمر ، الذي يكون فوق ، والمرأة هي الاضعف ، التي تكون من تحت ، وقضيت عمري الخائب على هذه القناعة التي تناثرت الآن على صخر وتطايرت مثل رذاذ الموج .

في ذلك اليوم خرجت من القماط وكبرت.وضعت أصبعي على النار فاحترقت فتعلمت ان النار تحرق . كنت ورشا شقيا في صغري ، وصرت عربيدا وحشا في كهولتي ، غير انني بقيت جاهلا حتى تعلمت على كبر . الآن لم يعد عبعوب« افوكاتو » بالنسبة الي . قد لا أعرف صف الكلام مثله . أتكلم في بطني أكثر مما أتكلم بلساني.أضحك ،أشتم ،أنطح الصخر برأسي، أتعارك ، أسير حافيا ، مخمورا ، أغني لنفسي وللدنيا ،للعاهرة التي اسمها دنيا ، ولكنني ، في داخلي صرت أعرف أشياء كثيرة . أعرف ان سروال المرأة ينزل أحيانا اذا وضعت فيه مجيديا او سمكا او كلاما حلوا ، ولا ينزل أحيانا اذا وضعت

فيه كل فضة العالم وسمك البحر ومواويل سيدنا سليمـان • ولا تسألهـا لمـاذا أو تتعب معها • لاتقتلهـا ولا تقتـل نفسك لأجلها • العشـق لايصير بالحكي ولا بالمـال أو القتـل • أنا لاأعرف كيف يصير ، ولا أنت ، وهـذه النعجة التي اسمهـا شكيبة ، هذه الذئبة التي اسمها شكيبة ، علمتني ذلك •

رفضت ان تقتلني بنت أمها • تحدتني ان أقتلها • ضاعت توسلاتي وشتائمي،وحين يئست منها وذهبت في طريقي لحقتني• قالت انها تصدقني اذا قلت لها انني لم أضحك عليها • ولكنها حذرتني ، ان كنت كاذبا ، بان تنتقم • لم تشأ ان أقسم لها • أعفتني من الكلام عن أصلي وفصلي ومشكلتـي • لأكن من أكون ، الا أن أكون كاذبا أو محتالا • كانت تطلب شيئاواحدا: الا أكون قد خدعتها • وفي فيء شجرة عجوز ، بين كيزان الصنوبر وابره ، جلسنا وتحدثنا • ظلت بعيدة ، مقرفصة ، تستمع الي وانا أحكي ماوقع لي منـذ ربطت الحـوت وقتلت زخريادس • هي لم تطلب ذلك ، ولم تكترث له اول الامر ، ولكن حين وصلت الى ماجرى لي بعد لقائنا الاول ، وكيف ألقيت نفسي في البحر وقتلت الكلب،ثم مرضي بالحمى ،جعلت تقترب مني حتى حاذتني ، وتعلقت عيناها السوداوان في وجهي المعذب بذكريات ماأرويه ، وبالندم والألم وكل مخاطر الايام

السابقة . رأيتها تبكي وانا أقص عليها كيف زحفت الى النبع، وكيف شرطت جلد الركبة لاستخرج القيح ، ثم كيف بقيت جائعا عاريا طوال أيام ، وكيف تمنيت الموت وخجلت من جبني وعاري ، وانتظرتها وتلهفت لمرآها .

– وياشكيبة ، قلت لها ، الذين هناك ، في مدينتي ، نسوني ، كنت صيادا ماهرا ونسوني ، وكنت بحارا شجاعا ونسوني، أضاعوني ، ولقيتك انت ، في هذه البرية ، فلقيت مدينتي . انت مدينتي . انت عائلتي وأصحابي ، انت كل مابقي وكل ماأريد ، ولاجلك ، كالحيوان المربوط الى وتد ، ارتبطت بهذه الغابة . حلمت في الليالـي ان أبني لك بيتا ، وأصنـع قاربا ، وأنشىء حديقة ، وآخذك معي الى البحر ، وأغسل قدميك في مياهه ، وأرقد الى جانبك في ضوء القمر ، وأجلس بجوارك حول الموقد ، وأغرس لك الازهار ، وأقتني سلاحا ، وأغـير اسمي ، وابدأ من جديد ، رجلا جديدا ، زوجا وعاشقا وصيادا وبستانيا .

مهدت لها العشب اليابس وانا أتكلم . الى جانبي فرشـت الارض وسوّيتها . وبدون دعوة زحفت حتى التصقت بي . كنا اثنين متجاورين ، متوحدين ، سعيدين ، تشاركا بالالم ،

وبرجاء زواله. كان أحدنا يتكلم والآخر يصغي ، وكلانا ينظر الى أمام ، وكل منا يلاحق الصورة التي تتراءى له:انا أسترجع مافات ، وهي تعيش ماتتصور ، والبيت ، والقارب ، والحديقة، والقمر ، والموقد ، وأحلامنا كلها تجسدت ـ وأبهجتنا .

اعتكر فجأة صفونا . نبق في دماغي زوجها الذي في الاناضول . كان زوجها على كل حال . كان خصمي وكان زوجها ، وربما ، كما خطر لي خطر لها ، ولكنها لم تقل عنه شيئا . وقد ترددت انا في المجيء على ذكره ، ثم الح علي فقلت وانا حزين :

ـ هذا ماجرى ياشكيبة . ماقلته صار.لم أخف شيئا.استرحت الآن .وحين سمعت كلمةقاتل من فمك اضطربت .ولكني الآن هادىء . أودعتك سري . تخففت من حملي ، وبقي شيء واحد أقوله لك ، كما فكرت فيه ، وكما قررت بشأنه .

عيناها ، في نظرة ضارعة ، ناشدتني الا أفعل . ومن اشارة يدي الى جهة الاناضول فهمت ماأقصد فأطرقت حزينة مثلي . كان هو العقبة التي ندور حولها ، في محاولة لنسيانها .

ـ ماذا بشأنه ؟ سألتها .

هزت كتفيها .

- الا خبر منه ؟

- لاخبـــر ••

- وتنتظرينـــه ؟

- هو زوجي ••

ماذا أقول لها ؟ هو زوجها ! لافائدة من النسيان • قـد نستطيع تجاهله ، ولكننا لانستطيع حذفه • سيظل في خيالنا ، وسنظل نأكل خبزنا من وراء ظهره ،وقد يكون هذا الخبز لذيذا لانه مخفي في العب وليس على طبق المائدة ، ولكن الى متى يدوم ذلك ؟

- حين يعود ، ياشكيبة ، لابد ان نتواجه • في ذلك الوقت ، اذا كان عنـدي بندقية ، سأضـع رصاصة في بيت النـار وأخرج اليه •

- تقتلـــه ؟

- قد يقتلني هو ، سيأتي مسلحا أيضا •

- وبعد ذلك ؟ من يقتلني انا ؟

- لاأحد •• تبقين له او تبقين لي •

- أعرف ، ولكن لماذا يجب ان يكون الامر كذلك ؟

ـ لاجلك ••

ـ أفهم لاجلي •• ولكن أما من طريقة أخرى ؟

ـ بلى ! هناك طريقة • نتصارع ومن يغلب يأخذك • نتبارز ومن ينتصر يأخذك ، وقد نتسابق ، لو كان لنا حصانان ، ومن يسبق يأخذك ، فكرت بهذا ياشكيبة ، ولكن ماالنفع ؟ لي صديق يفهم أكثر مني • صياد مثلي ، ولكنه غريب المزاج ، يشتغل مثل الحمار ، ويسكر مثل الشيطان ، ويقرأ في القصص • ربما لايقرأ بل يسمع ويحفظ • قال ان قبيلة انتصرت على قبيلة أخرى ، واختلف فرسان القبيلة المنتصرة على ابنة زعيم القبيلة المنكسرة حتى كادت الحرب تقع بينهم • الشيوخ حكموا في الخلاف •أفتوا بوقوف البنت في مكان بعيد ، على تلة ، ومن يسبق من الفرسان اليها يأخذها • قبل الفرسان وتسابقوا • كانت هي تحب واحداً منهم ، ولم يكن السابق ، فلما وصل اليها فارس آخر ، ارتمت عليه وصاحت : انت أخي ! سحب سيفه وقتلها ••

ـ وانت ؟ قالت شكيبة ، لو انتصرت على زوجي فقلت لك انت أخي ، تقتلني ؟

ـ لا ، انا لاأقتلك ، ماالنفـع اذا لـم تكوني لي بارادتـك ؟ تستطيعين الاختيار • اختاري ••

ـ هذا صعب ••

ـ كوني له اذن •

ـ وهذا صعب •

ـ كوني لي اذن •

ـ وهذا صعب ايضا •

ـ وما الحـــل ؟

صمتت • وبدوري صمت • كان الافضل ان نترك هـذا الأمر لحينه ، ألا نبحث عن حل نعرف أنه صعب • غير أنني وجدت نفسي قادرا على التضحية • كنت أحبهـا وقادرا على التضحيـة • قلت في نفسي : ادعها لزوجهـا وأذهب ، ولكي لاأستطيع العودة أسلم نفسي وأدخل السجن •• في هذه الحال لاأدخله بابن اليونانية بل بشكيبة •

ـ « هيه سافكلـم » (ايه يامحبوبتي !) قلت لهـا ـ انت تعرفين الآن مشكلتي • انا قاتل • يعني في رقبتي دم •الله يعلم انني لم أقتل عامدا متعمـدا • ذلك اليوناني سرقني • أخـذ الذهب الذي كان في جوف الحوت • انا لم أحصل على ذهب

في حياتي •• الرشادية ، وام حصان ، والعثمانية سمعت بها ولم تقع في كفي • فقيرا عشت ولم أسرق•ماطمعت بمال أحد، وما بخلت على أحد،ولكن ماتركت أحداً يسرقني •زحريادس فعلها • والشيطان، وأولاد الكلب وسوسوا في صدري •• لو قال لي : « خذ هذه العثمانيــة يازكريا واشرب من عنـدي بالباقي كنت رضيت • ماأملكه ، اولا وأخيرا ، له • ولكنهانكر الذهب • ضحك علي وأنكر • استغباني •• وضعني في خانـة الحمير • باختصار قتل نفسه على يدي • الله قاصصه بواسطتي، ولكن القاضي لايقبل مثل هذا الكلام • اذا مات زخريادس فسأموت ، وحتى لو أكرمني وبقي حيا فسأدخـل السجن • مصيري معروف والحكومــة هي الحكومة ، والمصـاعب على الطريـق • وانت ماذنبـك لتشقــي معي ؟ عودي الى بيتـك وزوجك •• هذا هو الحل •• وداعا !

افترقنا • بكت شكيبة وافترقنا • مضيت في طريقي • لـم التفت الى وراء • كنت فخورا • العمل الصالح يجعل صاحبه فخورا • هذا عمل صالح ، أراحني ، ملأني بشعور الرضى •

غنيت في طريق العودة • الغابة صارت جميلة • قطفت زهرة وشكلتها في اذني •• الليلة انام سعيدا • شكيبة لاتعذبني بالحـرمان لأنهـا صـارت لي ، ولا تعذبني بالاحتقــار لأن

فعلتـي أرجعتني رجـلا في عينيهـا • الحمد لله أنني لـم أتورط في قتلها كما قتلت زخـريادس • تنازلت عنها كما يتنازل الانسان الجائع عن رغيف طلبه منه آخر بلطف ، بنظرة استعطاف لاتقاوم •

سرت الطريق كله مبتهجا • عدت زكريا المرسنلي ايام زمان • زكريا الذي يتوحش مع صياد ضايقه حتى ليهم بالقائه في البحر ، ولكنه ، باللطف ، يعطيه صيده كله ويسكر ليلتـه بالـدين •

شعرت بفراغ من مشكلة كبيرة ، أكبر من قتل زخريادس نفسه • اصطدت السمكةالتيعذبتني •انتصرتفي المعركة معها ، ولما صارت في كفي وهبتها للبحر • ايها الازرق انت ، يابركة كبيرة من دموع السماء ، ياصينيـة واسعة من أشعـة الشمس وضوء القمر ، أمس كنت في عيني حفرة من الليل ، وكنت مقبرة ، ومعصف ريـح ، واليوم تغيرت • أنا تغيرت • صـرت كفؤاً لك • أعدت سمكتـك اليك • تركت شكيبـة لزوجها ، صار لدي وقت للسمر معك ، وللغناء على شاطئك • الليـلة نغني معا • منك العتابا ومني الميجانا •• يابحر ، كل العيـون عيون وانت عيوننا •

ماهمني طعام ولا شراب ، ولا كدرني خاطر عن مدينتي •

ريس انا •• قبطان ولا مركب • لايهم المركب • « ماريا التي سوسحت القبطان والبحارة » والمركب كانت لي • خرجت من الماء لي • تماركنا بين الأمواج • نزلت اليها في اللجة • قلت : اقتليني ولا تتركيني • اغرقيني ولا تهينيني • انت بنت الماء ، والماء لايخيف صيادا مثلي • هنا ولدت ، وهنا أموت •• الغابة ليست بحرا ، ولكن ماالفرق ياشكيبة ؟ ماكنت أخاف منه هو انت ، وما كنت أخاف عليه هو انت ، وها أنا ، أخيرا ، وانت، وواحد منا في المعركة ينتصر او يموت !

من الذي انتصر ؟ ولماذا أسأل ؟ ربما هي وربما انا •• ولكن انا وهبتها •• أخرجتها من الماء ووهبتها •فزت بها في الغابة ووهبتها ، وبشعور الواهب عدت الى خيمتي ، ولاجل هذا الشعور ، هذا الفخر ، هذه العودة الى زكريا الذي كان ، الذي مات وعاش ، عزمت الا أموت ثانية ، ان أتقبل الرصاصة في صدري لاظهري ،والحبل على عنقي لايدي •• لن يطاردوني كأرنب مذعور بعد اليوم ، ولن يدخلوني الدغل كذئب جريح •• يكفي يازكريا ، ايها الصياد العجوز ، يارابط الحوت ، اليوم ربطت انثى الحوت ، ولكنك أبيت ان تبعج جوفها وتخرج أمعاءها لأجل زخريادس •• أعدتها ، كرما ، الى صاحبها ، أطلقتها وقلت : اذهبي يامباركة ، ياحبيبة ، واذكريني ، او انسيني ، سيان ! صيادك عاد صيادا ، وهذا هو المهم •

على الشاطىء تعرّيت . خفيفا كالذي أنزل حملا ، نشيطا كالذي عاد شابا ، أسلمت نفسي للبحر ، وذهبت فيه بعيدا بعيدا راغبا الا أعود .

ولكنني عدت .. كانت النجوم فوانيس حمراء صغيرة معلقة في السماء الصافية ، ونسمات الليل الطرية منعشة وهي تلحس وجهي وصدري ببرودتها العذبة ، والقمر الصاعد وراء الغابة يبتسم بفم أبيض ، تخرج منه أنفاس حليبية تضيء رؤوس الاشجار والادغال ، وتصنع الظلال، وتجعل الليل مهيبا وعميقا كالبحر .

ارتديت ثيابي ودخلت الخيمة فاضطجعت أفكر بالغد. كان علي ان أرحل الى الطرف الآخر من الغابة ، وراء المنارة بأميال . هناك أبني خيمة جديدة ، أصطاد وأبيع الصيد للسيارات التي تمر على الطريق العام . أشتري ماأحتاجه من عدة لصنع القارب والبيت والحديقة . أشتري خنجرا وبندقية ،وأربي كلبا. سيكون لدي ،في مقبل الايام ،كثير مما أعمله، وسأعمل كل شيء في وقته ، وبلا خوف من احد .. ولو جاؤوا يوما يطلبونني ، أدخل البيت وأتمترس . لن أخرج الا جثة .. وليفعلوا ، بعد ذلك ، بجثتي ماشاؤوا ..

مضى الليل ساكنا فاتنـا وانا أفكر بحماسـة • كنت على انسجام تام مع نفسي • أعصابي هادئة كأنما انا في بيتي وعلى فراشي • كنت أستعجل الصباح لارحل ، وقد طغت الرغبـة فيالرحيل على كل شيء • انقطعت كل الحبال التي تربطنـي بالآخرين ، هنا او في المدينة •

غير ان النوم الذي تمنيته لم يأت • كان كل شيء يتسلل كلص ماهر الى قلبي • غافلني ذلـك الشيء ، ذلك الحنـين ، ورشح من جدار الصـدر ، وتفشى وتبقع على مهـل دون ان أنتبه اليه • بردت حماستي • انقطع عنائي • المشاريـع التـي استثارت خيالي كفت عن الاثارة • القمر الفضي ، في السمـاء الصافية ، شحب • لفتني وحدته وبرودتـه • انبعث في قلبي أسى ، كالذي يصيب المرء عند وداع الاشياء التي ألفها •

عزوت ماطرأ علي الى الجوع • هممت بتناول ماعندي من بقايا الخبز فلم تسعفني الشهية • قلت ان مابي سببـه دخولي المبكر الى الخيمة ، والليـل طويل ، وانا في أولـه • خرجت وجلست على الصخر • أصغيت الى أنين الموج فازدادانقباضي• كيلا أفكر بالمدينة أدرت لها ظهري • لم أجرؤ على النظـر الى الغابة • خطر لي ان أقفز الى الماء وأغوص مرة أخرى في

أعماقه • بل خطر لي ان أذهب الى المنارة ، وأدور حولها فأكتشف ماهناك ، ثم أمضي على الشاطىء وأستطلع المكان الذي سألجأ اليه •

لم أنفذ واحدا من هذه الخواطر • عبثا تعلقت بحبل النجاة لاتفادى السقوط في بركة الحزن • ماأقدمت عليه اليوم من ترك شكيبة لزوجها أعطاني ذلك الحبل • أعطاني الفخر والزهو والسعادة ، وهذه الوجبة من الاريحية شغلت الدودة التي في داخلي • أشبعتها فكفّت عن قرض أحشائي • ومع مضي الوقت عاد الجوع ، ونشطت الدودة ، ونبع التضحية غاض • استفاقت جراحي وآلامي ، واستسلمت ، لحظة بعد أخرى ، لحالة من التعاسة التي كنت عليها في الصباح •

مع ذلك صممت على المقاومة • الجرح لايؤلم وهو حارّ ، والمجروح لايتألم بعد الجرح مباشرة • مقاومة الأوجاع تأتي بعد ذلك • العض على الشفتين ، والعرق قطرات على الجبين ، هو المقاومة عندما يبرد الجرح ، وقد عرفت ذلك في حياتي ، واحتملته • ذقت حرقته ولذته ، وعلي الآن ان أحتمل ، ان أعض على شفتي وأقاوم أوجاعي •

صار تمسكي بقراري امتحانا لرجولتي • الحماسة كانت ضرورية في البدء • كانت الموجة التي حملتني الى الشاطىء ،

والمقاومة صارت ضرورية كيلا أعود الى الماء برغم نداء اللجة الآسر • تبينت ، في وحشة الليل ، ان شكيبة لم تكن حاجة جنس ، ولا رفيقة وحدة ، ولا سمكة قيمتها في اصطيادها • قد تكون كل ذلك ولكنها أكثر أيضا • كانت حبيبة من الصعب هجرها ، ولكن من الواجب التضحية لاجلها ، وهذا عزائي • لقد ضحيت ، وربما كان ذلك في نوبة نخوة ، في فورة حماسة، ولست نادما على مافعلت ، ولكن الجرح برد ، والألم اشتد ، وهذا الشوق الذي ينهش قلبي ، وهذا الوعد الذي قطعته على نفسي ، والليل ، والقمر والبحر وانا •• ايه ! كان ذلك ضربة خنجر وكان الخنجر في الظهر ،وخيل الي ان أحداً لايستطيع انتزاعه سواها ، وانها هي لاتريد انتزاعه ، وعلي ان أحترم ارادتهـا •

اضطجعت في مكاني على الصخر •لو غار الصخر في البحر وغرت معه ! لو عام كلوح وعمت معه ! لو خرج حوت وابتلعني ! لم يعد ثمة ماآسف عليه • وماعشته يكفي • لقد شخت • صرت زائدا مادام أحد ليس بحاجة الي ، وما دمت أعيش مطاردا ، منبوذا وملعونا •

حملقت في السماء ببلاهة • همدت كجثة في فلاة ••مضى الليل ، والقمر صار فوقي ، والغابة من ورائي ، والبحر مدى

من زجاج ، وصمت ، ونباح يقطع الصمت ، وينطفىء مثـل النجم المذنب ، مثل العواء الأصم ، مثل الخشخشة التي تعلو في دغل ، وتنتقل الى دغل ، وتسكن ، ثم تعود ، وتخيفك ، ثـم تخيفك ثم تعتادها ، وتأنس بها .

كنت قد اعتدت كل هذا الجو وصرت جزءا منه.توحشت وألفت الوحوش . ومغارة الليل في الغابـة لم تعد تخيفنـي ، ونواح البحر على الشاطىء المقفر ماعاد يحزنني ، والخشخشة التي سمعتها في الدغل ، عند قدم الصخر ، أسمع مثلها كـل ليلة .. تجاهلتهـا ، وبقيت مستلقيا ، محملقـا ، تائها كقشة في مسقط ماء .

على وجه القمر مرت غيمة . ظلها مر فوقي . والخشخشة في الدغل تميزت بمروق جسم ، حفيف ثيابه بالاغصان كان جديرا بان يلفتني لولا انتفاء كل خاطر بوجود بشر قربي في هذه المنطقة الموحشة وهذا الوقت الموغل في الليل .

لكن الجسم اقترب من الصخر.احساسي به صار واضحا. وتبادر الى ذهني انه دب ، وان يده المشعرة ، المخلبية ، ستنحط على قدمي ، فسحبتهما بحركـة غريزية ، ووثبت واقفا وانا أرتجف خوفا وتوفزا .

عند جذع الصخرة كان انسان • وفي الظل ، بين الدغل والصخرة ، يقف ، والقمر الذي اولاه ظهره لاينير وجهه • ربما كان الغطاء المعصوب بـه الرأس قـد جعله غريبا علي ، فصحت به :

– من أنت ؟

ارتفع الرأس ••

– من أنت ؟

استدار الجسم فسقط ضوء القمر على الوجه • طالعتني عينان ساكنتان ، حزينتان ، فيمـا كانت يد تفك العصابة عـن الرأس وتتجلى لي طلعتها كما في الحلم •

– لا أصدق ! هتفت وانا أقفز اليها ، لا أصـدق ياشكيبة ! ياحبيبتي ، وفي هذا الليل ؟

– خفت ان ترحل ، قالت ، قبل ان أراك •

– كنت سأرحل صباحا ••

– تستطيع ؟

كدت أجيبها : « نعم ! » وددت اخفاء الجرح وعذابات المساء • أردت ان أكذب ، ان أتظاهر بالقوة ، وبالقدرة على

التصرف كرجل كلمته واحدة ، لكنني أمام نظرتها تحرجت . كانت تعرف لانها عانت ماعانيت ، وما أدري لو كنت أعرف بيتها ، اما كنت غامرت وذهبت اليها كما جاءت الي ؟

ظل سؤالها معلقا . ماكنت قادرا على الجواب . مجيئها وفّر علي الجواب . واحدنا مع الآخر وهذا هو المهم . جلسنا على طرف الصخرة ، في ضوء القمر ، وراءنا البحر وأمامنا الغابه . تعذر علينا ان نقول الاشياء التي في قلبنا . خفنا ان نتكلم عن القضايا التي لاحل لها . زوجها ، ومشكلتي ، والحياة الشقية لامرأة ترعى قطيع الضيمة لتعتاش ، والحياة الاشقى لرجل قاتل ، مختبىء ، فارّ من وجه الحكومة . من الذي جمعنا ياربي ؟ قتلت زخريادس لا لاجل الذهب بل لآتي الى هنا والتقي بشكيبة ؟ وسافر زوجها لا ليعمل بل ليتركها فتأتي وتلقاني ؟

هي معي . بقربي . استطيع ، في هذه اللحظة ، ان أدخل معها الخيمة وننام . ولكن هذا يحدث غدا ، في النهار ، اما الجلوس في ضوء القمر ، وسهرة مع انسان ، مع امرأة ، مع حبيبة ، بعد طول ليالي الوحدة ، فانه لايعوض . ربما يقبض علي في الليلة القادمة ، وربما أقتل ، وقد لاتأتي هي ، وقد نفترق فلا نلتقي ، من يقرأ الغيب ؟

حاذرت ان ألمسها • العزيزة خفت ان ألمسها • تأملتها بطرف عيني • بهية وفاتنة رأيتها في ضوء القمر • عجزت عن الكلام •أحسست بحرقة الخوف من فراقها يوما ، وكدت أبكي للتعبير عن تأثري وشكري • تذكرت ذلك الفتى مع فتاته في الغابة ، وكيف كان يقول لها كلمات الحب ، ويركض وراءها، ويشدها فتسقط ، ويرتمي الى جانبها ، ثم يقطف زهرة برية ويشكلها في شعرها ، وخطر لي ان أقوم بحركات مثله ،ولكن كيف أفعل ؟أقول لها اركضي لاركض وراءك ؟ واين الزهرة في هذا الليل ؟ وماهي الكلمات التي يقولها الرجل للمرأة في ضوء القمر ؟

هبطت البحر فجأة • كانت قدماها مدلاتين عن الصخرة • نزعت الحذاء ، وحفنت الماء براحتي ورحت أغسل قدميها • غسلتهما وقبلتهما • كانت حركتي مضحكة ، ولكنها ، بالنسبة الي ، كانت الوحيدة الممكنة ، وقد أضحكتها هذه الحركة ، وأدهشتها ، وحاولت ان تخلص قدميها فتشبثت بهما ، وعبثا صاحت ان ذلك لايليق ، وتوسلت الي ان أكف ، حتى اذا نجحت في الوقوف ، تعربشت بالصخر وصعدت اليها ، وعانقتها، ودخلنا الخيمة ، وتمددنا ولهونا ، وغمغمنا بكلمات ، وعنقها ملتو ، كأنها تلفظ الروح • كانت تئن ، تئن ، ولا تتكلم ،

وتتنفس بعمق ، وتتمطى ، وتميل بصفحة خدها من جهة الى أخرى ، ولا تتكلم •وتسارع انينها وتسارع ، كأنما من جوفها من أظافر قدميها الى رأسها ، يتصاعد شيء ، ينسلخ ، وهي تتوتر ، وجسمها يتمدد ويتقلص ، بشراسة وعنف وعدوانية، وتخرج من شفتيها شهقة كالتنهدة ، كالبكاء المكتوم ، وتضغط على جسمي بذراعين قويتين وتبقى كذلك لحظات وهي تتأوه •

قفزت من الخيمة الى البحر • نصحتها ان تفعل مثلي فرفضت • قالت انها لايمكن ان تفعل ذلك أمامي • قلت : « لاانظر اليك • أدير ظهري او أبقى في الخيمة » أقسمت ، ولم ابر بقسمي • من ثقوب القش نظرت اليها وهي عارية ، تسير حذرة على الرمل ثم تنحني على الماء فتأخذ حفنة وتمسح جسمها لتألف برودته قبل النزول فيه • ظلت تفعل ذلك ، تنحني وتنتصب ، وقامتها أمامي ، تحت ضوء القمر •الصيادون، على الشواطىء المقفرة ، يتوقعون خروج المرأة ، الجنية ، من البحر ، اما انا فقد خرجت جنيتي من الغابة • جاءتني من بين الادغال والاشجار ، صلبة جريئة مثلها ، ودافئة وشبقة الى حد الصرع ، وقد كانت معي،بين أحضاني ، ولكنني لم أتمتع بفتنة جسدها كما تمتعت وهي على الشاطىء ، تغوص ، كما قرص

الشمس ، في الماء ، وتختلف عنه انها بيضاء ، حليبية في ضوء القمر ، وجسمها ، على البعد ، يبدو ممشوقا ، مصقولا ، لامعا ، وردفاها مدورين ، وشعرها الاسود يتدردر على ظهرها .

حبست أنفاسي . سألت الله ان تستدير الي بوجهها لارى صدرها ونهديها ، ولما حدث ، قبل ان تغطس في الماء ، فقدت سيطرتي على أعصابي . خرجت من الخيمة ، فصاحت « أمان .. يابما » [1] وألقت نفسها في البحر لتحتجب عني ، فألقيت ، في نفس اللحظة ، نفسي في البحر سابحا اليها كالدلفين . لم أفعل ذلك ، وحق الله ، بوعيي . كان عملا وحشيا مني . كان اغتصابا لامبرر له ولا حاجة . كانت عودة الى جنون الماضي ، ومعاملة حقيرة تستحقها اليونانية لا شكيبة ، ولكن ماذا ينفع اللوم ، مادامت هي ، بردفيها ، بنهديها ، بجسمها ، بالقمر الذي ينسكب شلالا أبيض على ردفيها وجسمها ، قد أخرجتني عن طوري ، كما حدث لزخريادس ، مع ساطور « البسطرمة » الذي كنت غافلا عنه ؟ .

الفرق انني ، هنا ، لم أكن قاتلا . كنت عاشقا ، زكريا الحقيقي ، لا ذلك الفتى الذي أردت تقليده . كان هجومي

---

(1) لاتفعل اتوسل اليك .

عليها ، وهي في البحر عارية ، مغسولة ، مضاءة بالقمر ، عفويا ، همجيا ، من فعل الشهوة ، ومن جنونها .

لافائدة ! دمي ملوث . لوثته الخمارات والعاهرات والبحر والشاطىء . وكم رجتني صالحة ان آتي وأسكر في البيت . في جو نظيف ، وقدح مغسول ، ولقمة أعدتها بيدها ، وكنت أسمع منها ، وأجلس على المصطبة ، في ليالي الصيف ، أشرب وآكل ، وأقوم معها الى الفراش ، وننام، ولكنه كان ثقيلا ، بغيضا ، رسميا ، ذلك الواجب الزوجي اللعين ، وكانت النظافة ، والمائدة ، والفراش لاتثيرني ولا تلذني . الخمارة وحدها ، بقذرها ، بصخبها ، والشاطىء برائحته المزنخة ، والعاهرات يفجورهن ، على الرمل ، في العراء ، لذتي وهواي .

احتويت شكيبتي وهي عارية في الماء . جسدها الغض المبلل ، صار بين يدي . حرصت ، رغم الانفعال ، الا أوجعها ، فانزلقت مرة ومرة من كفي . كان تملصها لذيذا لو كان لعبا . لا أجمل من اللعب في الماء ، ولكنها أرادت الهرب . تعمدته . وكيف ؟ السمكة تهرب من الدلفين ؟ وهي ليست سمكة ، والبحر ليس غابة ، وانا صياد .

غضبت . هددتني بالضرب ، بالفراق ، شتمتني ، لم ينفعها

ذلك ، لحقتها ، وبلطف فتحت لها ذراعي ، فردت بلطمة على وجهي . حسبتها تهارشني فأمسكت بهـا . تركتها تلطمني ، تضربني ، وتعضني ، وهي الجبلية كانت جادة ، ولو استطاعت لقتلتنـي . انقلب اللعب الى عراك . وجدتني ، بتأثير غضبهـا وأظافرها في وجهي ، أرفعهـا من الماء ، وأحملهـا بالقوة الى الشاطىء . وفيما انا أرفعها من خصرها كطفلة ، كانت قدماها وقبضتاها تنهالان باللكمات على رأسي وبطني ، ثم عضتني . أسنانها غرزت في كتفي . أدمتني ابنة أمها ، وأيقنت ان كـل شيء بيننا قد انتهى . أفسدته انا . عاملتها كسبية . بلا شرف كنت ، وفات وقت التراجع .

على الرمل المبلل طرحتها . قاومت كثيرا ، وبقدر عنفهـا في المقاومة كانت حدتي في الامتلاك ، ولما نجحت صحت بهـا « شكيبة ! ياشكيبة أحبك ، ولهذا ياشكيبة ، أريدك ، وجننت لانني أريـدك .. كفي عن ضربي .. سأعتـذر اليك عنـدما أخلص ، سأقبل قدميك ياشكيبتي ، ياحلوتي ! » .

لم تشأ ان تكف . ظلت تشتم ، وتضرب ، ولكنها ، مع الوقت ، تحركت ، صارت حارّة وتحركت . تراخت ضرباتها ، تراخت وتقطعت ، وبكت ، صارت حارة أكثر وشهية أكثر

حين بكت ، استسلمت ، وغمغمت «لن أعود اليك •• وحش!» ولكنها ، بعد قليل ، كانت تحتضن الوحش ، وكانت ذراعاها تشدان على ظهري ، وشفتاها في شواربي ، في فمي •• ثم غبنا ، والقمر غاب !

تركتها وابتعدت • ماعاد الندم ولا الخجل ينفعان • شعرت بقرف من حالي ، وبخسة ونذالة مما فعلت • قلت في نفسي : « لست جديرا بهـا ، انا الماخوري • هيا • لايصلح غلطتي شيء ، وبعد ان ترتدي ثيابها ستذهب • ستتركني وتذهب ، ثم لاتتأسف علي ولا تندم • ربح زوجها وخسرت • التضحية كانت خدعة • عواطفي الشريفة كانت كذبة ، ومقاومتي انهارت مثل بناء من رمل •

اختبأت وراء الخيمة كيلا أراها • صار همي ان تذهب ولا أراها • استعجلت ذهابها لانفرد بنفسي ، لاشرع بهدم خيمتي والرحيل مع الفجر •• ولكن عندما برزت بعد دقائق وجدتها حيث هي ، مستلقية على الرمل • عارية غير مبالية بشيء • السبية ، بعد استباحتها ، لاتذهب • الفتاة ، بعد اغتصابها ، لاتذهب ، تظل في مكانها ، منسحقة ، لاصقة بالمكان الذي افترست فيه • سمعت ذلك وعرفته على الشاطىء ••

وآلمني ان تكون شكيه في هذا الوضع ، وان تحس بهذا العذاب • صار وجودها اتهاما وبقاؤها ادانة ، صار تقريعا وتعذيبا • هممت ان أصرخ بها : « اذهبي من هنا ! لاتبقي نائمة هكذا ، ولكنني لم أجرؤ على رفع صوتي •

ظل صمتها مرهقا لاعصابي • لاتذهب ولا تتكلم • بل لاتتكور او تجلس مقرفصة • كانت متمددة ، مسترخية ، شاخصة الى النجوم ، والقمر يضيئها • سمكة فضية كبيرة ملقاة على الشاطىء والقمر يضيئها • جنية بحر خرجت من الماء الى اليابسة ، واستلقت على الرمل مستمتعة برؤية الارض بعد ان ملت البحر • ولكن هذه السمكة ، هذه الجنية ، كانت لي قبل قليل ، وكانت ستبقى لي ، لو لم أغتصبها ، لو لم أجرح شيئا في نفسها ، في كرامتها •

أخيرا ضقت بصمتها واستهتارها بوجودي • أدرت لها ظهري وذهبت في الاتجاه المعاكس للشاطىء • مشيت بطيئا ، كارها ، مثقلا بذنبي • سرت بعيدا ، ولما عدت وجدتها في مكانها ووضعها واستلقائها وهمودها • ولاني لم أعد أحتمل ، وساورتني ظنون ان تكون غائبة عن الوعي او ميتة ، فقد اقتربت منها ، ووقفت الى جانبها فرأيت عينيها السوداوين

مفتوحتين ، سادرتين ، شاخصتين في الفضاء •

قرفصت قربها • تأملتها • مسحت جسمها العاري كله بنظراتي • رغبت ان أقبلها كلها وأستغفرها ، تحركت لألفتها الي فلم يجد ذلك • لم يخرجها عن صمتها ولا مبالاتها •

ـ ياشكيبة ! ، قلت لها ، صار الذي صار • ماأردت أذيتك • الحق على القمر ياشكيبة ، والله الحق عليه •

تطلعت هي الى القمر ولم تقل شيئا ! أضفت :

ـ والحق عليك ! لماذا أنت جميلة؟مااستطعت ضبط أعصابي••

ـ ولكنك أقسمت ! قالت بحدة •

ـ الحق على القمر ، أقول لك •

ـ القمر لم يفعل شيئا ••

ـ انت لاتعرفين •• هو السبب ••

قاطعتني :

ـ وانت •• من تحسبني انا ؟ مادخل القمر ؟ اذهب من هنا ••

جلست مغضبة وأضافت :

ـ الا تخجل ؟ وتأتي الي أيضا ؟

ـ وانت ؟ لماذا لاتذهبين ؟

ـ هذا من شأني •• دعني ••

ابتعدت عنها ••

ـ انا نذل ، قلت ، أعترف بـذلك • ولكن القمـر •• وانت عارية ! اذهبي ! يجب ان تذهبي ••

ـ واذا لم أذهب ؟

ـ واذا طلع الضوء ؟

ـ ليطلـع ••

بقينا صامتين • متباعدين وصامتين • وهي تنظر الي بقهر ورغبة ، ودون ان تقول شيئا قامت الى ثيابها فلبستها ، ودخلت الخيمة ، ومن الخارج بلغني صوت نشيجها في سكون الليل• كانت تبكي ، وكنت أسمع ، ولا أقـوى على الدخول حتى كلمتنـــي •

ـ تعال ، قالت ، لماذا تتظاهر بالمسكنة بعد الذي فعلت ؟

دخلت الخيمة حذرا ، منكمشـــا ، متوقعا ان تنفجـر في وجهي • كان من حقها ان تلعنني ، ان تتف علي ، ان تطلب ثمنا غاليا من تذللي لكي ترضى • ولكنها ، بدلا من ذلك ، صاحت بي :

ـ لماذا انت خائف ؟ قبـل قليل كنت شجاعا ، كنت رجـلا ، اغتصبت بالقوة امرأة جاءت برضاها اليك •

لم أفتح فمي فأضافت :

- كان الحق على القمر اذن ؟ حسنا ، سأفترض انه هو الذي اغتصبني وقد سامحته .. كان لذيذا هـذا القمر ، وعلى الرمل .. هكذا يفعل الصيادون ؟

قلت :

- ليس كلهم .. الوحوش منهم مثلي ..

فرنت الي وقالت :

- لاتأسف .. ربما كنت أحب الوحوش أمثالك .

سكتت قليلا وتابعت :

- اكيد سأحبها .. وسأحبك انت ، كيفما كنت .. لقدأمتعتني .. أبكيتنـي ولكن أمتعتنـي ، تعـال قبلنـي ، قبلنـي كثيرا .. انا صرت لك ، الآن صرت لك ، ولن أفترق عنك.

قبلتها . كانت حارة وقبلتهـا ، ونمنا معا ، تلك الليلـة ، للمرة الثالثة . تفاهمنا واتحدنا . اكتشف كل منا انه ماكان قادرا ان يهب الآخر للغير . وفي اللحظـة التي اعتزمت فيهـا التضحية ووهبت شكيبة لزوجها ، اعتزمت هي أيضاً التضحية ووهبتني لخلاصي . « انا ايضا - قالت وهي تلتصق بي داخل الخيمـة ، فكرت انني سأكون عبئـا عليك . لاجلي ستضطر

للبقاء هنا ، وبقاؤك يعرضك للخطر ، وقد يقبضون عليك ، فأكون انا السبب •• لذلك تركتك تذهب لتنجو بنفسك • ،

ـ والآن ؟

ـ سأكون معك كل يوم ••

ـ وزوجك ؟

ـ زوجي في الاناضول ولن يعود • ربما تزوج ، وحتى لو عاد ••

ـ حتى لو عاد ؟

ـ نعم حتى لو عاد ! •• رددت بتصميم •

قلت :

ـ شكرا ياشكيبة ، شكرا ياعزيزتي ، ياغاليتي ، ولكن انا ، هل أستحق هذا كله ؟ لماذا تضحين لاجلي ؟

تفرست بي ، وفكرت وهزت كتفيها ، وصمتت ، ثمقالت :

ـ لا أدري •• ربما لأنك كريم ، او لأنك مجنون ، او وحش ، او لانه ليس في ضيعتنا من يشبهك ، او ليس فيها من هو في مثل وضعك •• لماذا يلاحقونك؟هل يريدون حقا سجنك او شنقك كما تقول ؟

ـ نعم هذا ما سيفعلونه لو قبضوا علي •

ـ ولماذا ياربي ؟

ـ لانني قتلت زخريادس الخمار !

ـ أعرف •• ولكنني انا ، شكيبة الراعية ، لن أسمح لهم ، لن أدعهم يقبضون عليك •• أستطيع اخفاءك في هذه الغابة، وسأحمل اليك الطعام والشراب كل يوم •

ـ وانا اصطاد السمك !

أضفت :

ـ وحين يكون لدينا الكثير منه تبيعينه ••

ـ سأفعل •• ولكن يمكن ان نعيش بدون ان أبيعه ••نأكله، ونبقى معا ، هنا في الغابة وسأحرسك • اذا رأيت الدرك أنبهك •• أعرف أماكن كثيرة في الغابة تختفي فيها،وأجيئك في الليل ، ونبقى معا الى الفجر ••

اتفقنا •• كانت كلماتها بسيطة وصادقة • كانت شكيبة عاقلة وجريئة ، ومثلما حلمت ، في ليالي المرض والخوف ، صار •• ودعتها عند الفجر ، وقلت لها : « في النهار نلتقي •• سأصطاد كمية من السمك الآن ، سأصطاد كثيرا منه ، وتبيعينه على الطريق العام ، بأي ثمن • المهم ان يصير معنا بعض المال ، وان تشتري لي من المدينة خيوطا وصنانير ثم نرتب أمورنا • انتقل الى الغابة ، وهناك نبني خيمة ، وفي المستقبل ننشىء حديقة ، وسأصنع لك القارب •• » •

ذهبت وهي تضحك • كانت سعيدة وكنت سعيدا ، ومالت

ابتعدت في الغابة ، متسللة الى قريتها وبيتها ، حتى رجعت الى خيمتي وبدأت الصيد ..

ايه ! كم سارت الامور ، مثل الريح المواتية ، بعد ذلك ! ثلاثة شهور تقريبا ، ونحن معا في الغابة . كنت أصطاد ، واحرس البقرات ، بينما تذهب هي فتبيع السمك . صارت لدينا خيوط وصنانير . اشترينا مايلزمنا من دكاكين القرى المجاورة ومن المدينة نفسها . شكيبة كانت تنزل الى المدينة مرة في الاسبوع . كانت ذكية وماهرة ، وكنت أخاف عليها ، وأظل قلقا حتى تعود ، واذ تلوح من بعيد ، حاملة الاغراض، كنت أركض الى لقائها وأسألها عن المدينة ، والاخبار ، والاسعار وأعطيها ماتبقى من مال . وقد رفضت ان تأخذه أول الامر ، واقتنعت بعد ذلك الا حاجة لي به ، وان وجوده معها، لشراء مانحتاج اليه ، اكثر فائدة . وحدثتني عن حماتها العجوز ، وكيف تحسن اليها ، وتعيلها بعد ان لم يبق لها ، في غياب ابنها في الاناضول ، من يفتح عليها الباب ، وكنت أنصحها بالحذر فتفهم نصائحي . كانت تثق بي كما أثق بها ، واذا لم تأت ليلة او ليلتين لا أسألها ولا أعاتبها ، أدرك ان هناك سببا منعها من المجيء ، وان رغبتها في قضاء الليل معي لاتقل عن رغبتي ، ولكن لابد من الاحتراس .

وقد لبت شكيبة كل رغباتي ، باستثناء العرق . رفضت ان

تشتريه او تحمله ، وقالت « اذا شربت مرة فستعود الى الشرب كل مرة ، وأصرت على رأيها ، ولم أخالفها •

كانت ترعى قطيعها في أماكن مختلفة ، مجاورة للغابة ، وفي الاصباح ، قبل ان تصل ، وفي الامسيات ، حين تعود بالقطيع الى القرية ، كنت أشتغل في تهيئة المكان الذي انتقيناه في الغابة • قطعت بعض الاشجار ونشرتها أخشابا • مهدت الارض لاقامة البيت ، واتفقت معها على ان تبقى معي كل فصل الشتاء •

صارت الغابة مدينتنا • صارت عالمنا • وقد ألفتها وأحببتها• شعرت بالطمأنينة والراحة فيها • لم تعد جدرانا رصاصية تضغط بثقلها على الصدر مثلما أحسست بها وانا خارجها • ربما لانني عشت فيها ، ولان الغابة ، مثل البحر ، قبلتني ، واحتوتني ، وكانت كريمة معي بفيئها وعطرها وطراوتها وأعماقها الفاتنة وذلك السكون الشامل فيها ، وتلك الحرية التي توفرها لي ولشكيبيتي • كنا نشوي السمك ونشرب القهوة ونتحدث ونتنزه ونستلقي على العشب في ضوء القمر ، او نتام متعانقين في خيمتنا الموقتة ، بانتظار اقامة البيت الخشبي من جذوع الصنوبر •

كنا في الخريف ، وكان خريف الغابة مثل ربيعها ، له لون متميز • وهذا أول خريف لي فيها ، لذلك كان احساسي

به قويا • كنت أرتعش أحيانا أمام الاصفرار الذي ينتشر في العشب ، وأمام تساقط الاوراق اليابسة المبرقشة بالصفرة ، والادغال المتغيرة ، والحزن الرقيق البادي لعيني وتلجمني هذه المهابة عن الفحش والشتائم ، وتستغرقني فأصمت حين أكون وحيدا ، وأتأمل الاشياء من حولي بغير حركة ، حتى ضحكت شكيبة عندما فاجأتني مرة على هذه الحال وقالت :

ـ ماذا تفعل ؟ تصلي ؟

ونبهتني :

ـ اذا نزل المطر أصبحت الاقامة صعبة في الغابة •• أسرع ببناء البيت ، وسأساعدك • الشتاء لايرحم هنا ، ويجب ان نستعد له •

كانت على حق • هي تعرف بهذه الاحوال أكثر مني • وقد انتهيت الى طاعتها والوثوق بآرائها ، فعملت بجد ،وعملت معي ، وكنا على وشك الانتهاء من اقامة الاعمدة ، حين حدث ذلك الحادث ، في ذلك اليوم الخريفي ، في تلك الصبيحة التي ودعت فيها شكيبة ، وانا لاأدري ان الفراق سيكون طويلا بيننا •

جاءتني ليلا • وياللفرحة حين كانت تجيئني ليلا • ماأقصر الليل عندئذ وهي معي ، قربي ، بين أحضاني ، عارية • حارة ، شبقة ، تقبلني ، تعانقني ، تغني لي وأغني معها •

وتلك الليلة ! هل أنسى كيف كانت تلك الليلة ؟هل لانها ليله الوداع ولا ندري ؟ بقينا حتى الفجر ، وفي ذلك الوقت، كعادتها رجعت الى بيتها ، لتجمع القطيع وتعود بـه الى قرب الغابة ، حيث نلتقي ثانية في النهار •

ذهبت انا الى البحر لاصطاد • مع الفجر ذهبت • كان الصيد طيباء أغراني بالمزيد فلبثت في مكاني الى مابعد الضحى• كان كل شي طبيعيا ، وانا في ذلك الجون [1] الصغير ، ادندن باغنية ، منتشيا بوفرة الصيد ومتعة الليلة في أحضان شكيبة • وكانت مفاجأة ان أسمع أصواتا قربي ، خارج الجون ، ثـم أرى قوارب صيد تسرع الى الشاطىء والصيادون يتصايحـون مذعورين ، يسحبون شباكهـم ويطرحونها بأسماكهـا وسط القـوارب •

كان علي ان أختفي • هممت بذلك وكان سهلا ، فقـد خبرت مسارب الغابة ، ويكفي ان أدخل فيها حتى لايعرفنـي ولا يدركني أحد منهم • ولكنني لـم أفعل • لـم أستطـع أن أفعل • كم من شهور مضت ولم أر قـوارب صيد تمـر بي وصيادين يصلون الي فابادلهم كلمة ؟ •• ثم هاهم يسرعون ،

(١) الجون : الخليج الصغير •

يسحبون شباكهم ويتصايحون ، ولا بد ان حادثا وقع لهم ، وانهم في ضيق ، اخوتي هؤلاء في ضيق ، وانا صياد مثلهم • البحر صديقنا ، ولكنه عدونا أيضا • والصياد لايعرف متى هذا الحبيب ، هذا الصديق ، هذه المرأة المتقلبة، تدير له ظهرها، وتثأر منه لنفسها • ربما فعلها البحر معهم الآن • عاقبهم بغير انذار • وربما كانوا ملاحقين مثلي ، وبحاجة الى مساعدتي • هم لم يأتوا لنجدتي • لاأنسى أنهم لم يأتوا لنجدتي ، ولم يسألوا عني ، لم يقلبوا هذا الشاطىء بحثا عن زكريا المرسنلي، ومع ذلك فأين القلب الذي يطاوع الصياد ، يطاوعني انا ، ان أدير ظهري ولا أسأل عنهم وعما حدث لهم ؟

سحبت صنارتي من الماء ، وصحت بهم من الشاطىء :

— هيه ، أنتم ، يااخواني ، تعالوا الي ، تعالوا من هنا •• من هذا المعبر الرملي ، أسرعوا ••

تفرست فيهم وهم يقتربون • لم أعرفهم • ليسوا من المدينة • كانوا من ضيعة « قره أغاش » الساحلية ، صيادين من القرى ، لم يعاركوا البحر ، ولا تمرسوا بمصاعبه • هذا الصنف لايحظى باحترامنا نحن بحارة الميناء • يصطادون بغير

خبرة ، ويركضون بقواربهم ، كالصيادين الجهلة في الغابة ، من جهة لاخرى ، دون ان يعرفوا مواطن الصيد وطرائقه •

خوّضت في الماء أساعدهم • سحبنا الفلائك، ولملمنا الشباك، وسألتهم ونحن نفعل ذلك :

ـ ماذا حدث ؟ ممّ تخافون ؟

ـ من الحوت ، صاح بعضهم ، ظهر حوت جديد في البحر ••

ـ ولماذا هربتم الى هنا ؟ كان الأفضل ان تدخلوا الميناء •

ـ لانستطيع دخول الميناء ••

ـ تصطادون بدون رخصة اذن ؟••

سكتوا ••

ـ واين الحوت •• ؟

أشاروا بأيديهم جهة المدينة :

ـ هناك •• رأيناه بعيوننا ••

ـ كبير ؟

أجاب صياد يافع :

ـ بحجم المركب ••

ـ ولم يقتلوه ؟

ـ من يقتله ؟ هربت المراكب والقوارب من وجهه •• وفي « القشلة » ضربوا « البرزان » •• سمعناه باذننا •• الناس يتراكضون على الشاطىء والميناء تعج بالخلق ••

قلت في نفسي « ليهرب أولاد الابرة •• ليموتوا جميعا•• هؤلاء حثالة ، ليسوا بحارة ولا صيادين » •

قال صياد كهل :

ـ اذا دخل الميناء ، خرب بيوت الناس ••

فقال آخر :

ـ دخل وانتهى الامر •• سيضرب بالصخور كما فعل الحوت في المرة الماضية •

ـ وعندئذ يدوخ •• يشحط [1] على الرمل فيربطونه ••

ـ من يربطه ؟ صاح الفتى • من يجرؤ على الاقتراب منه ؟

ـ الرجال ؟

ـ واين الرجال ؟

ظل السؤال بغير جواب • قلت في نفسي : « آه يامدينتي التي لم يعد فيك رجال ! » فكرت : « حقا خلت مدينتنا من الرجال ؟ » •

---

١) شحط : جنح

نظرت في عيونهم • واحدا واحـدا نظرت في عيونهـم • كنت أبحث عن جواب ، لكن واحدا منهم لم يجبني ، وواحدا منهم لم يقلّ شيئا • وانا لم أقل شيئا • الذعر والقهر ، والمدينة بلا رجال ! وانا أرتجف ، وانتظر الجواب « هل خلت مدينتنا حقا من الرجال ؟ »

هذا لايمكن ! لا أصدقه • انا أعرف مدينتي • أعـرف بحارتها وصياديها ورجالها • أعرف ان البحر قذفها بحيتانه ، وغزاها بأمواجه ، وفاض عليها بمياهه ، وطغىٰ وبغى ، وأغرق كثيرا من مراكبها وأهلها ، وزعزع كثيرا من بيوتها ، واقتلـع أشجارها ،وناحتعواصفه ،وأمطرت طوال ليال وأيام سماؤها، لكن مدينتي ظلت هناك • ثم تراجع البحر • ارتدّت حيتانـه، وولت عواصفه ، وأشرقت الشمس ونبتت الاشجار • عجز البحر عن ابتلاع المدينة • الحيتان تبتلع الاسماك لا الصخور، ومعدة البحر الكبيرة تزدرد السفن لا القلاع • كانت بيوتنـا قلاعا ، وكنا حراس هذه القلاع • كنا رجالا ، فماذا حـدث الآن ؟ مات الرجال ؟ كل الرجال ؟ محال ؟••

صرخت :

ـ محال ! ما مات الرجال •• لايمكن ان يموت الرجال !

وبكيت •• قهرا بكيت ، لان عيونهم،الهزيمة في عيونهم، كانت خرساء ، جامدة ومذعورة ، ولانهم رفضوا ان يصدقوا ، وان يجيبوا ، وتخلوا في ساعة الشدة عن مدينتنا وهربوا ••

قلت كي أشجعهم :

ـ الحوت مخيف ياأخواني ولكن الخوف منه مخيف أكثر ..

عودوا الى المدينـة ، الى الميناء واشتركوا في حصاره ، وفي قتله ..

صاح واحد منهم :

ـ وانت ؟ والرجال الذين تتحدث عنهم !؟

ـ انا ؟

ماذا أقول انا ؟ أقول ان مدينتي شردتني ؟ والرجـال ؟ تراهم تشردوا مثلي ؟ منعوهم من النزول خوفا على القوارب؟ انا أعرف أصحاب القـوارب ، وأعرف جماعة المينـاء ، هؤلاء الذين يتولون العملية من المقهى ، من وراء النراكيل . هـم لايقاتلون الحيتان ، وحتى حين تـدوخ لايغامرون بربطهـا . ينتظرون ان تمـوت في أرضهـا ، او تذهب كمـا جاءت . لايسمحون للبحارة بقتالها أو ربطها،وانا ، في المرة الماضية ، نزلت برغمهم ، وربطت الحوت برغمهم،وحين نجحت وصفق الناس انزعجوا ، ومـع ذلك اسـتولوا على الحوت وباعـوه للتجار . وعندما افرغت جوفه استولى عليه خمارهم . أخـذ مافيه وضحك علي . أسكرني وسرقني . هم باعوا الحـوت وزخريادس سرق مافي جوفه ، وحين صحوت وطالبته بحقي

أنكر •• ولأني قتلته طاردوني •• نسو ني وسأنساهـم •• سيذكرونني وسأنساهم •• سيذكرونني وسأنساهم •

جفّت دموعي • الحقد جفف دموعي • عيون الصيـادين كانت جافة أيضا • لم تبك لبكائي • كان فيها الخوف والعـار فلم تبك لبكائي ، وكان الصمت يخيم علينا ، وكلمة « انت » ترن في اذني ••

ـ انـــــا ؟

نظرت صوب المدينة • رغبت ان أضحك • ان أمد لهـا لساني ، ان أشتمها ، لكنها كانت مدينتي ، وأهلهـا أهلي ، ورجالها اخواني •• كانت في القلب الذي عذبته ، وفي الروح التي جرحتها ، وما كنت قادرا ، وهي في مصيبتها ، ان أكون خارج المصيبة وأضحك ، وان أكون نذلا وأشمت •

قلت للصيادين :

ـ لنذهب الى الميناء ياالخواني !

ـ وماذا نفعل بحق الله ؟ أجابوني •

ـ نقتل الحوت ••

نظر بعضهم الى بعض ••

ـ كيف ؟

ـ كما يقتلون الحيتان •• كما قتلنا الحوت في الماضي •

ـ لانستطيع .. لن نغامر ..

ـ ونترك الحوت يخرب الميناء .. ؟

ـ ليتدبر جماعة الميناء أمرهم ..

ـ واذا لـم يفعلوا ؟

ـ ماشـأننا نحن ؟

ـ ألستـم صيادين ؟

ـ بلى ، ولكننا لن نغامر ..

ـ والقوارب التي في الميناء ؟

هزوا بأكتافهم . كانوا أنذالا فهزوا بأكتافهم .. لقـد نجوا بأنفسهم وقاربهم وهذا هو المهم .. ماكانوا رجالا ولا بحارة .. كانوا نساء .. وقد استثاروني ، فصحت بهم :

ـ احلقوا شواربكم اذن .. احلقوها يانساء بشوارب !

نبح واحد منهم :

ـ لماذا تشتمنا ؟ من تظن نفسك انت ؟

تناولت مجذافا من الارض . قبضت عليه بيدي الاثنتين واتجهت نحوه .. ضرب الغضب على عيني . ماعدت أميز.. كان جبنهم فوق احتمالي . كان جبنا لايحتمل .. المدينة ،

مدينتنا ، ميناؤنا ، يخربها الحوت ، ونحن لانفعل شيئا ، لا نأتي بحركة ، ولا نقاوم ، ثم نهرب •• ونرضى بالهرب !؟

هرع عجوز فاعترضني :

ـ لاتضرب ، قال ، ستقتله او يقتلك •• اذهب انت اذا شئت •

ـ سأذهب ، صحت ، ولكن عليكم ان تذهبوا معي ايضا •

ـ لن نذهب ، أجابوا •

كانوا قد استداروا حولي • كانوا مستفزين وقد استداروا حولي • كان بعضهم قد أمسك بالعصي والاخشاب • لم أخف منهم ، شتمتهم • كنت قادرا ان أقتل من يرد منهم فتحاشوني• تفرقوا وتركوني ، فبصقت على الارض ومضيت ، بصقت على الجبن والخسة ومضيت ••

سرت على طول الشاطىء • ببطء اولا ، ثم بعجلة ، ثم ركضت ، وضاعفت ركضي ، وسمعت بعضهم يناديني •• ثم تبعني واحد منهم ، وتبعني آخر ، وآخر •• وركضنا جميعا باتجاه الميناء •